تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية

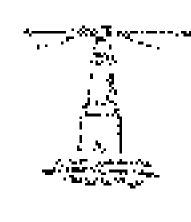
في سنة ١٩١٠ — ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلو نالينو

تقديم

الدكتور طه حسين



دار المعارف بمصر

تاريخ الآداب العربية

تاريخ الآداب العربيّة

من الجاهلية حتى عصر بنى أمية

نص

المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية فى سنة ١٩١٠ — ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلو نالينو

اعتنت بنشرها مريم نالينو

تقديم

الدكتور طه حسين

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقـديم

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى . قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التى تعرض للأدب العربى وغيره من الآداب الأخرى . ولكنى لم أقرأه بعقلى وحده، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبى ، وإنما قرأته بعقلى وقلبى وشعورى وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التى تثور فى نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم فى عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شىء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع فى تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذى لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره فى النفس من المضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الأنس بتلك الآمال العذاب التى طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتى صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فملأت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط ، وأتاحت لكثير من المنى أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التى أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربى القديم . ولكنه بالقياس إلىّ وإلى نفر من رفاقى فى ذلك الجيل الذى مضى ، يتجه إلى القلب أيضًا لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لونًا من ألوان تلك الحياة التى كنا نحياها فى أول هذا القرن ، والتى لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حينًا تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو

إلى نفوسنا ونفرغ للذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم ! وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعلق بحب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامح الطامع المتطلع للأستاذ الذي يرضى الطموح والطمع والتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترتقي إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صاد ، ولا يردها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها .

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابنا في تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالي العظيم « كارلو نالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً .

في ذلك الوقت كنت طالباً في الأزهر أقيم في ذلك الحي الذي وصفته في كتاب الأيام ، والذي زرته منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لي من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحي فأراد أن يراه . فلم نكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسي :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلها   أعيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم ! أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد ، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب في هذا مذهب المجاز وإنما هو مذهب الحق الذي يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحي ورأوا فيه تلك الأطلال التي عبث بها الزمان ، وأهملها الإنسان وخلى بينها وبين البلى والخراب .

كنت أعيش فى ذلك الحى أخرج منه مصبحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصفى ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التى كنت أسمعها فى الأزهر حين يرتفع الضحى تردنى إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء فى مساجد البصرة والكوفة وبغداد . وكانت دروس الأدب التى كنت أسمعها فى الجامعة حين يقبل المساء تدفعنى إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات فى روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوربية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضى البعيد وجه النهار ، وأعيش مع الحاضر الأوربى الحديث آخر النهار ، وتشغلنى خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد ، يسعدون حين يعودون إلى الماضى ، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التى كانوا يتطلعون إليها . ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب أن يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر فى أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدروا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة ، وهذا الغرور الحلو البرىء الذى كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم فى غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسى إلى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى فى تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقى عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شىء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ،

وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة فى نفوسهم عواطف وأهواء وميولا أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم سئموه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرءون فى الكتب ، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم فى اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرءون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتيح لهؤلاء الأوربيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير فى قلوبهم فنونًا من التمرد وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والجموح ، وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأى شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الذى هو الأساس المتين لكل تطور منتج فى الحياة العقلية والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعممين .

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .

أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين : سيد على المرصفى ، الذى كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذى كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته ، وعلمنى الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألائم بينها ،

وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال . وكل ما أتيح لى بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل فى مصر وفى خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقيته منهما فى ذلك الطور الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت فى قراءة كتب الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس . وحين أمعنت فى قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذاً فى أن تكون حياتى كلها براً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا إلىّ من معروف وما أسديا إلىّ من جميل . وشهد الله ما قرأت فى كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة فى الأدب إلا ذكرت أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسى تحية الحب والإعجاب والشكر والوفاء .

والذين يقرءون هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم إلى القراء المتأدبين يحسن بهم أن يقرءوا ما كان يدرس لشبابنا فى ذلك الوقت من أدب فى معاهدنا ومدارسنا على اختلافها ، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « نالينو » يلقى علينا فى الجامعة ، وبين ما كان يلقى علينا فى المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق فى تطور حياتنا العقلية وفى تطور تصورنا للأدب العربى قراءة وفهماً وإنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظماً ، وألقى فى روعنا أن الشعر العربى لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاء ونسيباً وتشبيباً فحسب ، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها وظروفه التى أحاطت به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائليه وفى سامعيه أيضاً . ولأول مرة ألقى فى روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة فى نشأة فنون مختلفة من الشعر العربى فى العصر الإسلامى أيام الخلفاء الراشدين وأيام بنى أمية .

ولأول مرة ألقى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدى وبين الشعر الذى استحدثته السياسة الإسلامية فى العراق ، وبين النسيب التقليدى القديم والغزل الذى استحدثه النظام الاجتماعى الإسلامى فى الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذى

نشأ فى حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ فى البادية العربية فى الحجاز ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغى أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغى أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التى يذخر بها التاريخ والتى تؤثر فى حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه ؛ لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها ، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التى سبقته فأثرت فى إنشائه ، والتى عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه ، والتى جاءت فى إثر عصره فتلقت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران إذاً ، مظهره الفردى لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذى أنتجه ، ومظهره الاجتماعى لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها . هو فى نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه فى تلك الدروس التى كان الأستاذ «نالينو» يلقيها علينا ، حين كان هذا القرن فى العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس إلينا فى تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهريين منا بنوع خاص . فمن الطبيعى أن يحدث فى نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك فى أن حقائق التاريخ الأدبى العربى قد تغيرت منذ ذلك الوقت فى كثير من أنحائها وفى كثير من تفصيلها كذلك .

وليس من شك أيضاً فى أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة فى حياة الأدب العربى أثناء القرون الأولى

للهجرة ، وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفى من الحقائق . وهم بعد ذلك قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة فى الدراسات العالمية لأدبنا العربى القديم .

كل هذا شىء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى فى هذه الكتب القديمة التى نشرت ، وفى هذه الكتب الجديدة التى ألفت ، وفى الدروس الأدبية التى تلقى فى جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة ، وفى إنتاجنا الأدبى الخالص الذى شغلت بدرسه وعنيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية فى غرب أوربا وشرقها وفى شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً ، وهو أن دروس الأستاذ « نالينو » فى الجامعة المصرية القديمة كانت هى الموجه الأول لنهضتنا العلمية فى دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة ، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ، ثم وجهت أجيالا من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرءوا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث فى تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ « نالينو » نظيراً فى التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ « سنتلانا » الذى أحدث فى مصر نهضة خطيرة فى دراسة الفلسفة الإسلامية ، وفى الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة .

وقد أتيح للأستاذ « نالينو » من البر به بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل فى نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شىء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الآنسة « ماريا نالينو » . فهى التى حفظت آثار والدها العظيم وجدت فى إعدادها للنشر ، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار فى إيطاليا ، فأهدت للعلم وللعلماء كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة ، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدّت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً وإنما وفت لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللأستاذة « ماريا نالينو » فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهيأتا لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ، والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برّى بأستاذى العظيم ، وشكرى لابنته الكريمة وللدار المعارف على ما أتاحتا لى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى فى طور من أطوار الشباب .

طه حسين

تنبيه

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التي ألقاها المرحوم الأستاذ كرلو نالينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ – ١٩١١ دراسية، فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشي بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار، فاعتنيتُ بنقل الحواشي إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة في بعض الكتب التي طُبعتْ بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصفي مستطيل [ ].

ومن الواجبات عليَّ أن أشكر الدكتور طه حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسّس ذكرى للمحبة الخالصة بينه وبين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن.

مريم نالينو

مقدمة

لمّا افتتحتُ دروسى في السنة الفائتة كان أوّلُ كلامى إبداءَ شكر خالص حميم صادر عن خفايا قلبي للقائمين بالجامعة المصريّة على ما شرّفونى به بالدعوة إلى إلقاء محاضرات فى هذا المعهد العلميّ الذى على حداثة عهده أضحى قبلةَ آمال المُجدّين فى ترقية هذه الديار الشريفة ومركزاً تحوم حوله قلوب الآخذين بأيدى الأمّة المصريّة فى سبيل الفوز والتقدّم . وكذلك فى هذه السنة ليس لتدريسى افتتاحٌ أوْلى ولا ابتداءٌ أحرى من إعادة جزيل الشكر على ما أظهره لى دولة الأمير أحمد باشا فؤاد ومجلس إدارة الجامعة من حُسْن الظنّ بى واستحسان عملى السابق حيث تكرّموا علىّ بتكرار الدعوة فى هذا العام وإن عجز لسانى عن توفية ما يقتضيه مثل هذا الشرف من عبارات الشكر والعرفان .

والذى حملنى على تلبية الدعوة مع معرفة قلّة علمى وضَعْف قُواى بالنسبة إلى خطر الموضوع وجلالته وغلب فى نفسى على المخافة من النقصان عن نَهْض أعباء هذا المنصب والتقصير عن إحسان القيام بمثل هذا التدريس الصعب الوعر أنّ الجامعة المصريّة تدْخل هذه السنة فى دَوْر جديد وطور مجيد يُرْجَى منه فضلاً عن ترقية العلم إصلاحُ أحوال التعليم بالقطر المصرى فى المستقبل غير البعيد وتجهيزُ المعلّمين الأكفياء لتحسين جميع المدارس الوطنيّة وجعْلها أهلاً لغايتها تلك العليا التى هى مَرامُ أولى الأفكار السامية والأميال العالية أعنى تكوينَ القرائح وتثقيف العقول وتربيةَ النفوس وبثّ روح الجِدّ والعمل وإيجادَ الرجال الخادمين لوطنهم بهمّة وصدق واستقلال . وإنّ الأفاضلَ الكرامَ المعتنين بأمور الجامعة هم كفلاءُ النجاح وزعماءُ الفلاح .

فلذلك سُررت أىّ سرور وحسبت أنى قد نلت أسمى المنى بوقوفى اليوم بين أيديكم مشتركًا وإن لم أكن كفئًا فى هذا الأمر الجليل والعمل الخطير الذى هو أشرف ما يمتدّ إليه أعناق الهمم وأعظم ما يتنافس فيه نبال الأمم .

قد سبقت أمّتي الإيطاليّةُ أيَّ سبْق جميع الأمم الإفرنجية الأخرى إلى عقد العهود وتثبيت روابط المحبّة والوئام بينها وبين الديار المصريّة فكان فى القرون الوسطى تجار البندقيّة وجنَوة وغيرهما من المدن الإيطاليّة قاصدين مصر أفواجًا مقتحمين لجج البحر مُفْرِغين الجهد فى توسيع نطاق التجارة فأصبحوا فى أثناء أمد مديد بل أجيال متوالية متفرّدين بالاتجار فى الشرق مستبدّين بعلاقات الودّ والسلم بهذه الأراضى الشريفة . وربّما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص وحكايات سمعوها من القصّاصين المصريين وأشاعوها فى الأنحاء الإيطالية حتى اشتهرت فيها فألبسها أدباءُ أمّتى ثوبًا قشيبًا فى مؤلّفاتهم المنظومة والمنثورة . وكذلك بعض المصوّرين المشهورين من بنى جالدتى فى القرن الخامس والسادس عشر ربّما فى تصاويرهم المحفوظة الآن فى المتاحف رسموا أشعرة الأمراء والسلاطين من دولة المماليك أو صوّروا رجالاً عليهم الحالُ المحلاةُ بكتابات عربيّة منقولة ممّا رأوه منقوشًا فى الصوانى والقناديل وما أشبهها من المصنوعات المصريّة . وإن تصفّحتم الكتب العربيّة فى صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقىّ الدين عبد الرحمن من علماء القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبْح الأعشَى للقَلْقَشَنْدىّ المتوفّ سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) وجدتم فيها قوانين رسم مكاتبة سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات أى الحكومات الإيطاليّة . وعلى تمادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطنى موقوفة على محض المحبّة والمسالمة فلا كدّرتها أبداً شرُّ العداوة أو سوء الطمع والغضب ولم يصل أبداً مركبٌ إيطالىّ إلى مرافئ القطر المصرىّ إلاّ بصفة صديق يزور الصديق . فأحسَبُ من أحسن التفاؤل لتوثيق علائق الارتباط بين الأمّتين إنّ بعضنا الإيطاليين دُعينا إلى الاشتراك فى هذه النهضة العلميّة الجديدة التى تعود على بلادكم بالفائدة العظمى وتكون سببًا فى زيادة رفعة القطر وعزّة الشعب . فأتمنّى كلَّ التمنى ازدياد المؤالفة والاتفاق وتبادل المحبّة والصداقة على الدوام .

إنّ الموادّ التى ستدور دروسى عليها هذه السنة ليست فى كتاب واحد موضحةً أو فى كتب قليلة مدوّنة بل هى فى جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة فى

لغات شتّى شرقيّة وغربية متفرّقة فضلاً عمّا يكون من مبتكرات أفكارى .
فلذلك أرى من المناسب أن أكرّر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء السنة الدراسيّة السابقة أعنى أن أحثّكم كلّ الحثّ على أخذ مذكّرات فى أثناء الدرس ثمّ على تقييدها وترتيبها فى منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلاّ تنسوا ما سمعتم ولا تحفظوا شيئاً من المسموع إلاّ فهمتم معناه واستقصيتم فحواه .
وأنتم تعلمون أنّ التعلم بشيئين : حسن الحفظ وإدمان الفكر فى المحفوظ فإن قل أحدهما قلّ ونقص المتعلّم . وذلك خصوصاً فى المدارس الجامعات التى منتهى ما يرجى منها ليس كما فى المدارس الثانويّة محضَ إفادة الطلبة ما سينفعهم فى الحياة العاديّة من المعارف بل هو هداية الطلاّب فى طريق النبوغ فى الفنون وتمرينهم على آداب البحث العلميّ باستقلال الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمثَل المدرّس بالجامعات كمثَل دليل رافقَ السائحين مدّةً ما فلمّا رآهم قادرين على تذليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من التجهّز لباقى السفر والتحرّز من أخطار السَّيْر ودعهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر الميمون ونيل المرام متمنّياً أن يسعهم اكتشافُ طرق جديدة وسلوكُ مسالك لم يدخلْها أحدٌ قبلهم وقطع بقاع لم يسبقْ إليها غيرهم . كذلك الأستاذ بجامعة يختار كلّ سنة قطعة صغيرة من فنّه ويتبحّر فيها أثناءَ دروسه ليعرّف الطلبة أساليب البحث الدقيق والفحص العميق التى لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حلْبة المعارف . فقُصارى القول أنّ غاية الجامعات ليست فقط أن يُصبح الطالب واعياً لما تلقّاه عن أستاذه من الفوائد والأخبار بل هى خاصّةً تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد فيما وعاه ليُضحى بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرّج فى مراقب الارتقاء العلميّ باستقلال الفكر قادراً على سدّ الخلل الذى ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختصّ به من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانويّة الاقتناع بما دوّنه وبيّنه المدرّس أو بمضمون الكتب القليلة الابتدائيّة المقرّرة لتلك المدارس ليكون مقصد التعليم الثانويّ أن يقتبس الشابُّ قدراً معيّناً من المعارف بفنون مخصوصة مناسباً لمقتضى القيام بأمور الحياة العاديّة العمليّة . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التى غايتها القصوى إنّما هو تأهيل أخيار الشبّان للتوصّل إلى أعلى درجة من المهارة

بالبحث العلميّ المُبْدِع ولإتقان الوسائل والأسباب المبنيّ عليها سيْرُ الوطن والعلم والاجتماع الإنسانيّ فى سبيل الرُّقى الدائم والتمدُّن الزائد . إنّ عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزرّاع فى حقولهم لأنّ دروسنا ليست إلاّ بَذْرَ بِزْرٍ صغير فى عقول المستمعين فلا يذُرّ ذلك البزْرُ ولا ينبُت ولا يُمسي شجرة وارقة مُثْمِرة إن لم يلقّحه المتعلّم بقوّة الحافظة ورياض العقل وإمعان النظر وسعة مطالعة جمّ من مصنّفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النَّصَب والجِدّ والعنَاء والجهد لأنّه كما قيل :

بقدر الكدّ تُكتَسب المعالى ... فمن طلب العُلا سهر الليالى

وحيث إنّ حفظ جميع ما سُمع مرّة واحدة لشَئٍ مستحيلٌ (ولا يخفى على أحد صحّةُ المثل السائر أن كلّ علم ليس فى القرطاس ضاع) . كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمعتموه بالجامعة والاستفادة منه بعد ما رجعتم إلى منازلكم إن لم تكن لكم كراريسُ قيّدتم فيها خلاصةَ الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهّز لتأدية الامتحان فى آخر السنة إذا كان ما دُرّس بالجامعة أكثر المادّة التى ستُمْتَحنون فيها ؟ لا بدّ لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأوروباويّة فى تقييد مذكّرات بسرعة أثناءَ درس الأستاذ ثمّ فى تكميلها واستخراج نخبتها وترتيبها مستعينين بمراجعة ما يتيسّر لكم من الكتب المشار إليها فى الدرس .

ثمّ أحرّضكم كلّ التحريض على الاتّساع فى المطالعة فإنّه ممّا لا غنَى عنه لمن يريد الترقّيَ الرحْبَ فى أىّ علم . وهو أيضًا من أعظم الواجبات عليكم خصوصًا فى هذا الفن الذى أتشرّف بتدريسه هذه السنة لأنّ شدّة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألةً علميّة بل خدمة جليلة لوطنكم يحقّ عليكم القيامُ بها . إنّ الذى يعيّن ويصون وحدة أمّة هو بالأخصّ وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المُتوارثة منذ الزمان القديم دون انقطاع وانفصال فإن أغفلَتْ صيانتُها انحدرت الأمّة إلى ورطة انحطاطها بل إبطال وحدتها . وإن راجعتم كتب تواريخ الغرْب ألفيتم أنّ بعض الأمم الإفرنجيّة قد تراكمت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرّها العدوّ وجعلها فى حال شرّ العبوديّة سلمت من الفناء التامّ لتمسّكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر مآثر قدمائها العلميّة

والأدبيّة. وربّ أمّة قد ألقاها تقلّبات الأمور وصروف الدهور في غاية الانحطاط السياسيّ أخذت تُصلح شأنها قليلاً وتعود إلى ما كانت أولاً عليه من العمارة والصلاح السياسيّ والاستقلال لمّا صارت علماؤها مُفْرِغين كِنانة جهدهم في البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفي إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم بعملهم هذا قد ألقوا روح الحياة في جسم الأمّة المنهوك القريب من الموت — فويلٌ لكلّ أمّة غلب فيها الفتورُ عن صون كنوزها الأدبيّة وإبقاء ذكر مآثرها .

ستسمعوني يا سادةُ أسرُد في أثناء دروسي عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين فأنتقدُ أقوالهم وأبدي فكري فيها بالحرّيّة التامّة مستحسناً تارةً لآرائهم وراداً تارةً عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحُجَج . وليس غرضي من ذلك الحطّ من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقوني في هذه الأبحاث الخطيرة ومهّدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحذا حذوهم . كلا . وإنّما غرضي الانتفاع بأعمالهم العلميّة المهمّة وتقديرُ فضائلها حقّ القدر واقتداءُ مثالهم في المسعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدْر ما استطعتُ ، لأنّه بسبب قلّة الطبيعة البشريّة بالنسبة إلى جلالة أسرار الكائنات وعظَم المخلوقات ربّما يعرض للباحث القليل الشأن أن تمكّنه إضافةُ شيء ولو يسيراً إلى ما اكتشفه واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إن مثَل العلم الذي لا نهاية لسعته كمَثَل جبل شامخ ذي وعور هائلة وصخور مُرْعبة راسٍ في وسط بقاع كادت تكون ممتنعة لا تُقْطَع لِما فيها من الخُشونة والصّلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء الجوّ ارتفاعاً لا يُحدّ مقدارُهُ حتى لا يمكن أحداً أن يرى قِمّته . وفي قديم الزمان تجاهد أجرأ الناس وأقواهم في التقرّب من سَفْح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب لا تُحْصَى ثمّ جاء ناسٌ أُخر جسورون مثلُهم أولو حزم وعزم وأخذوا في السعْي إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تُسْلَك في الأحجار والصخور فبعد المشاقّ المجيدة والزلاّت العديدة تمكّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ أخر وانتفعوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه وربّما لم يتقدّموا إلا بعد ترك المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع

إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً لمشروعهم فترقّوا شيئًا يسيراً بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقلّلوا مسافة ما بينهم وبين القمّة المرغوب فيها — هذا مَثَلُ مَسْعانا إلى الحصول على الحقائق العلميّة الغامضة فإنّ الحقيقة التامّة المطلقة هي القمّة المقصودة غير المدركة على تزايد تقرّبنا منها ، والأقدمون يفيدون المتأخّرين علمًا ويمكّنونهم من التوصّل إلى ما هو أعلى من منزلتهم ، وكذلك من المرتقين في مرقاة العلم مَنْ يعتبر ويشرح من مبحث وجهًا ومَنْ يلاحظ ويبيّن منه وجهًا آخرَ فنقتبس من بنات أفكارهما نوراً على نور .

ومن ذلك يتّضح جليًا أنّ تقدُّم العلوم النظريّة العقليّة مرتبط بل متعلّق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقّة التمحيص والنظر فيجب علينا أن ننتقدَ أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالماً خالياً عن كلّ غرض دنيّ وميل شخصيّ . إنّ ذلك الانتقادَ المقرونَ بالاجتهاد يفيدنا علمًا ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذى يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقًا بها . راجعوا يا سادةُ تواريخ الأمم الشرقية وتأمّلوا فيها حقّ التأمّل تجدوا أنّ انحطاط علومهم وسياستهم إنّما ابتدأ لمّا انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقلّ في العلوم واقتنعوا في المباحث النظريّة بالتقليد الذى كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحُجّة فعدلوا عن تأليف الكتب المُبْدِعة المطوّلة ملتجئين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشى اللاغية على المتون والشروح أو التقاييد والتقارير الباطلة على ذات الحواشى . ليس لأمّة تمدّن صحيح ولا تقدّم إذا لم يكن فيها رجال مستقلّون بالعلوم النظريّة مترقّون عن رتبة تقليد من سبقهم . فلذلك لا تقتصروا أيّها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها بل سرّحوا فيها أنظاركم وأعملوا فيها قوّة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يُقْنِعكم دليلهُ وبرهانُهُ فعليكم أن تسألوا أستاذكم وتطلبوا منه شرحًا أوسع وأوفى . وحيث إنّ العصمةَ لله وحده فلا يسلَم إنسان من الخطأ تمامًا على جليل قدره وعلوّ منزلته ووَفْر علمه وعقله ، ليس من المستحيل أن يزلّ الأستاذ أحيانًا في كلامه أو لا يُدْرِك غاية الوضوح في بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القِناع عن الغوامض ورفع الحجاب عن كلّ مُبهَم مرتاب فيه .

الباب الأول

١ – لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من المعاني المتعددة المختلفة . ٢ – تعريف تاريخ الكتاب . ٣ – كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية .

وهذا أوان الخوض فيما ستدور دروسي عليه :

١ – يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدّم تعريفَ ذلك العلم وتعيينَ موضوعه فأبتدئُ أنا أيضاً بشرح اسم الفنّ الذى أختصُّ بتدريسه هذه السنة وهو تاريخ الآداب العربيّة .

إنّ اللغة لكائنٌ حيٌّ فعلى مثل كلّ حيّ تقبَل النموّ والتجدُّد والفساد . وكذلك الألفاظ المفردة فكثيرًا ما يطرأ عليها من التغيّر والانتقال من معنًى إلى آخرَ حسبما يقتضيه تغيُّر أحوال الأمّة الاجتماعية والسياسيّة والتقدّمُ أو التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربيّة التى كثُر فيها تغيُّر المعنى الأصليّ على تمادى الزمان وتقلُّبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب حتى إنّ أحدًا من عرب الجاهلية أو القرن الأوّل من الإسلام او أُحْيِيَ الآن وسمع اسم الفنّ المعيَّنِ لى تدريسُهُ لما فهِم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلْنفحَص عن معنى لفظ الأدب الأصليّ ثمّ عما عرَض له من الانحراف عن أصله والإطلاق والحَصْر مدّة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطوّلة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأنّ لغويّى العرب عند شغفهم وعنايتهم المحمودة بلمّ غريب الألفاظ كثيرًا ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات

المألوفة كأنّها غير حريّة بالذكر . فتجدون مثلاً أن ابن منظور الإفريقيّ المتوفّى بمصر سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م لم يقيّدْ فى قاموسه العظيم الجسيم المترجَم بكتاب لسان العرب لفظ «الحَرْف» بمعنى الكلمة مع أنّه قديم متداول ، ولا أحد من علماء اللغة سجّل فى كتبه ذلك اللفظ بمعنى الشىء اليسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أظرف الكتّاب منذ القرن الأوّل للهجرة النبوية[1] . أمّا لفظ الأدب فأكثر اللغويّين اقتصروا على تعريفه هكذا : «الأدبُ الظَّرْفُ وحُسْن التناول» . وفى المصباح المنير[2] لأحمد ابن محمد المُقْرِى الفيّومىّ المتوفّى سنة نيّف وسبعين وسبعمائة ما نصّهُ : «أَدَبْته أَدْباً من باب ضرَب علّمته رياضةَ النفس ومحاسنَ الأخلاق . قال أبو زيد الأنصارى[3] : الأَدَب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسانُ فى فضيلة من الفضائل . وقال الأزهرى[4] نحوه» . وقال السيّد الشريف علىّ بن محمّد الجُرْجانىّ المتوفّى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م فى كتاب التعريفات[5] : «الأدب عبارة عن معرفة ما يُحتَرَز به عن جميع أنواع الخطأ – آداب البحث صناعة نظريّة يستفيدُ منها الإنسان كيفيةَ المناظرة وشرائطَها صيانةً له عن الخَبْط فى البحث وإلزاماً للخصم وإفحامه . كذا فى قطب الكيلانى[6] . آداب القاضى وهو التزامه لِما ندَب إليه الشرع من بَسْط

---

(١) راجع J. WEIIS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und di Lateiner* فى المجلة الألمانية Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft (Z. D. M. G.) 64, 1910, p. 368-374.

(٢) المصباح المنير ج ١ ص ٦ من طبعة بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفى أبو زيد الأنصارى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى فى ربيع الثانى ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلانى هذا فى النصف الثانى من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) وله شرح على رسالة فى آداب البحث لشمس الدين محمد السمرقندى .

العدل ورفع الظلم وترك الميل » – والذى توسّع فى بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيّد المرتضى الحسينىّ الزبيدىّ المتوفّى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١م قال فى كتاب تاج العروس[١] الذى هو أوسع كتب اللغة العربية ألّفه بصفة شرح على القاموس للفيروزابادى[٢] : « (الأَدَب محرّكة)[٣] الذى يتأدّب به الأديب من الناس سُمّى به لأنّه يؤدّب الناسَ إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا[٤] ناقلاً عن تقريرات شيوخه الأدبُ مَلَكة تعصم من قامت به عمّا يَشِينه . وفى المصباح[٥] هو تعلُّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصارى[٦] الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل . ومثله فى التهذيب[٧]. وفى التوشيح هو استعمال ما يُحْمَد قولاً وفعلاً أو الأَخْذُ أو الوقوفُ مع المستحسَنات أو تعظيمُ مَنْ فوقَك والرِّفْق بمن دونك . ونقل الخَفاجى[٨] فى العناية عن الجواليقى[٩] فى شرح أدب الكاتب الأدبُ فى اللغة حُسْن الأخلاق وفعل المكارم وإطلاقُهُ على العلوم العربيّه مولّد حدث فى الإسلام . وقال ابن السِّيد البَطَلْيَوْسىّ[١٠] الأدبُ أدب

(١) ج ١ ص ١٤٤ .
(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م .
(٣) ما بين القوسين هو متن القاموس .
(٤) و « شيخنا » يعنى أبا عبد الله محمد بن الطيب الفاسى المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .
(٥) يعنى المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرى الفيومى الذى تقدم ذكره .
(٦) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ .
(٧) يعنى كتاب تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى الذى تقدم ذكره .
(٨) أحمد بن محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .
(٩) توفى أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى سنة ٥٣٩ هـ – [وراجع شرحه على أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .
(١٠) ولد ابن السيد البطليوسى سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيد فهو بكسر السين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة عدد ٣٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ٣٢٠ من الطبعات المصرية .

النفس والدرس . والأدب (الظُّرْف) بالفتح (وحُسْن التناول) وهذا القول شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنِّف » ا هـ .

إنّ هذا النصّ على طوله ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلا وكيف تفرّعت منه المعانى المتعدّدة المشهورة التى ربما لا تُرَى بينها علاقةٌ بادىَ نظر وذلك فضلاً عما فى شرح المؤلِّف من الخَلَل والنقصان فعلينا أن نستخرج من تأليفات العرب النظميّةِ والنثريةِ شواهدَ ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ. أصلاً وفَرْعاً ونوردها مرتبةً ترتيباً تاريخياً دون خَلْط. القديم بالحديث لتجلوَ لنا حقيقة الأمر .

لا شكَّ فى أنّ الأدب عند قدماء العرب إنّما كان السُّنّةَ [١] أىْ طريقة العمل والتصرّف التى سنّها (أىْ سار فيها) الأوائل فصارت مَسْلَكاً لمن بعدهم أعنى جملة العوائد القديمة الواجبِ على الإنسان سيْرها على رأى عرب الجاهليّة . وأنتم تدرون أن علم الأخلاق عندهم إنّما كان مراعاةَ سيرة أسلافهم فبها كانوا يفتخرون كما قال لبيدٌ فى معلّقته [٢] : (من بحر الكامل)

إنّا إذا التقَتِ المجامعُ لم يَزَلْ منّا لِزازُ عظيمةٍ جَشّامُهـا
ومُقسِّمٌ يُعْطِى العشيرةَ حقَّها ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هَضّامُها
من مَعْشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهُمْ ولِكلِّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها

---

(١) فى السنّة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de L'Arabie méridionale* Leiden 1901, II, P. 891-893; NOELDEKE, *Fünf mo' allaqât,* II, Wien 1900, P. 91-92 ; I. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien,* Halle 1888-1890, I p. 41 ; II p. 13.

(٢) لزاز الخشبة التى يشد بها الباب ولزاز عظيمة لازم لها موكل بها والجشام المتكلف للأمور القائم بها . مغذمر ؛ قال الأصمعى : المغذمر الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطى هذا . وقال أبو عبيدة هو الذى يعصى ولا يُرد . هضام الهضام الذى ينقص قوماً ويعطى قوماً بتدبير وقد وثق به فى ذلك .

أو كما جاء فى شعر المتلمِّس[1] : (من بحر الطويل)

وقد كنتَ ترجو أن أكونَ لعَقْبِكُمْ ... زَنِيماً فما أُجرِ رْتُ أنْ أتكلَّمَا

لأُورِثَ بعدى سُنّةً يُقتَدى بها ... وأَجْلُوَ عن ذى شُبْهَةٍ إن تَوَهَّمَا

فعلى معنى السنّة والسيرة ورد لفظ الأدب فى قصيدة لسَهم بن حنظلة الغَنَوىّ[2] من الشعراء المخَضْرَمين الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام : (من بحر البسيط.)

قد يعلَمُ الناسُ أنّى من خِيارِهِمُ ... فى الدِّين دِيناً وفى أحسابهم حَسَبَا

لا يمنع الناسُ منّى ما أردتُ ولا ... أُعْطِيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذا أدَبَا

فظاهر أنّ الأدب هنا هو السيرة والطريقة .

وحيث أنّ ركْنَ التربية وتثقيفِ العقول كان عندهم تعليم سنّة الأوائل أطلقوا الأدب والتأديب على حسْن الشِّيَم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب قول بعض الفَزاريّين رواه أبو تمّام الطائىّ فى حماسته[3] : (من بحر البسيط)

---

(١) ديوان المتلمس المطبوع بليبسك سنة ١٩٠٣ م عدد ١ بيت ١٥ – ١٦ وزنيم الملق فى القوم ليس منهم . أجِر شق طرف لسان الفصيل أو الجدى لئلا يرتضع .

(٢) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت الثانى موجود أيضاً فى لسان العرب ج ١٦ ص ٢٦٩ .

(شرح البيتين) الدين السيرة . والحسب ما للإنسان من الشرف والمجد بسبب كثرة آبائه المجيدين ومفاخرهم . وحسن من أفعال المدح أو الذم مثل حب وبعد وسرع ونعم وبئس ، واختلف اللغويون فى معنى البيت الأخير فهاكم ما جاء فى شرحه فى كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر ابن عمر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م بمصر (ج ١ ص ١٢٥)« قال التبريزى فى شرح إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيمنعهم ما يريدون منه ولا يمنعونه ما يريد منهم لعزته ويجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبى محمد . وقال أبو العلاء فى معنى هذا البيت كأنه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم ويمنعهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وذا فاعل حسن وأدباً تمييز وأراد حسن فخفف ونقل لأن هذا مذهب التعجب. وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن الناس يعطونه ويمنعهم ثم قال حسن ذا أدباً أى ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتهكم . انتهى » .

(٣) الحماسة ص ٥١٠ – ٥١١ من طبعة بُنّ ١٨٢٨ – ١٨٥١ أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق ١٢٩٦ .

أُكْنِيهِ حين أُناديهِ لِأُكْرِمَهُ   ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْأَةَ اللَّقَبَا

كذاكَ أُدِّبْتُ حتى صار من خُلُقي   إنّي وجدتُ مِلاكَ الشِّيمَةِ الأَدَبَا

ومنه أيضاً قول امرأة من بني هِزّان سُمّيت بأُمِّ الثواب في ابن لها عَقَّها[1] :

(من بحر البسيط.)

أَنْشَا يُمزِّقُ أثوابي يُؤَدِّبُني   أَبَعْدَ شَيْبِيَ عندي يَبْتَغي الأَدَبَا

ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بنابغة بني شَيْبان[2] من شعراء عصر الأمويّين :   (من بحر البسيط.)

إنَّ الغلامَ مُطيعٌ من يُؤَدِّبُهُ   ولا يُطيعُكَ ذو سِنٍّ لتأديبِ

ثمّ لضيق المعارف عند العرب القدماء (وتعلمون أنّ أغلبه العلم بسنّة آبائهم ومكارمهم ومفاخرهم) صارت كلمة الأدب عبارةً أيضاً عن المعرفة بشيء، والتأديبُ عبارةٌ عن الإخبار بشيء والتعليم، والأديبُ عبارةٌ عن المُخْبَر بأمر . ومن هذا الباب ما جاء في الحديث النبويّ[3] من قول عليّ

— (شرح البيتين) الألقاب أعلام تشعر بمدح شخص أو ذمه باعتبار معناها الأصلي فجاء في القرآن الشريف في سورة الحجرات : « ولا تنابزوا بالألقاب » . وفي شعر حريث بن عناب النبهاني من معاصري الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط) .

لا يرتجي الجار خيراً في بيوتهم   ولا محالة من شتم وألقاب

واختلفوا في شرح « والسوأة » ومنهم من قال إنه مفعول مع اللقبا أي لا ألقبه اللقب مع السوأة ومنهم من قال إنه مفعول به كما يقال ما زلت وزيداً حتى فعل كذا أي ما زلت بزيد حتى فعل كذا ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد ولا ألقبه اللقب والسوأة . وملاك الأمر قوامه الذي يقوم به أي نظامه وعماده .

(١) كذا في كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٣٥٦ من طبعة بُنّ أو ج ٢ ص ١٣٤ من طبعة بولاق . وفي الكامل للمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤

أنشا يخرق أثوابي ويضربني   أبعد ستين عندي تبتغي الأدبا

(٢) كتاب الحماسة للبحتري ص ٣٤٠ من طبعة ليدن وديوان نابغة بني شيبان ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعة مصر ١٣١١ . وقال السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ — ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧ —

ابن أبي طالب حين سمع النبيَّ يخاطب وَفد بنى نَهْد : «يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تُكلِّم وفود العرب بما لا نفهَمُ أكثرَهُ . فقال أدَّبنى ربّى فأَحْسَنَ تأديبى ورُبِّيتُ فى بنى سَعْدٍ » .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العَبْدىّ رواه البُحْتُرىُّ فى حماسته [1] :

(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللّيالِى بُؤْسَها ونَعِيمَها وحَنَّكَنى صَرْفُ الزمان وأدَّبَا

أى جعلنى ذا خِبْرة بالأمور . — ومنه قول أبى عَطاء أفْلَح بن يسار السِّنْدىّ [2] من شعراء أواخر الدولة الأمويّة : (من بحر الوافر)

إذا أرسلْتَ فى أمر رسولاً فأَفْهِمْه وأَرْسِلْهُ أديبَا

وإن ضَيَّعْتَ ذاكَ فلا تَلُمْهُ على أن لم يكن عَلِمَ الغيوبَا

فجلّى أنَّ المرادَ بالأديب المُخْبَرُ بأمر مخصوص .

هذه كانت معانى لفظ الأدب فى زمان الجاهليّة والقرن الأوّل للهجرة لا غير — فلسائل أن يسأل : ما لكلّ هذه الألفاظ والمعانى من العلاقة بسائر المفردات المشتقّة أيضاً من حروف أدب مثل الأَدْب وهو العَجَب والأُدْبة والمَأْدُبة والمأْدَبة التى هى طعامٌ صُنع لدعوة أو عِرْس ومثل أَدَبَ يأْدُبُ أَدْباً معناه عمِل مأْدُبة أو دعا فلاناً إلى الطعام ؟ إنَّ علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم ذكره فى النصّ المنقول آنفاً

— بهامش الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى) مانصه : « (حديث) أدبنى ربى فأحسن تأديبى أبو سعيد ابن السمعانى فى أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والعسكرى فى الأمثال وابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال لا يصح وصححه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهرى عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد . انتهى » .

(١) الحماسة للبحترى ص ١٥٤ من طبعة ليدن — حنكه هذبه .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

من كتاب تاج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبى زكرياء يحيى التبريزىّ فى شرحه على كتاب الحماسة لأبى تمّام [١] : «والأدب اسم لما يفعله الإنسان فيتزيّن به فى الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنه» .
وقال عبد القادر البغدادىّ فى كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ : «واشتقاقه من شيئين يجوز أن يكون من الأَدْب وهو العجب ومن الأَدْب مصدر قولك أَدُبَ فلان القومَ يأْدُبُهم إذا دعاهم قال طَرَفة [٢] : (من بحر الرمل)

نحن فى المَشْتاة ندْعُو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

فإذا كان من الأَدْب الذى هو العجب فكأنّه الشىء الذى يُعْجَب منه لحُسْنه لأنّ صاحبه الرجل الذى يُعْجَب منه لفضله وإذا كان من الأَدْب الذى هو الدعاء فكأنّه الشىء الذى يدعو الناس إلى المحامد والفضل فينْهاهم عن المقابح والجهل» .

بيْد أنّ هذا الاشتقاق ليس بعرىّ من الشكّ واللَّبْس الشديد لما فيه من التكلّف البعيد عن مقتضى قوانين نموّ اللغة الطبيعىّ وطريقةِ انتقال معانى المفردات إلى غيرها . ولكن إذا طلب أحدكم منّى إظهار رأيى فى حقيقة الأمر أجبتُ أنّى لا أستطيع إلاّ إبداء تخمين قد لمّح إليه عرضاً فى بعض تصانيفه الأُستاذ فُلّرْس (Vollers) [٣] المرحوم ناظر دار الكتب الخديويّة سابقاً . لا يخفى عليكم كثرةُ ورود لفظ الدّأب فى أشعار الجاهليّة وأنّ

(١) الحماسة ص ٥١١ من طبعة بنّ أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) البيت مروى فى الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (*The Divans of the six ancient Arabic poets* edited by Ahlwardt, p. 62.) الجفلى قال فى المصباح هى أن تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . انتقر اختار .

(٣) انظر : VOLLERS, *Katalog der islamischen. . . Handschriften der Universitäts Biblioth.*, Leipzig 1906, p. 180 n. 1.

معناه أي العادة والملازمة ليس بعيدًا عن معنى السنّة والأدب . ومع أنّ جمْعَهُ لا يُذْكَر فى كتب اللغة ليس من المحال أنّ العرب قد جمعوه على آداب أعنى على وزن أَفْعال بتخفيف الهمزة ومدّ الألف الأولى كما يُجْمَع بِئْر على آبار وثَأْر على آثار ورَأْس على آرَاس ورَأْى على آراء . وحيث إنّ حُسْن السيرة والأدب إنّما كان عند العرب بحفظ ما كانوا توارثوا عن أسْلافهم من العوائد المستحْسَنة لعلّهم استعملوا لفظ الآداب عبارةً عن تلك العوائد أي السنّة المحمودة . ثمّ على تمادى الزمان اشتقّوا من ذلك الجمع المتداولِ اصطلاحُهُ صيغة جديدة لمفْرَدِهِ أعنى الأدب كما اشتقّوا تَقَى والتُّقَى والتَّقْوَى من اتّقَى أو تَخِذَ يَتْخَذُ تَخْذًا من اتّخذ أو تَلِهَ يَتْلَهُ تَلَهًا (أي حار وذهِل) من اتّلَهَ وهلمّ جرًّا . فأصبح لَفْظَا الأَدَب والأَدْب (أي الدعاء إلى الطعام) كأنّهما فَرْعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقيّة بينهما كما اتّفق مثلاً للفظي الزُّوْر والزُّور فأوّلهما عربيّ محض معناه وَسَط الصدر وقوّة العَزْم والثانى فارسيّ الأصل معناه الكِذْب .

وإن التفتنا إلى ما سلِم من التَّلَف ووصل إلينا من مصنّفات القرن الثانى للهجرة وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصورًا على طريقة التصرُّف ولاسيّما المحمودة وحُسْنِ الأخلاق الناشئ عن حسن التربية والميل إلى المحامد ثمّ على المعارف سِوَى ما يتعلّق بالدين والشريعة الذى قد اختصّ به اسم العلم منذ أواسط القرن الأوّل . وممّا يدُلّ على ذلك كُتَيِّبٌ لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كليلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م وهو كتيِّب فى الحِكَم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائريّ فى مجلّة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثمّ طبعه

مستقلاً في المجموعة المسمّاة برسائل البلغاء[١]. وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بك زكي[٢] إنّ عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : Le petit savoir faire ولكني لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسيّة وحدّ ابن المقفّع موضوع كتيّبه هكذا[٣] : «قد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها وإحياءٌ للتفكير وإقامةٌ للتدبير ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله » . فترون من هذا الكلام أنّ مراد المؤلّف جمْعُ حِكَم ونصائح وإنّ الأدبَ عنده قسم من علم الأخلاق العمليّ . فجاء في ضِمْن كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصرّف وخصوصاً الحسنة فقال مثلاً المؤلّف ص ٤ : «وعلى العاقل أن يُحْصِيَ على نفسه مَساوِئَها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمَع ذلك كلّه في صدره أو في كتاب » ، وقال ص٧ : «قد يسعَى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيرًا أمّا الصالح فمدعوٌّ وأمّا الطالح فمقتحمٌ وأمّا ذو الأدب فطالب وأمّا من لا أدب له فمختلِسٌ » .

وفي ص ١٢ : «أمورٌ لا تصلح إلاّ بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحِفظ بغير عقل ولا شِدّة البَطْش بغير شدّة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحَسَب بغير أدب إلخ » .

وفي ص ١٥ : «لا يطمَعَنْ ذو الكِبْر في حُسن الثناء ولا الخَبُّ في كثرة

---

(١) رسائل البلغاء ص ١ — ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ . فطبعه أيضاً أحمد باشا زكي في سنة ١٣٢٩ هـ بالإسكندرية (ونقله الأستاذ Rescher إلى الألمانية سنة ١٩١٥) .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes*, Cairo 1910, P. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٣ من الطبعة المذكورة .

الصديق ولا السيّئُ الأدب فى الشرف ولا الشحيح فى المَحْمَدة » وربّما جاء الأدب بمعنى حُسْن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نَزْرًا أدبٌ عظيمٌ » . وربّما جاء أيضاً الأدب بمعنى المعارف الدنيويّة فقال ص ١٣ : « مَنْ حاوَلَ الأمور احتاج فيها إلى ستّ الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . وهنّ أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمُل الأدب إلاّ بالرأى ولا يكمُل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ ».

وفى ص ١٥ : « فضل العلم فى غير الدين مَهْلَكة وكثرة الأدب فى غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار ». وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد فى أوّل نفس الكتاب (ص ٢) : « فغايةُ الناس وحاجاتُهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمارة صحّة العقل اختيار الأمور بالبَصَر وتنفيذ البصر بالعَزْم . وللعقول سجيّات وغرائز بها تقبَل الأدبَ وبالأدب تَنْمِى العقول وتزكو . فكما أنّ الحبّة المدفونة فى الأرض لا تقدر على أن تخلَع يُبْسَها وتُظْهِرَ قوّتَها وتطلُع فوق الأرض بزُهْرتها ونَضْرتها وريْعها ونَمائها إلا بمعونة الماء الذى يغور إليها فى مستوْدَعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويُحْدَث لها بإذن الله القوّةُ والحياة فكذلك سليقة[1] العقل مكنونة فى مغْرِزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتّى يعتملها الأدب الذى هو نماؤها وحياتها ولَقاحها . وجُلُّ الأدب بالمنطق وكلّ المنطق بالتعلّم ليس منه حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلاّ وهو مرويّ متعلّم مأخوذ عن إمام سابق

(١) سليقة طبيعة .

من كلام أو كتاب » . اهـ فيلوح أنْ المراد هنا بالأدب هى المعارف على الإطلاق .

وكذلك لا يخرج عن العُرْف اللغوىّ القديم استعمالُ لفظ الأدب فى عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة[1] لأبى تمّام المتوفّى سنة ٢٢٨ هـ على أصحّ الأقوال فإنّ ذلك الباب يتضمّن الأشعار فى الحِكَم وفى الأخلاق المحمودة من حياء وعفّة وإغضاء عن الفَحْشاء وحُسْن معاملة الناس ومسامحة الأخلّاء وهلُمّ جرًّا ليكون ذلك كلّهُ هدايةً للناس فى سيرتهم . وأنتم تعلمون أنّ الإمام أبا عبد الله البخارىّ المتوفّى سنة ٢٥٦هـ /٨٧٠م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح[2] لعلم الأخلاق العملى وقوانين الأنس فإنّ مدار الأحاديث النبويّة المجموعة فى ذلك الكتاب إنّما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرِّفق فى كلّ الأمور ورحمة الناس بالبهائم وتعاون المؤمنين بعضهم بعضاً وحُسْن الخُلق والسخاء وما يُكْرَهُ من البُخْل وما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب وما يُكْرَه من التمادح والنهى عن التحاسد والتدابر والصبر على الأذى والتبسّم والضَّحْك والإخاء والحِلْف والزيارة والحياء والحَذَر من الغضب والضيْف وما يُستحَبّ من العُطاس وما يُكْرَه من التثاؤب وما يُشْبِه ذلك . وكذلك كتاب الأدب لابن المعتزّ الشاعر الشهير المتوفّى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م لا يشتمل إلا على الحِكَم فى الأخلاق . ولكنّى لا أريد الإطناب فى سرْد النصوص والشواهد على ذلك لأنّ استعمال كلمة الأدب

---

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ — ٥٣٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ٧٥ — ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) صحيح البخارى ٢ ص ٣٩ — ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أو ج ٣ ص ١٠٨ — ١٦٥ من طبعة ليدن .

بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأُنس والتصرُّف معروفٌ لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ؛ وهو المسمّى عند بعض الكُتّاب بأدب النفس .

وفى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث ابتدأت تتفرع من تلك المعانى الأصليّة معانٍ جديدة على طريق الإطلاق والحصْر مع بقاء القديمة فى عُرْف الناس . وكان سبب ذلك فضلاً عن نمو اللغة الطبيعيّ ما حصل للعرب من الرُّقى فى سبيل التمدن والتغيّر فى حضارتهم والتجدّد فى أحوال حياتهم والتقلّب فى سياستهم منذ اتّسعت مملكتُهم وامتدّ سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الذين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلّبين عليهم وأثّروا فى عمرانهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيمّا بعد ما قَوِيت شوكة بنى العباس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة فى وسط تلك الأراضى العراقيّة التى قد أدرك فيها التمدُّن الفارسىُّ الساسانى أَوْج عزّته ورَوْنقه . فنالت أشراف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العبّاسيّين حتّى كادلا يُستوزَر إلّا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أنّ العرب أحياناً عبّروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيويّة القليلة . وحُفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلى منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتَج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها ما نصُّه [1] : «واعلم يا أخى بأنّ العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثانى من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ — ١٩ من طبعة بمبى سنة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجد فى أول باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة وذلك لظنهم أن تلك الحكاية مثل ضرب فى احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متبصرين بأمر الدين علماء بحقائق طريق الأمور لننجو من الورطة التى وقعنا فيها كلنا بجناية أبينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فثلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا فى آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصارى منه إلى الدين الإسلامى .

فمنها الرياضية ومنها الشرعيّة الوضعيّة ومنها الفلسفيّة الحقيقة . فالرياضيّة هى علم الآداب التى وُضع أكثرُها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا وهى تسعة أنواع أوّلها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزَّجْر والفأل وما يشاكله ومنها علم السِّحر والعزائم والكيمياء والحِيَل وما يشاكلها ومنها علم الحِرَف والصنائع ومنها علم البيع والشِّرى والتجارات أو الحَرْث والنَّسْل ومنها علم السِّيَر والأخبار » . — فليس هذا بعيدًا عن قول الوزير المشهور الحسن بن سَهْل المتوفَّى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ — ٨٥١ م . قال : الآداب عشرة فثلاثةٌ شَهْرجانيّة وثلاثة أنوشَروانيّة وثلاثة عربية وواحدة أَرْبَتْ عليهنّ . فأمّا الشهرجانية [1] فضرب العُود ولِعْب الشطرنج ولعب الصوالج . وأمّا الأنوشروانيّة [2] فالطبّ والهندسة والفروسيّة . وأمّا العربيّة فالشعر والنَّسَب وأيّام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطّعات الحديث والسَّمَر وما يتلقّاه الناس بينهم فى المجالس » [3] . فظاهر أنّه أراد

---

(١) الشهارجة أو الشهاريج هم من أشراف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذى كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهامش العقد الفريد لابن عبد ربه [أو ج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيّى العلوى (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذى الرئاستين وهو أبو العباس الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيّى فى كتابه مواسم الأدب وآثار العجم والعرب ج ١ ص ٢ — ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفى سلاسل الذهب للعلامة أمين صفر المدنى قال العلامة جار الله الزمخشرى كان ذو الرئاستين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصوالج (فى الطبعة بالصولج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (فى الطبعة شهرخانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهى السمر أراد المحاضرة . اهـ . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهانى (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فمعنى الأدب هنا (أعنى جملة العلوم والفنون والصنائع والألعاب التى يتميز الإنسان بمعرفتها من سفلة الناس) فارسى تماماً ، فليراجع كتاب المعلمين للجاحظ فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

بالآداب جميع الفنون غير الدينيّة وكلّ ما كان يصلُح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .

وفى نفس ذلك القرن الثالث ربما حصروا الأدب (بمعنى المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) فى ما تجب معرفته على طبقة مخصوصة من الناس . فألّف ابن قتيبة الدِّينَوَرىّ اللغوىّ والمؤرّخ والمتأدّب الشهير المتوفّى سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سمّاه أدب الكاتب أو أدب الكتّاب جمع فيه ما لا غِنَى عنه لكلّ كاتب ماهر من العلوم اللغويّة . وصنّف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاجم المتوفّى فى حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نُكَت وأبيات ونوادر يليق حِفْظُها وروايتها فى المنادمة ترويحاً للنفوس . ومن ألّف كتباً فى أدب الوزراء دوّن فيها النصائح المفيدة للوزير فى فروع الحكمة العمليّة والسياسية . ومن ألّف التصانيف المترجمة بأدب القاضى شرَح فيها قوانين القضاء الشرعىّ .

قد سبق أنّ الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السُّنّة الحميدة . وفى أواخر القرن الثالث أُطْلِق هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالةً على المنهج الواجبِ سلوكُهُ فى فن من الفنون والعلوم أو فى عمل من الأعمال . ففى كتاب العِقْد الفريد لابن عبد ربّه المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً فى آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب فى الحديث والاستماع أو الأدب فى المجالسة أو الأدب فى الماشاة وهلمّ جرًّا . ودوّن الإمام الغزالىّ المتوفّى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م فى كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الأُلفة والأُخوّة والصُّحْبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والوَجْد وغير ذلك ممّا يطول نقله هنا . وألّف محمد بن

عليّ بن طَبَاطَبَا المعروف بابن الطِّقْطَقَى كتاباً فى التاريخ سمّاه كتاب الفخْرِىّ فى الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة[١] وقال[٢] إنّه «إنّما هو موضوعٌ للسياسات والآداب التى يُنْتَفَع بها فى الحوادث الواقعة والوقائع الحادثة وفى سياسة الرعيّة وتحصين المملكة وفى إصلاح الأخلاق والسيرة» .

وكثيرًا ما صنّفوا مصنّفات فى آداب الدرس أى فى طريقة التعليم والتعلم . وكلّكم تدرون أنّ آداب المريدين هى مناهج طالب الترقى فى مدارج الطرق الصوفيّة وأنّ آداب البحث هى قوانين المناظرة يسوغ للمتناظريْن مراعاتها فى الردّ والقبول .

فلننتقلْ إلى بيان أصل سائر معانى الأدب . إنّ التّرَف والرّفْه والنعيم واتّساع الأحوال قد بلغت غايتها فى مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد فى أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصْفَهُ ابن خلدون حيث قال فى مقدمته الشهيرة[٣] : «إنّ الأمّة إذا تغلّبت وملكَتْ ما بأيدى أهل المُلك قبْلَها كثُر رياشُها ونعمتُها فتكثُر عوائدُهم ويتجاوَزون ضروراتِ العيش وخشونَتَهُ إلى نوافله ورِقّته وزينته ويذهَبون إلى اتّباع مَنْ قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائدُ ضروريّةٌ فى تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رِقّة الأحوال فى المطاعم والملابس والفُرُش والآنيةِ ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهُم من الأُمم فى أكل الطيّب ولُبْس الأنيق وركوب الفاره[٤] . . وعلى قدر مُلْكهم يكون حظّهم من ذلك وتَرَفُهم

(١) ألف ابن الطقطقى كتابه فى سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم عامل الموصل .

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريفزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة الفرنسية لدى سلان (De Slane).

(٤) الفاره الحصان الجارى المليح .

فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية » . اهـ . ومَنْ طالع كتاب الأغانى لأبى الفرج علىّ الإصفهانىّ المتوفَّى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م وكتاب مروج الذهب للمسعودىّ المتوفَّى سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفَّح دواوين شعراء ذلك العصر عرَف إفراط شغف الناس بالمجالسة والمنادمة والمحادثة على الشراب فى أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومَنْ تبعهم من الخلفاء وتَلَقَّن قَدْر ما بلغهُ حينئذ قَصْدُ الأناقة فى كلّ شىء وفِعْلٍ والتفنُّنِ فى جميع المعارف المستطرَفة حتّى إنَّ غاية التربية فى بعض طبقات الناس إنَّما كان الظُّرْف فى اللُّبْس والتصرُّف ورِشاقة الكلام ورِقّةَ المعانى وحسْن الاستئناس . وإن أردتم الوقوف التامّ على كُنْه أولئك المتظرِّفين فراجعوا كتاب الموشّى[1] لأبى الطيّب محمّد بن إسحاق بن يحيى الأعرابىّ المعروف بالوشّاء المتوفَّى سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٧م توصَف فيه سُنَنُ الظرف بتفصيل فتجدون فيه أبواباً فى ذكر زىّ الظرفاء فى اللباس المستحسَن عند سَرَوَات الناس وفى زى الظُّراف فى التِكَك والنِّعال والخِفاف وفى زيّهم المخصوص فى الخواتم والفصوص وفى زيّهم فى التعطّر والطيب الذى من خالَفَهُ كان غير مصيب وفى ذكر زىّ الظرفاء فى الطعام الذى بانوا به من منزلة اللئام وفى ذكر زيّهم فى الشراب الذى يتخيَّره ذوو الألباب وفى ذكر الأشياء التى يتطيّر الظرفاء من إهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسمائها وفيما اختير من ألفاظ الأدباء فى المكاتبات واسْتُحْسِنَ من الظرفاء من مليح المعاتبات وفيما ضمّنوه كتبَهم من الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والخِطار وفيما ضمّنوه كتبَهم من السلام وجعلوه تلوًّا للشعر والنظام وهلمَّ جرًّا .

فإذًا لا غَرْوَ أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدِل عن معنى محض الأخلاق

---

(١) طبع بليدن سنة ١٨٨٧ وبمصر سنة ١٣٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

المحمودة الحاصلة من حسْن تربية النفوس حتّى صار عبارةً عن كلّ ما وجب مراعاتُهُ ومعرفته والتحلّي به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء وتعمّد جميع أنواع التظرّف في أعماله وأفكاره وحديثه . فلذلك لا فَرْقَ في كتاب الموشّى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول أنّ المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهار الأخلاق المُرْضِية للجلساء والظرفَ والأناقة في اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأُنْس والفصاحةَ وعذوبةَ الكلام ثمّ حفظَ الأبيات والنكت مع أخْذ شيء من كلّ علم لتوشية الحديث به . فهذا أعني الأخلاقَ الحميدةَ والتظرّف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً في كتاب العِقْد الفريد لأحمد بن عبد ربّه الأندلسيّ المتوفّى سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه وخصوصاً من الباب في آداب الحكماء والعلماء [1] .

ومن هذا المعنى المُجْدَث العامّ تفرّع معْنَيَانِ خاصّان مطابقةً لاختصاص أميال بعض المتظرّفين بنوع معيّن من الظرف . فإنّ الذين مالوا إلى ما يلَذّ للعقول وفضّلوه على غيره رأوا غاية الظرف في حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدّث بالمُلَح والنوادر والأخبار وتذاكُر القصص والأشعار على ما تجُرّ المحادثةُ من شجون الكلام وذلك مع كراهة كلّ إطناب مُمِلّ . فإنّ الإسآم كان عندهم من شرّ العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه في تأليفات القرن الثالث والرابع . ورُوِي مثلاً عن الأشجع السُّلَميّ الشاعر في أيام هارون الرشيد أنّ أنَس بن أبي شَيْخ النصريّ صاحبَ الوزير جعفر بن يحيى لمّا عاشره أوّلَ مرّة طلب منه إنشاد بعض شعره ،

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف الطبعات الأخرى فانظر : Mohammad Shafic, *Analytical Indices to the Kitāb al-Iḳd al-farīd*, Calcutta 1935] . — أما لفظ الأدب في « فصول في الأدب » (العقد ج ٢ ص١٨٩—١٩١) وفي « فصول لعمرو بن بحر الجاحظ في الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٩١) فمعناه الحِكَم .

«قال الأشجع فأنشدته فقال إنك لشاعرٌ فما يمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لى بجعفر بن يحيى فقال أنا فقُلْ أبياتاً ولا تُطِلْ فإنه يملّ الإطالة . فقلتُ لستُ بصاحب إطالة فقلت أبياتاً على نحو ما رسم لى»[1].

وفى الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودى[2] ما نصُّهُ :

«وقد ذكر بعض المحدّثين من أهل الأدب أنّ من الأدب عدمَ إطالة الحديث من النديم وأنّ أحلى لحديثه وأحسنَ لموقعِه أنْ يجتنب منه الأحاديث الطوالَ ذات المعانى المغلَقَلة[3] والألفاظ الحشويّة التى افْتُنّ باقتصاصِها سُمّارُ المجلس وتتعلّق بها النفوسُ وتُحْتَسَى[4] على أواخرها الكؤوس فإنّ ذلك بمجالس القُصّاص أشبهُ منه بمجالس الخواصّ . وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله ابن المعتز ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة[5] فقال[6] :

(من بحر الخفيف)

بين أقداحهم حديث قصير هو سِحْرٌ وما سِواه كلامُ
وكأنّ السقاة بين الندامى آلفاتٌ على سطورٍ قيام

فلتفنُّنِهم فى المعارف المستطرَفة المقرونِ بالخوف الشديد من المَلَل اشتهر فى عُرْفِهم أنّ علم الأدب عبارة عن المُلَح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر والأبيات الرقيقة والتواريخ وذكر الشيء بالشيء بالاستطراد أو بالمناسبة مع

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٣٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ وراجع A. MEZ, *Abulkâsim*, Heidelberg 1902, P. VIII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودى فى الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ من طبعة باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المغلغلة المحمولة من بلد إلى بلد .

(٤) احتساه بمعنى حساه واحتسى شربه شيئاً بعد شيء .

(٥) عاقر الخمر أدمن شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس فى الشراب والخمريات) من طبعة مصر سنة ١٨٩١ .

مراعاة مقتضى الحال . فقيل إنّ « الفرق بين الأديب والعالم أنّ الأديب من يأخذ من كلّ شيء أحسنَهُ فيألَفه والعالمُ من يقصِد لفنّ من العلم فيعتلمُهُ »(١). وقال شاعر(٢) : (من بحر الطويل)

أرى العلمَ نورًا والتأدُّبَ حِلْيةً … فخذ منهما فى رغبة بنصيب

وليس يتِمّ العلمُ فى الناس للفتى … إذا لم يكن فى علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب أُلّفَ فى فنّ الأدب بهذا المعنى الخاصّ أعنى فى جمع مقطّعات الأشعار وطُرَف الأخبار وغرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب . وأوّل من سلك هذا المنهج فى التأليف وصار أنموذجاً فى ذلك للمتأخرين هو أبو عثمان عَمْرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م فإنّه فى مصنفاته النفيسة الشهيرة يهيم فى كلّ وادٍ ويجمع بين المنظوم والمنثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير ترتيب واضح مخافةً من ملل القارئ . ومن الغريب أن المسعوديّ(٣) قال إنّه نظم تصانيفه أحسن نظم . ومن أحسن بيان لمادّة التأليفات من ذلك الفن ما قال أبو إسحاق إبراهيم ابن علىّ الحُصْرىّ القيروانىّ المتوفّى سنة ٤١٣ وقيل ٤٥٣ فى وصف موضوع كتابه المسمّى بزَهْر الآداب وثَمَر الألباب(٤) : «هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات فى الشعر والخبر والفصول والفِقَر ممّا حسُن لفظه

---

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بعناية الأستاذ مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٣١] فى النسخة الخطية : فيمتله وهو غلط فأقراه : فيعتمله نقرأ الأستاذ مرجليوث : فيتقنه .

(٢) إرشاد الإريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب فى الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٣٤ من الطبعة البارسية المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ — ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أو ج ١ ص ١ — ٣ من طبعة سنة ١٩٢٥] .

ومعناه واستدلّ بفحواه عن مغزاه ولم يكن شاردًا حُوشيًّا ولا ساقطاً سُوقيًّا بل كان جميعُ ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البُحتريّ [١] :

في نظام من البلاغة ما شـ ـكَّ امرؤ أنه نظامُ فريدِ
حُزن مستعمل الكلام اختيارًا وتَجَنَّبْن ظلمـة التعقيد
وركِبْن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

ولم أذهَبْ في هذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار . . وهو كتاب يتصرَّف الناظر فيه من نثره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفاخرته ومناقلته إلى مساجلته [٢] وخطابه المُبْهِت إلى جوابه المُسْكِت وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة . . وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وتدّيِنني إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العبّاس بن سليمان أطال الله مدّته وأدام نعمته في الأدب وإنفاق عمره في الطلب وماله في الكتب وأن اجتهاده في ذلك حمله على أن أرتحل إلى المشرق بسببها وأغمض في طلبها باذلاً في ذلك مالَهُ مستعذباً فيه تَعَبه إلى أن أوْرد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألني أن أجمع له من مختارها كتاباً يكتفي به عن جملتها وأضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قاربه وقارنه وشابهه وماثله فسارعت إلى مراده وأعَنْته على اجتهاده وألّفْت له هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب إذ كان موشّحاً من بديع البديع [٣] ولآلي

---

(١) انظر ديوان البحتري ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص ٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١ ومدح البحتري (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) في هذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات . الأبيات مروية أيضاً في إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخران مرويان في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) مساجلته : وساجله فاخره وعارضه .

(٣) يعني بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني المولود سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك ج ٢ ص ٢٢٥ إلى ٢٥٦] .

الميكالىّ [١] وشَهِىّ الخوارزمىّ [٢] وغرائبُ الصاحب [٣] ونفيس قابوس [٤] وشذور أبى منصور [٥] » . وهذا النوع من الأدب أى أخذ شىء مستظرف وطرائف وغرائب من كلّ فنّ ولا سيّما من مقطّعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود فى أكثر ما جاء فى مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته فى عدّة تأليفات مشهورة مثل كتاب العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم ابن محمّد البَيْهَقى [٦] من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب [٧] لياقوت الحموىّ المتوفّى سنة ٦٢٦/١٢٢٩ وشرح أبى العبّاس أحمد ابن عبد المؤمن الشريشىّ [٨] المتوفّى سنة ٦١٩/١٢٢٢ على المقامات الحريريّة وكتب أخرى يطول سَرْد أسمائها .

أمّا المعنى الخاصّ الثانى الملمّح إليه فيا تقدّم فأصله عند قوم من الظرفاء فضّلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابيّة المستظرفة لا على مجرّد

---

(١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع النثر الفنى المذكور آنفاً ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٤] .

(٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ولد سنة ٣٢٣ هـ ٩٣٥ م ومات سنة ٣٨٣ هـ ٩٩٣م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفنى المذكور سابقاً ج ٢ ص ٢٥٩ إلى ٢٧٦] .

(٣) يعنى الصاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٥ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٤٣ — ٢٥] .

(٤) وهو شمس المعالى قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٨٩] .

(٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ ١٠٣٨ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٩٠] .

(٦) راجع كتاب المحاسن ج ١ ص ٢٠١ و ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ من طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٦ م [وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ — ٩٢] .

(٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ — ٢٧ من الطبعة الليدنية .

(٨) شرح المقامات الحريرية للشريشى فى آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من طبعة مصر ١٣٠٦) .

المقطّعات منها ولفظ الأديب على من يُحْسِن العربيّة ويتعاطى صناعتى النظم والنثر . وابتدأ استعمال كلمة الأدب هذا فى نفس النصف الأوّل من القرن الثالث حسبما يتّضح من جملة من النصوص . منها قول الجاحظ [1] المتوفّى سنة ٢٥٥/٨٦٩ : « طلبت علم الشعر عند الأصْمَعىّ فوجدته لا يُحْسِن إلاّ غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يُتْقِن إلاّ إعرابه فعطَفْت إلى أبى عبيدة فوجدته لا ينقُل إلاّ ما اتّصل بالأخبار وتعلّق بالأيّام والأنساب فلم أظفَرْ بما أردت إلاّ عند أدباء الكُتّاب كالحسن بن وهب ومحمّد بن عبد الملك الزيّات » . فجلىٌّ أنّ الأدباء هنا هم الذين يُسَمَّوْن بالفرنسيّة gens de lettres أو lettrés . وقال الجاحظ [2] أيضاً فى موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعرًا فاستغربوه فقال والله ما هو بغريب ولكنّكم فى الأدب غرباء » ، فظاهر أنّ الأدب هنا صناعتا النظم والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالآداب فى قول المبرّد المتوفّى سنة ٢٨٥ فى خطبة كتابه الموسوم بالكامل فى اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٤ : « هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومَثَل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب الآداب هى جميع التصانيف المستظرفة نظماً ونثرًا كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفنّ فى إحدى رسائل أبى بكر الخوارزمى [3] المتوفّى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذَكَر السيّدُ أنه كتب جواب كتابى من وقت الظُّهْر إلى وقت العصر . ولقد استبطأته مع ما أعرِفه من بُعْد غوْره وغَزارة بحره . ولكنّى أعلقت لهذا

(١) المروى فى العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروىّ فى عمدة ابن رشيق ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٣٠ – ٣٦ من طبعة قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ولكن فى هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

الجواب بابى وأرخيت له حجابى وضمَمْت إلى نشر كتب آدابى وجلست من الدواوين بين آل الجرّاح [١] وآل ثوابة [٢] وبين بنى الخصيب وبنى مقلة [٣] ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شدّاد [٤] وحشرت من الآخرة ابن المقفّع البصرىّ [٥] وسهل بن هارون الفارسىّ [٦] وابن عبدان المصرى والحسن بن وهب الحارثىّ وأحمد بن يوسف المأمونىّ [٧] ووضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان وعن يسارى كتاب التبيين والبيان [٨] وبين يدىّ فصول بزرجمهر بن البختكان [٩] وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب [١٠] عين الزمان وزَيْن الشيْب والشُبّان ، فما زلت أسرق من هذا كِلْمة وأطُرّ من ذاك فِقْرة وأستعير من هناك نادرةً وثيقة أغصِبُ الأحياءَ على بيانهم وأنبُش الموتى من أكفانهم » — وعلى

---

(١) يشير بآل الجراح إلى داود بن الجراح الذى عاش فى أيام المستعين ٢٤٨/٨٦٢ — ٢٥١/٨٦٦ وابنه محمد وحفيده على بن عيسى وابنى حفيده عيسى بن على وعبد الله بن على فكلهم من الأدباء والمؤرخين فراجع فهرست ابن النديم ص ١٢٨ — ١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .

(٢) أما آل ثوابة فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس المتوفى سنة ٢٧٧ وابنه أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠).

(٣) ومن بنى مقلة الوزير الكاتب أبو على محمد بن على بن مقلة الذى ولد سنة ٢٧٢ ومات سنة ٣٢٨ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٦٦٩ من الطبعات المصرية) وأخوه أبو عبد الله القاسم الذى ولد سنة ٢٧٨ وتوفى سنة ٣٣٠ (انظر كتاب الفهرست ص ٩ والإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٢) .

(٤) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ وكان وزير المأمون وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .

(٥) يعنى عبد الله بن المقفع المشهور الذى أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م .

(٦) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ [انظر الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .

(٧) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ وتولى ديوان رسائل المأمون فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ — ١٧١] .

(٨) وهو كتاب مشهور للجاحظ .

(٩) انظر ما قلت فيه فى كتابى علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى (روما ١٩١١) . ص ١٩٠ — ١٩٦ .

(١٠) يعنى الصاحب بن عباد الذى قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٣٠) .

مثل ذلك يستعمل ياقوت فى كتاب إرشاد الأريب لفظ . الأُدباء لتعريف الذين يعتنون بفنّى النظم والنثر لا غير . وهذا المعنى لم يزل فى عرف الناطقين بالضاد إلى أيّامنا .

ولننتقل إلى بيان معنى آخر أصله فى قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة ورأوا من موجَباتها التدقيق فى معرفة أسرار العرَبيّة لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغويّة أو لشرح الغريب الوارد فى الأحاديث النبويّة فجعلوا الاستقصاء فى جميع أنواع العلوم المتعلّقة باللغة والشواهد الشعرية جلّ المعارف الدنيويّة بل توطئة لكل العلوم الشرعيّة . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزالىّ المتوفّى سنة ٥٠٥/١١١١ فى كتاب إحياء علوم الدين[1] إنّ العلوم الشرعيّة تنقسم إلى أربعة أضرُب الأول منها أصول الفقه والثانى فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع المتمّمات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : «والضرب الثالث المقدّمات وهى التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنّهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه (صلعم) . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعيّة فى أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلاّ بلغة فيصير تعلّم تلك اللغة آلةً » . فإذًا لا غروَ أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيويّة فى علوم اللغة العربيّة حصروا فيها الأدب الذى – كما مرّ بيانُه فيما سبق – قد أُطلِقَ اسمُهُ أحياناً على جملة المعارف غير الدينيّة الشرعيّة . إلاّ أنّهم سلكوا فى هذا الحَصْر طريقين مختلفين فمنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناء بالأشعار القديمة والتأليفات

---

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ – ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وفى آخرها ١٣٠٣) وراجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة ليدن ١٩٠٤ م والمفصل للزمخشرى ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصّل إلى المعرفة التامّة بدقّة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصْد النزهة أو مجرّد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب فى كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ المحدّث أبى حاتم محمّد بن حِبّان البُسْتىّ المتوفّى سنة ٣٥٤ الذى أفرد فيه باباً للحث على تعلّم الأدب ولزوم الفصاحة[1] وعلى مثاله ما قال عبد الله بن محمّد المعروف بابن السِّيد البَطَلْيَوْسىّ المتوفّى سنة ٥٢١/١٢٢٧ فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكُتّاب ص ١٤ – ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : «إن الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثانى الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصُل للمتأدّب بالنظر فى الأدب والتمهّر فيه قوّة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصُل للمتأدّبِ قوّةٌ على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله (صلعم) وصحابته ويعلَمَ كيف تُبْنَى الألفاظُ الواردة فى القرآن والحديث بعضُها على بعض حتّى تُسْتَنْبَطَ منها الأحكامُ وتُفَرَّعُ الفروع وتنتج النتائج وتُقْرَن القرائن على ما تقتضيه مبانى كلام العرب ومَجازاتِهِ كما يفعَل أصحابُ الأُصول . وفى الأدب لمن حصل فى هذه المرتبة منه أعظم معونة على فَهْم علم الكلام وكثير من العلوم النظرية . فقد زهد الناسُ فى علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتّى ظنّ المتأدّبُ أنّ أقصى غاياته أن يقول أبياتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنّه باطلٌ يُجلَى فى معرَضِ حقٍّ وكذبٌ يُصوَّر بصورةِ صدق . وهذا الذمّ إنّما يتعلّق بمن ظنّ صناعة الشعر غايةَ الفضل وأفضلَ حُلَى أهل النُّبْل . فأمّا من كان الشعر بعض حُلاه وكان له فضائلُ سواه ولم يتّخذه مكسباً وصناعةً ولم يَرْضِهِ لنفسه

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص ١٩٥ – ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

حِرْفةً وبِضاعةً فإنّه زائد فى جلالة قدره ونباهة ذكره » . ثم قال : « وحدُّ المنطق كتاب يتّخذه المتفلسفون مقدّمة للعلوم الفلسفية كما يتّخذ المتأدّبون صناعة النحو مقدّمة للعلوم الأدبية » . — وحدُّ علم الأدب (أو الآداب) بهذا المعنى ومرتبتُهُ فى مراتب العلوم حدّهما ابن خلدون فى مقدّمته بغاية الوضوح فقال فى موضع [1] إنّ « النظر فى القرآن والحديث لابدّ أن تتقدّمَهُ العلومُ اللسانيّة لأنه متوقّف عليها وهى أصنافٌ فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب » . وقال فى موضع آخر [2] إنّ علم اللسان العربىّ « أركانُهُ أربعة وهى اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضروريّة على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعيّة كلّها من الكتاب والسنّة وهى بلغة العرب ونَقَلَتُها من الصحابة والتابعين عربٌ وشرحُ مشكلاتها من لغتهم فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » . وفى موضع ثالث أتى بتعريف علم الأدب فقال [3] : « هذا العلم لا موضوع له يُنْظَر فى إثبات عوارضه أو نفيها . وإنّما المقصود منه عند أهل اللسان ثَمَرَتُهُ وهى الإجادة فى فنّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم [4] فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصُلُ به الكلمةُ من شعر عالى الطبقةِ وسَجْعٍ متساوٍ فى الإجادة ومسائلَ من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقةٍ يستقرِى منها الناظر فى الغالب مُعْظَمَ قوانينِ العربيّة مع ذكر بعضٍ من أيّام

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٤٣٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٣ من الترجمة الفرنسية لدى سلان .

(٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة الفرنسية .

(٣) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٢٨ إلى ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

(٤) المنحاة : المسيل الملتوى .

العرب يَتَفَهَّم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المُهِمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة . . . . . ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : الأدبُ هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطَرَف . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعيّة من حيث متونُها فقط. إذ لا مدْخَلَ لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلاّ ما ذهب إليه المتأخّرون عند كَلَفِهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسّلهم بالاصطلاحات العلميّة فاحتاج صاحبُ هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانَهُ أربعةُ دواوين وهي أدب الكُتّاب لابن قتَيْبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي عليّ القاليّ البغداديّ » اهـ .

أمّا المسلك الثاني في حَصْر علم الأدب في علوم اللغة العربيّة فهو مسلك الذين عنوْا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان مع ما يتّصل بها من علمي القوافي والعروض وكلّ ذلك خلافاً لما نقلتُهُ عن ابن السِّيد البطليَوْسيّ وابن خلدون . والمحتمل عندي أنّ هذا المعنى الخاصّ لم يتولّد إلاّ نحو انقضاء القرن الخامس فإنّي ما عثرتُ عليه فيما صُنّف قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أنّ أبا البركات عبد الرحمن بن محمّد الأنباريّ المتوفّى سنة $\frac{٥٧٧}{١١٨١}$ ألّف كتاباً جيّداً سمّاه بنزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ، فإن راجعتموه وجدتم أنّه لم يذكر فيه إلاّ اللغويّين والنحويّين . فقال ابن خَلّكان[١] المتوفّى سنة $\frac{٦٨١}{١٢٨٢}$ في ترجمة أبي زكرياء يحيى التبريزيّ : «كانت له معرفة تامّة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما . . . . . وصنّف

---

(١) وفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبعات المصرية .

فى الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبى وكتاب شرح سقط الزند . . وشرح المعلّقات السبع وشرح المفضّليّات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله فى النحو مقدّمات حسنة إلخ » . فيتّضح من هذا الكلام أن علم الأدب عند ابن خلّكان كالأدب عند أبى البركات ابن الأنبارىّ المذكور وعند أبى يعقوب يوسف ابن محمّد السكاكىّ المتوفّى سنة ٦٢٦ الذى قال فى كتاب مفتاح العلوم [١] إنّ الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطإ فى كلام العرب وأنه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعانى والبيان . ومن المشهور أنّ علماء هذا الفنّ اختلفوا فى أقسامه لأنّ بعضهم جعل قِسْماً مستقِلاً ما ليس على رأى غيره إلاّ جزءً من أجزاء أحد الأقسام الأصليّة فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثنَىْ عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلم جرًّا . فقال مثلاً السيّد الشريف علىّ بن محمّد الجُرْجانىّ المتوفّى سنة $\frac{٨١٦}{١٤١٣}$ إنّ الاشتقاق قسم مستقل خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن عمر التّفْتازانى المتوفى سنة ٧٩٢ الذى جعله ذيلاً لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أنّ البديع قسم برأسه وعدّه آخرون من تتمّة علمى المعانى والبيان . ولكنّى لا أريد الخوْض فى مثل هذه المسائل الخارجة عن مقصودنا الحالىّ .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفيّة استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والإطلاق والتفرّع بتغيُّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس فى الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج فى علوم الشرق . وأرى من المناسب أن ألخّص الآن نتائج البحث المتقدّم بغاية الاختصار أعنى مجرّدةً عن الشواهد

(١) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٧ .

والنصوص التى إنّما أتيتُ بها قبلاً لئلّا تأخذوا منّى شيئاً بدون حُجّة . فإنّى لا أخاف من الإطالة إذًا لا بدّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرّفين السابقِ ذكرُهم الذين كان الإسلامُ عندهم شرَّ الكبائر .

إنّ الأدب كان على المحتمل فى عرف عرب الجاهليّة عبارةً عن العوائد الحميدة المتوارثة خَلَفاً عن سلف فليس من البعيد أنّ اسمه مشتقٌ فى قديم الزمان من الآداب جمع الدَّأب . ثمّ لكون تلك العوائد المتوارثة عمدةً للناس فى أعمالهم المستحسَنة عبّروا بالأدب عن السنّة والسيرة لا سيما المحمودة وعن حُسْن الأخلاق . وبما أنّ تعليم العوائد القديمة المأثورة كان عندهم أساسَ كلّ تعليم وتربية ، بل مُعْظَمَ معارفهم . أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظى التأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المُخْبِر بشىء .

ثمّ بعد ظهور الإسلام إلى ما يلى أواخر القرن الثانى لم تزل معانى الأدب على ما كانت عليه فى الجاهليّه أعنى عبارة عن المنهج المسلوك وعن حسن الأخلاق طبيعتّةً كانت أم كَسْبيّة وعن جملة المعارف . إلاّ أنّ المقصود من هذه المعارف انحصر فى الأمور الدنيويّة ولم يُطْلَقْ على العلوم الدينيّة .

وإثْرَ ما وقع للعرب من التقلُّب العظيم فى هيئتهم الاجتماعية وأميالهم بسبب اختلاطهم بأمم غيرهم تولّدت من معانى الأدب القديمة معانٍ أخرى حديثةٌ وذلك فى القرن الثالث حين بلوغ التمدّن الإسلامى أوجَهُ بمدينة بغداد . وتارةً وسّعوا نطاقَ المعارفِ المداولِ عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كل أنواع العلوم والفنون والصنائع والحِرَف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلّق بأمور الدين والشريعة .

ثمّ اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العامّ الذى ما عثرت على أمثلة

منه فيما صُنِّف بعد انقضاء القرن الرابع . وتارةً حصروا الأدب والآداب فيما تَمسُّ إلى معرفته حاجةُ تعاطي فنّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةً على جميع ما لا يستغني الكاتب عن تعلّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً . وتارةً اتّخذوا الأدب بمعنى السنّة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجبِ التمسُّكُ بها في عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمّ جرًّا . أمّا الناس الذين جعلوا أسمى مقصدهم في الظرف واتّخذوه سنّةً في جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أي السنّة) على كلّ أنواع الظرف والأديب على المتظرّف في كلّ شيء . وحيث إنّ التفنّن والمعرفة بما يُعجب من كلّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءًا من التظرّف حصر بعضهم الأدب في النكت والملح والنوادر واللطائف ومقطّعات الشعر غير الطويلة المُمِلّة وسمّوا أديباً من أخذ نُتَفاً ظريفة لطيفة من كلّ علم وفنّ . ومن حرَص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتذاذ بما نُسج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب في صناعتي النظم والنثر وسمّى أديباً المتعاطي الفنونَ الكتابيّة المستظرفة . فقُصارى القول أنّ المتظرّفين اتّبعوا ثلاث طرائق مختلفة في حدّ الأدب موافَقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف .

وفي ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهَجًا خاصًّا في تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم في علوم الدين والشريعة . وذلك أنّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلاميّة لايتبيّنُ افتقارُه إلى العربيّة وما يتعلّق بها من الأخبار والأشعار لأنّ بها الاحتجاج في تفسير القرآن الكريم والحديث النبويّ المتوقّفِ عليهما جميع الأحكام الشرعيّة ورأوا الكلام في مُعْظَم أبواب أصول الفقه وفروعه مبنيًّا على علم العربيّة والتفاسيرَ مشحونةً (كما قال

الزمخشري)[1] بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائيّ والفرّاء وغيرهم من النحويّين البصريين والكوفيّين والاستظهارَ فى مآخذ النصوص بأقاويلهم . فحمّلهم ذلك على التبحُّر فى أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتّصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب فى الشواهد الشعريّة والنثريّة مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغةً ومعنًى . وفريق ذهب فى القرن السادس وما يتلوه إلى أنّ الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان .

فممّا أوضحتُهُ ترون أنّ تشعُّب لفظ من أصل معناه إلى معان مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرَض للهيئة الاجتماعية من التقلّب والتشعّب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لمّا كثُرت العلائق وشُدّت الارتباطات العلميّة والأدبيّة بين بلاد الشرق وأمم الغرب ونُقلت كتبٌ فرنسيّة وإنكليزيّة فى كلّ فنّ إلى اللسان العربىّ أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال littérature عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرْف العربىّ السابق من وجوه . أوّلاً لأنّ الإفرنج ومن يقلّدهم فى الشرق يُطْلِقُون الآداب على مآثر أيّ لغة خلافاً للسلف من العرب فإنّهم على وفْرة المعانى التى وضعوا لها لفظَ الأدب لم يستعملوه أبدًا للدلالة على الكتب والعلوم الأعجميّة . وسبب مثل هذا الحصر أنّهم كما هو مشهور أغفلوا فى كلّ وقت البحثَ عن آداب اللغات الأجنبيّة فلم نقف على أحد منهم ألّف شيئاً فى لغة اليونان والرومان والعبرانيّين والهند والسريان والقبط. وأنّ الذين اعتنوا فى غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلون جدًّا لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثلُ أبى حيّان محمّد بن يوسف الغرناطيّ المتوفّى سنة $\frac{٧٤٥}{١٣٤٤}$ صاحب كتاب الإدراك

(١) المفصل للزمخشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ .

للسان الأتراك (١) والزَّمَخْشَرِيّ المتوفّى سنة ٥٣٨/١١٤٤ الذى وضع كتاب مقدّمة الأدب على صفة قاموس عربىّ فارسىّ (٢) . نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضيّة والفلسفيّة والطبّيّة والكيماوية والفلاحيّة ممّا صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُتَرْجَمْ لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخٌ (ما عدا تاريخاً مختصرًا لهروسيوس(٣)) ولا خطبةٌ بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستطرفة . ومع أنّ العرب وجدوا فى تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلوّ مرتبة فنون البلاغة والخَطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون قدر اعتبار اليونان الشعر والبلاغة وسائر الفنون المستطرفة فى تربية الأطفال والأحداث ما رغبوا فى معرفة تلك الآداب وبلغوا فى شأنها غاية الجهل حتّى إنّ أبا عثمان عمرًا الجاحظ. وهو من أحذق كُتّاب العرب وأوسعهم علماً وأدقّهم بحثاً قال فى كتابه المسمّى بالبيان والتبيين ما نصّه (٤) : « إنّا لا نعرف الخُطَبَ إلاّ للعرب والفرس ؛ وأمّا الهند فإنّما لهم معانٍ مدوّنة وكتبٌ مخلّدة (٥) لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنّما هى كتب متوارَثة وآدابٌ على وجه الدهر سائرةٌ مذكورة . ولليونانيّين فلسفةٌ وصناعةُ منطقٍ وكان صاحب المنطق

---

(١) راجع L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de L'hégire* : "La *pénétration dans la langue des Turcs" d'aboû Hayyân al-Gharnâti* (Actes du XIV ème Congrés international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suivv., III, p. 44-78.
وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ (وسنة ١٩٣١) .

(٢) Samachsharii *Lexicon arabicum-persicum*, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll.

(٣) هو من مؤلفى القرن الخامس بعد الميلاد .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً فى منتخبات البيان والتبيين للإمام الجاحظ المطبوعة فى مجموعة خمس رسائل (ص ٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفى كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخو ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ .

(٥) وفى طبعات مصر : مجلدة وهو تصحيف .

نفسهُ بَكِيءَ اللسان غيرَ موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أنَّ جالينوس كان أنطقَ الناس ولم يذكروه بالخَطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة » اهـ . وإنَّ هذا الكلامَ من أغرب الأقوال حيث إنَّه من المشهور أنَّ الخطب اليونانيّة صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجيّة وهي متداولة إلى الآن غيرُ مجهولة لكلّ من له ذَوْق سليم فى الأدب فى بلاد الغرب[1]. — وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنّهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابيّة المستظرفة الأجنبيّة حصروا الآداب فى علومهم العربيّة .

ثمّ إنَّ المعاصرين لنا من أبناء الشرق قلّدوا الإفرنج فى وَضْع معنيَيْن للفظ الآداب معنًى منهما عامٌّ ومعنًى خاصٌّ . والمعنى العامّ عبارة عن جميع ما صُنِّف فى لغة ما سواء فى العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قُيِّد فى الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمّة وأدبائها . أمّا الآدابُ بمعناها الخاصّ فعبارةٌ عمّا سُبِك فى قالب ظريف وصِيغ على نَمَط الإنشاء الأنيق من الكلام المنثور والمنظوم أعنى أنّها عبارةٌ عن حواصل الفنون الكتابيّة المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب

---

(١) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وجيزة نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقيعات ملوك الفرس ، فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم وقد طبعت هذه الرسالة فى التحفة البهية والطرفة الشهية ص ٢١٨ — ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطبعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان : فى بلاغة كلام العرب وكلام العجم) فى ج ٢ ص ١٢٦ — ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا العسكرى معلم أبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعتين المتوفى سنة ٣٩٥هـ وأنهما توافقا فى الاسم واسم الأب والنسبة (راجع بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦) .

مع ما أُلِّف بفصيح العبارة وطلاوة الإنشاء من التواريخ ووصفِ الرِّحَل والأسفار وما يشاكل ذلك . — فإذ كان الأمرُ كذلك أصاب الأب لويس شيخو فى قوله[1] : «تحيا الأممُ بآدابها لأنَّ الآدابَ ترقِّى المرء فوق الحياة المادِّيَّة وتسمُو به إلى المدارك الشريفة وتُقرِّبه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الذى منه يستعير كلُّ مخلوق جمالَهُ . وعليه فإن أراد العاقل أن يعرف درجة التمدُّن التى بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهله . ولذلك ترى المؤرِّخين يقدِّمون فى تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربَّما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثْبِت ما يختصّ بالعلوم والمعارف فى كلِّ ملَّة مُخْبِرًا عن نشأة الآداب بينها واتِّساع نطاقها وأسباب ترقِّيها ونتائجها الطيِّبة فى إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة » .

٢ — أمّا تاريخ الآداب فما هو؟ إذا اتُّخِذَت الآدابُ بمعناها الخاصّ وبالنظر إلى العربيّة أجاد فى وصفه رصيفى الأديب حضرة حَفْنى (بك) ناصف حين قال فيما طُبِع من محاضراته [2] أن «يدخل فى ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر فى كلِّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتَّاب والمؤلِّفين وبيانُ تأثير كلامهم فى من بعدهم وتأثُّرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلَّفاتهم » . — فإذا اتَّخذنا الآداب بمعناها العامّ فضروريّ أن نُدْخِل فى تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف العلماء والحكماء والمؤلِّفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم فى العلوم وتقدير علوّ منزلتهم فى الفنّ الذى تعاطوه . فيصف حينئذ تاريخ

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ١ ص ا (ألف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ .

(٢) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية المطبوع فى مصر سنة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ٦ .

الآداب سَيْر العلوم فى مدارج الترّقى وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيّات والفلك والطبّ وهلمّ جرًّا فلا يتميّز فى قسمة هذا من التواريخ المختصّة بعلم من العلوم أو فنّ من الفنون إلاّ لقدر التبحّر فى تلك المباحث ولصفة النظر فيها . مثال ذلك أنّ مؤرخ الحكمة والفلسفة يتوسّع فى الشرح التامّ لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدّرها تقديرًا دقيقاً . أمّا مورّخ الآداب فيمتنع عن الخوض فى المسائل الخاصة والانتقاد العلمىّ مقتصرًا على جوامع ما توصّل إليه مؤرّخ الفلسفة فى أبحاثه المستقصاة ومقدّرًا تصانيف الحكماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلميّة المحضة .

إنّ تاريخ الآداب علم جديد فى بلاد الشرق لم يسبِقْ إليه علماءُ العرب اللّهمّ إلاّ فى نُبَذٍ وجيزة وأشياء قليلة جدًّا وردت فى كتبهم مبعْثَرة دون أن استقصوا فيها بدقّة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فإنهم لم يتْقُنُوه قدر ما أتقنه اليونان والرومان فى الزمن القديم أو الأُمَم الإفرنجيّة منذ القرن الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنةً سنةً بدون البحث عن الأَسباب والأَحوال الاجتماعيّة وعن ارتباط الوقائع ببعضها ونتائجها ومن غير مَدّ بصرهم إلى ما هو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمّة من الطوارئ الظاهرة . فلا يخفى عليكم أنّ أكثر الذين حُكِمَ لهم بالتقدّم وحازوا قصب السبْق فى ميدان التاريخ عند العرب مثل أبى جرير الطبرىّ وابن الأثير وأبى الفِداء الحَمَوىّ وزين الدين عمر بن الوَردىّ لم يسلُكوا فى تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتّخذ منهجاً غيرَهُ ودوّن الحوادث مسرودةً آخذةً بعضَها ببعض لم يؤلّف إلاّ كتباً مختصرةً ولم يُجرِ التمحيص والنقد فى مصادره ولم يتأمّلْ تأثير الأَحوال الاجتماعية والاقتصادية فى الحوادث السياسيّة ولم يُدِقّ النظرَ فى

سائر العوامل فى ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أنّ ابن خلدون الذى أوضح فى مقدّمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر فى كلّ مبحث يتعلّق بالاجتماع الإنسانىّ إمعاناً يستوجب العجب العُجاب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لمّا صنّف سائر الأجزاء فى تاريخ الأُمم واتّبع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدرًا جزيلًا .

وكذلك فى تاريخ الآداب ما ألّف العرب إلاّ كتباً تتضمّن التراجم المفْرَدة المرتّبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمّق فى البحث عن أصل كلّ جنس من الفنون الأدبيّة وعن كيفيّة نموّه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم فى بعض وأسباب تغيّر الذوق والأميال . فأكثروا مثلاً فى رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلّب أساليب الشعر وأغراضه بتقلّب الهيئة الاجتماعية وتمادى العصور .

أطلتُ الكلامَ فى هذا الموضوع ليتبيّن لكم سبب تكليفى بتدريس آدابكم مع أنّى رجل أجنبىّ بعيد أىّ بُعْد عن إمكان مسابقة الوطنيّين فى معرفة اللغة والتضلّع من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب منّى ليس إلاّ أن أطبّق على الآداب العربيّة أساليب البحث التاريخىّ التى عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجيّة بطائل عظيم . والمرجو أنّكم فى آخر السنة المكتبيّة لا تجدون عملى باطلاً مجرّدًا عن كلّ فائدة .

٣ – إنّ تاريخ الآداب العربيّة يجوز قسمتُهُ إلى ستة أطوار أو أعْصُر .

(١) عصر الجاهليّة المنتهى من زمان لا تُدْرك أوائلُهُ إلى ظهور الإسلام . وهو عصر عربىّ صريح لغةً وأدباً وبلادًا .

(٢) العصر العربىّ الإسلامى من ظهور الدين الإسلامىّ إلى انقراض

الدولة الأمويّة سنة $\frac{١٣٢}{٧٥٠}$. وفيه انتشر استعمال اللغة العربيّة فى بلاد متباعدة بتوسُّع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربيّة تزهو أيضاً فيما خارجَ جزيرة العرب لا سيمّا فى بلاد الشام إلاّ أنّها لم تزل محصورة فى ميدان آداب الجاهليّة ما عدا العلوم المتعلّقة بأمور الدين .

(٣) العصر العبّاسيّ الأوّل من سقوط الدولة الأمويّة وابتداء دولة العباسيّين إلى نحو سنة $\frac{٤٥٠}{١٠٥٨}$. وصار فيه للأُمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور الدنيا والدين بل غلبت العجمُ على العرب فى تكوُّن التمدّن الإسلامى فأُدْخِلت كتبُ العلمِ العجميّةُ القديمة واتّسع التفنّنُ فى الآداب وسُلِكتْ فيها مسالكُ جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر فى بعض القوالب المستحدَثة وبلغت العلوم والفنون وبعضُ أنواع الآداب مداها الأقصى من الكمال والإتقان والرونق والبهاء . وذلك ثَمَرة ما سببه الإسلامُ من تعاوُن الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشاركِهِم فى العلم والعمل كأنّ لسانَ حالهم قولُ أبى تمّام [1] : (من بحر الكامل)

إنْ يُكدِ مطَرَّفُ الإخاء فإننا ... نسرى ونغدو فى إخاءٍ تالِدِ

أو نفترقْ نسَبًا يؤلِّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مَقامَ الوالدِ

أو يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤنا ... عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

(٤) العصر العبّاسيّ الثانى من نحو سنة $\frac{٤٥٠}{١٠٥٨}$ إلى فتح التتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بنى العبّاس سنة $\frac{٦٥٦}{١٢٥٨}$. وفى هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحطُّ مما كانت عليه من الكمال تَبِعةً للانحطاط السياسيّ

---

(١) الأبيات مروية فى إرشاد الأريب لياقوت ج ١ ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان أبى تمام ص ٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص ٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكدى : قل خيره ، وأطرف الشىء : اشتراه حديثاً ، وتالد : (مال) قديم .

الذى قد ابتدأ فى العصر السابق حين تجاسَرَ الجُنْد التركىّ على الخلافة فى أيّام المتوكّل (٢٣٢/٨٤٧ - ٢٤٧/٨٦١) فاستولى على الدولة أمراءُ الجيوش مثل وصيف وبُغا وأتامش كما قال الشاعر[1] : (من بحر الخفيف)

أصبح التُّرْكُ مالكى الأمْرِ والعا لَمُ ما بين سامعٍ ومطيعِ

وزاد تفرُّع الدولة إلى دول صغيرة فى أنحاء مختلفة فربّما تلاشت العلائق بينها فاختلفت أحوالُ الآداب على اختلاف البلاد .

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العبّاسيّة إلى استيلاء محمّد علىّ باشا على مصر سنة ١٢٢٠/١٨٠٥ . وفيه خمَدت جَذْوةُ الآداب والعلوم التى لم تزلْ مائلةً إلى الهبوط حتى كادت تنطفئُ جَمْرتُها كلّيّةً فى بعض الأصقاع الإسلاميّة . وفترتْ هِمَمُ أهل العلم فأصبح أكثرُهم ممسكين عن الاجتهاد المستقلّ فى المباحث مقتنعين بالنظر فى كتب مَنْ تقدّمهم بدون خروج عن رتبة المقلّدين وبغير طمع فى مباراة السلف . وكذلك الشعراء والأُدباء اقتصر أغلبهم على حَذْو السابقين فنجد أشعارَهم كأنّها تصدر عن المتصنّع المتشبّه الذى يكتفى بتنميق العبارة وزُخْرُف الكلام وإشكال البديع ولا يهتمّ بالتعبير عن حقيقة ما يكُنّه صدره من العواطف والخواطر . فإن نجدْ بين أهل ذلك العصر من فاق غيرَهُ فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسىّ وابن خلدون) يصلُحْ له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنّه[2] «ربما يحدُثُ عند آخر الدولة قوّةٌ يُوهِمُ أنّ الهَرَمَ قد ارتفع عنها ويُومِضُ

(١) البيت مروى فى الباب العشرين بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٤٠٠ من الطبعة الباريسية .

(٢) مقدّمة ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

ذُبالُها إيماضةَ الخُمود كما يقع فى الذُّبال المشتعِل فإنَّه عند مقاربة انطفائه يُومِض إيماضةً تُوهِم أنَّها اشتعال وهى انطفاء"

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمّد علىّ باشا سنة ١٢٢٠/١٨٠٥ إلى أيّامنا هذه . وفى هذا العصر شاعت العلُوم الإفرنجيّة فى كثير من بلاد الشرق فكانت خَميرة اختمرت بها العقول بعد مُدّة العُقْم والسُّقْم وانتاشت أهلَ الإسلام ممّا قد قضت الصروفُ لأغلبهم من الاستكانة والتفريط فى التعلُّم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فنُّ الطباعة فى الشام ومصر وغيرهما من الأنحاء الإسلاميّة وذاعت الجرائدُ والمجلاّت بنافع المعارف والأخبار وعادت أسواقُ الآداب والعلوم قائمة وبضائعها رائجةً لا سيمّا فى القطر المصرىّ وشقيقته الشام والقسطنطينيّة وبغداد فتحقّق وتمّ لأهاليها مُرادُ قولِ الشاعر[1] : (من بحر البسيط.)

لعلَّ إلْمَامةً بالجِزْع ثانيةً يدِبُّ منها نسيمُ البُرْء فى عِلَلِى

إلاّ أنَّ إفراط التأثير الإفرنجىّ لم يخْلُ عن الإضرار بآداب الشرق لأنَّه ربّما أبعد الناس عن شدّة العناية بلغتهم وأدخل فى تآليف بعض المحْدَثين وفى بعض المجلاّت والجرائد العُجْمةَ المستقْبَحة والتراكيبَ الشائنةَ السقيمة ورَكاكة الكلام وسَخافة الإنشاء وغيرَ ذلك ممّا يستنكفُ منه صاحبُ الذوْق السليم : فاتّفق لبعض الكتبة ما اتّفق لبعض الناس الذين قلّدوا الإفرنج وعوائدَهم بدون بصيرة وخلطوا الغَثّ بالسمين والبخس بالثمين :

إنَّ هذه الحدود التى ذكرتها لكلّ عصر من الأعصر الستّة ليست إلاّ حدودًا

---

(١) البيت مروى للطغرائى المولود سنة ٤٥٣/١٠٦١ والمتوفى سنة ٥١٥/١١٢١ وهو البيت السادس والعشرون من شعره المسمى بلامية العجم ، فانظر كتاب نشر العلم فى شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين محمد بن عمر الحضرمى ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ — وألمَّ به نزل به . جزع : منعطف الوادى ومحلة القوم . دب : سرى . برء : شفاء .

صناعيّة اصطلاحيّة أثبتُّها على التقريب فإنَّ عصرًا ما سواء من التاريخ السياسيّ أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحْصر فى مواقيت معيّنة بدقّة . فلذلك أسباب . أوّلاً أنّ كلّ حيّ وكلّ نوعٍ أو فرع من الهيئة الاجتماعيّة لا تتغيّر أحوالُهُ بديهاً أبدًا بل من المشهور أنّ الانتقالَ من حال إلى حال لا يحصُل إلاّ بالتدريج الباطئ حتّى لا يُشْعَر فى الأغلب بالفرْقِ بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإن أعملْنا الفكر فيما يظهر بادئَ نظر أنّه تقلّب فاجئ ألفينا أنّه فى الحقيقة نتيجة عدّة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمان طويل . قال إبُقراط [1] ومن اتّبعه من أطبّاء اليونان والعرب إنّ الإنسانَ يبتدئ طِفْلاً ثمّ يصير صبيًّا إلى أربع عشرة سنةً من عمره ثمّ غلاماً إلى إحدى وعشرين سنةً ثمّ شاباًّ ما دام يشِبُّ ويقبَل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنةً ثمّ كهَلاً إلى تسع وأربعين سنةً ثمّ شيخاً ثمّ هَرِمًا إلى آخر العمر الذى ينقسم إلى سبع أسنان على هذا القول [2] . وظاهر أنّ هذه القسمةَ لمدّة حياة الإنسان إنما هى اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعيّة إلاّ بالتقريب فلا يزعم أحدٌ أنّ الإنسانَ عند انتقاله من سنّ إلى التالية لها على ذلك القول يتغيّر تغيُّرًا محسوساً . وكذلك تقلّبات الأمم والدول إنّما تقع قليلاً فقليلاً فلا يُشْعَر بها إلّا بعد مُضِيّ أمَد مديد حين يمكن مقابلةُ الحال الحاضر بالحال الماضى البعيد . فمن قال من المؤرّخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنةَ اكتشاف أمريكا أعنى سنة $\frac{٨٩٧}{١٤٩٢}$ ما أراد أنّ الدنيا قد تغيّرت أحوالُها بَغْتةً فى تلك السنة أو أنّ أهلَ ذلك العهد أحسّوا بشىء من التغيير العامّ الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع فى

(١) يعنى Hyppocrates الطبيب اليونانى المشهور الذى عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثانى والستين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٤ ص ٢١ من الطبعة الباريسية) .

سيْرِ الآداب فإنَّ أنواعَها وفنونَها بطيئةُ التحوُّل فتختلط. فى الأغلب الأساليبُ القديمة بالجديدة فى عصر واحد، وتوازنت فيه مدّةً إلى أن يأخذَ الأسلوبُ الجديد فى الغلْب على القديم شيئاً فشيئاً . فكم مرّةٍ ما انفرد به شاعر أو أديب طفِق بعد مدّةٍ يتشبه به القليلون الذين استحسنوه واستطابوه ورأوا أنّه تألفه الأسماع وتقبّله النفوس ثم سائر الأدباء اتّبعوه أيضاً وتحمّلوه فعمّ ما كان يختص به أوّلاً الواحد . وفى أشعار الجاهليّة تجدون أحياناً من التغزُّل[1] ما يُشْبِه الأسلوب الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة[2] بعد منتصَف القرن الأوّل وقرون الهجاء فى القرن الثانى كأنّه متردّدٌ متحيّر فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأمور أهل المدر . ويحتذى المتنبى[3] حَذْو القدماء حين يدّعى فى بعض أشعاره بالحماسة وابن المعتَزّ[4] حين شرع فى نوع الافتخار ، ومع ذلك إنّهما من الشعراء المُحْدَثين لا يفردان عن معاصريهما فى المدح والغَزَل والوصف والطرديّات . فإذاً كيف يمكن أنّ سنةً معيّنةً تكون حدًّا حقيقيًّا طبيعيًّا بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟

ثمّ لا يخفَى عليكم أنّ آدابَ لغةٍ ما إذا شاعت فى أراضٍ متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعدْ فنُّ الطباعة فى انتشار الكتب انتشارًا سريعاً بعيدًا لا تتغيّر أحوالُها ولا تتقلّب أميالها على نَمَطٍ واحد فى كلّ قطر لا سيّما إن

---

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Funf Mo'allaqât*, II,P. 49. *Encyclopédie de l'Islam*, I,P. 366 و (مادة عنترة) .

(٢) عمر بن أبى ربيعة ولد ٢٣/٦٤٤ م وتوفى سنة ١٠١/٧١٩–٧٢٠ على القول الأرجح وسيأتى ذكره فى باب الشعراء الغزليين الذين عاشوا بمدن الحجاز فى عصر بنى أمية .

(٣) توفى المتنبى سنة ٣٥٤/٩٦٥ .

(٤) مات ابن المعتز سنة ٢٩٦/٩٠٨ وفى افتخاره راجع إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٢٤ – ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥ .

تشتّت شملُ المملكة كما اتّفق للأُمم الإسلاميّة منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التي جعلتُها العصرَ السادس) بالقطر المصريّ والشام والعراق والهند لأنّ سائر الأنحاء الإسلاميّة العربيّة لم تزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه في العصر السابق الذى سمّيْناه عصر الانحطاط ففى عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبُغْ بعدُ عالم أو أديب أو شاعر طفِق يشرع فى الأساليب الجديدة فما هبّت هناك الآداب العربيّة من كَراها ولا نفَضتْ غُبار خُمولها . ودعوا عنكم ما وقع فى المغرب الأوسط. أى بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسىّ فإنّ مصابيحَ العلوم العربيّة أطْفِئتْ هنالك وتلاشت الآدابُ كلّيًّا حتّى لا يجاوز عدد أنامل اليد من يتمكّن من استعمال اللغة الفصحى فى الكلام واندرست المكاتب العربيّة التى قد اشتهرت فى الأجيال الخالية بالقُسَنْطينة وبِجاية وتِلِمْسان وكادت تَضْمحِلُّ معرفة الآثار العربيّة عند الوطنّيين كيف لا وهناك الشُّبّانُ فى نفس مدارس القضاء الشرعى يتلقّوْن أكثر العلوم بلسان الفرنسيس . ومثال مقدار ما بلغه الناس فى برّ الجزائر من إغفال درس لسانهم أنّ أحد الجزائريِّين وهو حضرة محمد صوالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبى زيد القيروانىّ[1] فى الفقه المالكى قائلا فى مقدمة الترجمة إنّه رأى من المناسب نقل ذلك الباب إلى الفرنسيّة لكون أغلب الوطنّيين المتأدّبين أعرف بها منهم بالعربيّة[2] . وهذا لعمرى عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلّط عليهم معاً .

---

(١) توفى سنة ٣٧٩ .

(٢) SOUALAH Mohammed, *le jeûne chez les Musulmans Mâlékites* (*Revue Africaine*, vol. 50, 1906, P. 993) . [كذلك كان فى سنة ١٩١٠ عندما ألف الأستاذ نلينو محاضراته هذه فى تاريخ الآداب العربية] .

وقُصارى القول أنَّ قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورةً محدودة إنّما هى وسيلة لتسهيل بيان سيْر الآداب فى مدارج الترقى أو رجوعها القَهْقَرَى . فالحدود المعيّنة لكلّ عصر هى كالأعلام التى كان أهل البدو ينصبونها فى البرارى والقفار ليهتدى بها ابن السبيل ولا يضِلّ فى تلك الأراضى المستوية الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال تلك الحدود الاصطلاحيّة مثلَ منفعة بل ضرورة وضع خيوط السّدَى التى يُنْسَج عليها النسيج . — وربّما زيادةً لوضوح البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار بأسلاك التاريخ ينبغى قسمةُ تلك العصور الأساسيّة أقساماً أخرى صغيرة وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهميّة بعض الوقائع السياسيّة والأدبيّة . لكنّى أمتنع الآن عن الخوض فى تعريف تلك الأقسام الفرعيّة التى سأذكرها فى دروسى عند سنوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثانى

العصر الجاهلى

١ — شعر أهل البادية — ٢ — شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان — ٣ — شعر النصارى بالحيرة وفى مملكة بنى غسان — ٤ — شعر أهل الحضر فى مدن الحجاز — ٥ — النثر الجاهلى — ٦ — المسائل المتعلقة بالقرآن

أمّا بعد هذه المقدمات وقبل الشروع فى المواضيع الخاصّة التى ستدور محاضراتى على البحث عنها بالتوسع أرى من المناسب لَمْحةً فى أحوال الآداب العربيّة أثناء كلّ عصر من الأعصر الستّة السابقِ تحديدها بالإجمال — فأبتدئُ بالعصر الجاهلىّ [1] .

لا شكّ أن ما وصل إلينا من آثار الجاهليّة نظماً ونثراً شىءٌ يسيرٌ جدًّا بالإضافة إلى جميع ما أنشدتهُ العرب أو روتْهُ فى مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم وتهاجيهم وما قالوه ارتجالاً فى غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث. ومن المشهور أنّ العرب القدماء من أكثر الأمم شعراً لهم فيه التصرّف العجيب والاقتدار اللطيف دوّنوا فيه عواطفَهم وأعمالَهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العَسْكَرىّ المتوفّى سنة ٣٩٥/١٠٠٥ حين قال [2] : «لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّا مها ووقائعها إلاّ من جملة أشعارها فالشعر ديوانُ العرب وخزانة

(١) [فى الشعر الجاهلى انظر (فضلا عن المؤلفات المذكورة فى الحواشى التالية] الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين طبعة مصر ١٩٢٧ ثم E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literargeschichtlichen Betrachtungsweise altarabischer Poesien* (*Der Islam*, XXIV, 1937, P. 201-269); G. VON GRUNEBAUM, *Die Wirklichkeitweite der früharabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBAUM, *Zur Chronologie der früharabischen Dichtung* (*Orientalia*, VIII, 1939, P. 328-345).

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠ .

حكمتها ومستنبطُ آدابها ومستودَع علومها » . وقال الجاحظ (١) المتوفّى سنة ٢٥٥ : «قال الهَيْثَم وابن الكَلْبيّ وأبو عُبَيْدَة فكلّ أمّة تعتمد فى استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب فى جاهليّتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفّى وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أنّ الشعر يفيض فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثُرة على السيّد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيد مآثرها بالبُنيان فبنوا مثل كرد بيداد (٢) وبنى أزدشير بَيْضاء إصْطَخْر وبيضاء المدائن والحَضْر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس. قال ثمّ إنّ العرب أحبّتْ أن تشارك العجم فى البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غُمْدان وكعبة نَجْران وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد ومارد قالوا تَمَرَّدَ مَارِدٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ (٣) وغير ذلك من البنيان » . — ولكنّ كثيرًا ممّا سارت به الركْبان إلى أطراف بواديهم وأقاصى أنحائهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطِقْ الحصولَ على معرفته أهلُ اللغة فى القرن الثانى للهجرة . إنّ أوائل آداب اللغات المتفرّعة من اللاتينيّة مثل الإيطاليّة والفرنسيّة والإسبانيّة معروفة فنستطيع وصف تدرُّج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أمّا الآداب العربيّة فليست على مثل هذا الحال فلا نتمكّن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثُر عليه من الأخبار فى تصانيف اليونان والرومان .

---

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٢) فى هذا الاسم تحريف وذكر المسعودى « بيت النار بسجستان يقال له كراكركان » (مروج الذهب فى الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة الباريسية) .

(٣) المثل مروى فى مجمع الأمثال للميدانى ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG, *Arabum Proverbia sententiaeque proverbiales*, Bonn 1838-1843, I p.218.) وفى أمثال العرب للمفضل الضبى ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

ولم يُنْقَل إلينا بيتٌ عربىّ غيرُ مُرْتاب بصحّته أقدمُ من أواخر القرن الخامس للمسيح أعنى سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة تقريباً . وقولى هذا الذى سآتى بالبرهان عليه فيا بعد لا يبعُد عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ فى كتاب الحَيَوان [1] : «وأمّا الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ أوّلُ من نهج سبيله وسهّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلْهِل بن ربيعة ، وكتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون ثمّ بطلميوس وذى بقراط [2] وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدلّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجْر [3] .

(من بحر المنسرح)

إنّ بنى عوْف ابتنوْا حَسَباً [4] ضيّعهُ الدُّخْلُلُون [5] إذْ غدروا
أدّوْا إلى جارهمْ خُفارَتَهُ ولم يَضِعْ بالمغيب من نصروا
لا حِمْيَرِىٌّ وَفَى ولا عُدَسُ ولا استُ عَيْرٍ يحُكُّها الثفَرُ
لكنْ عُوَيْرٌ وَفَى بذمّتِهِ لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ [6]

فانظُر كم كان عُمْرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زرارة ومولد النبىّ عليه الصلاة والسلام . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام . قال وفضيلة الشعر مقصورة

---

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٢) [لعله Hyppocrates الطبيب اليونانى المشهور] .

(٣) راجع ديوان امرئ القيس ص ٢٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ — ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى أو عدد ٢٧ (ص ١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Divans of the six ancient Arabic poets.*

(٤) فى كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٥) فى كتاب الحيوان : الداخلون وهو غلط — قال البطليوسى الدُّخلل والدُّخلل والدخيل الذى يداخل الرجل فى أمره ويصاحبه عليه وهم الخاصة .

(٦) وروى الشطر فى الديوان كذا «لا عور شانه ولا قصر» .

على العرب وعلى من تكلّم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجَم ولا يجوز عليه النقل إلخ » — ولكن فى كلام الجاحظ هذا نظرٌ . فإنّه خطأ أوّلاً لما قابل عهد الآداب اليونانية النثريّة بعهد الشعر العربى ولم ينتبهْ لعدم كلّ علاقة بينهما . ثم لو أدقّ البحث فى تاريخ الآداب لوجد أنّ الشعر سبق سائر الفنون الأدبيّة المستظرفة عند كلّ أمة متمدنةً كانت أو همَجيّة . ثمّ لا يلوح كيف تُستنتَجُ حداثةُ الشعر من الأبيات التى أنشدها لامرئ القيس لأنّه لا دلالة فيها على سابقيّة تلك الأبيات لغيرها . ولعلّه اغترّ بقَوْل كثيرمن علماء اللغة أنّ مُهَلْهِلاً وهو خالُ امرئ القيس أوّل من قصد القصائد[1] وهذا القول — ولو صحّ — لا يدُلّ على عدم وجود أنواعٍ غيرها من الشعر عند من تقدّم مهلهلا من العرب . والحق يقال إنّ من يسرّحْ أبصاره فى رياض الشعر الجاهلىّ لا يجدْ فى شذراته التى نجتْ من أيدى الضّياع ما يدلّ على كونه فنًّا صغيرالسنّ فإن جميع ما نُقِل إلينا منه يظهر لنا فى غاية الإتقان وزناً وتقفيةً وفى نهاية التفنُّن من الافتخار والتحضيض والزَّجْر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرِّثاء ؛ وهو يجمع رِقّةَ العبارة إلى دقّة الإشارة ومتانةَ التراكيب إلى رشاقة الأساليب . فليس من الممكن مثلُ هذا الكمال فى صناعة حديثة لأنّه من المعلوم أنّ كلّ مبتدئ لشىء لم يُسْبَقْ إليه وكلّ مستدع لأمر لم يتقدّمْ فيه عليه لا بدّ من أن يكون قليلاً ثمّ يكثُر وصغيرًا ثمّ يكبُر وضعيفاً ثمّ يتقوّى . ومصداقاً لقولنا هذا الإجمالىّ نأتى فيما بعد بنصوص قديمة غير عربيّة تدلّ على أنّ الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وامرئ القيس بمدّة مديدة . وخلاصة الأمر أنّ العلماء من العرب الذين قالوا بمدّة

---

(١) راجع كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلا .

مائة وخمسين سنةً تقريباً للشعر الجاهلي لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضْنا أنّهم إنّما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثمّ من الجدير بالذكر أنّ جميع ما نعرفه من شعر الجاهليّة إنّما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن فى هذه الأنحاء وأن أصله من قبائل اليمن . أمّا أهل الحضر من سكّان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يُعْرَف لهم أبياتٌ صحيحة الرواية لا بالعربيّة ولا بالحِمْيَريّة . فعلى مؤرّخ الآداب أن يفحَص عن سبب ذلك باعتبار كيفيّة النقل وأحوال عرب الجاهليّة فى السياسة وفى نظامهم الاجتماعيّ . — ثمّ على الباحث عن آداب العرب القديمة حلُّ مسائلَ أخرى خطيرة الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقةٌ بين الكلام المسجّع والكلام المنظوم ؟ وما السجْع فى أوائله ؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفّى ؟ أكان الشعر أوّلاً ذا وزن معيّن وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصّلت العرب إلى اختراع القصيدة على نَمَطها الكامل المُتقَن ؟ ولماذا جعلوا النسيب أوّل القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغةُ الأشعار لغةً واحدةً ؟ وكيف تكوّنت هذه اللغة ؟ وعلى أيّ وجه وصلت أشعارُ الجاهليّة إلينا ؟ أيجوز لنا أن نثِق بصحّة رواياتها ؟ وأن نعتمد على الحكايات المرويّة لشرح الأبيات القديمة ؟ — إنّ هذه المسائلَ المهمّة وغيرَها التى لا نستطيع أن نحُلّها جميعَها حَلاًّ نهائيّاً قاطعاً تكون موضوعَ جملة من محاضراتى بعد إنجاز بيان المقدّمات التى نحن بصددها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماء نيّف وثمانين شاعرًا عاشوا فى عصر الجاهلية ولكلّ واحد منهم تُنْشَدُ أبياتٌ وصلت إلينا متفرّقةً فى جملة من التصانيف . ولكن أكثر ما رُوى من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم

الأبيات المنقولة ذو شبه واختلافات وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التي إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبر عليها هنَيْهةً من الزمان . فلا نستطيع ترتيب تراجمهم على توالى الأزمنة اللّهمّ إلاّ للقليلين منهم ولا نتمكّن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أنّ بعضَ كتب عربيّة فى آداب لغتكم صُنّفت حديثاً وطُبعت بمصر وهى متداولة فى المدارس تروى لكلّ شاعر تذكُره من شعراء الجاهليّة تاريخ وفاته كأنّه معيّن ثابت ولا شكّ فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أنّ منبَع تلك الأخبار كان أصلًا كتاب روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب تأليف إسكندر أغا إبكاريوس الذى مات سنة ١٣٠٢/١٨٨٥ ونشر كتابه فى بيروت سنة ١٨٥٨م دالاًّ فيه لكلّ شاعر على عام وفاته من غير أن يبّين كيف استخرج تلك السنين . والمحتمل أنّه توصّل إليها بالحدْس والتخمين مستندًا إلى إشارات غير كافية وجدها فى الكتب القديمة ولافقاً مقطّعاتِ الأخبار [1] . ثم على جرى عادة كثير من المُحْدَثين الناقلين كلام من تقدّمهم بغير بصيرة وتمحيص وبغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتبة فى بيروت يقبَل تلك التواريخ بلا انتباه ثمّ اتّبعهم فى مثل ذلك النقل بعض المتأدّبين بمصر فشاعت تلك الأوهام ودخلت فى الكتب المدرسيّة بعدما زيدت عليها غير مرّة أغلاط طبع فى أرقام الأعداد . — ولكن عدم تعيين التواريخ المومأ إليها ليس ضررًا عظيماً لسببين : الأوّل أنّ المدّة التى عاش فيها شعراء الجاهليّه المنقولُ إلينا شىءٌ من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنةً تقريباً كما تقدّم .

والثانى أنّنا نقدر على تعيين تتابُع أكثر الفحول بإشارات وردت فى نفس

(١) راجع R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter* II. (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, XVIII, 1904, P. 5, n. 1).

أشعارهم أو بأخبار محقّقة نُقلت إلينا من الزمان القديم .

إذا أطلنا النظر والتأمّل فى شذرات الشعر الجاهلى التى سلمت من التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعانى وجدناها تنقسم إلى أربعة أصناف أساسيّة : الصِّنْف الأوّل ما نسجه أهلُ البادية أو من تقرّب منهم سواء كانوا وثنيّين أم يهوديّين . الثانى أشعار الوثنيّين الذين قصدوا ملوك الحيرة وبنى غسّان وجالسوهم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو فى مملكة بنى غسّان . الرابع أشعار أهل الحضر الوثنيّين فى مدن الحجاز . لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيّين واليهود من أهل البادية ووجودَهُ بين الوثنيّين والنصارى من أهل الحضر لأنّكم إذا اطّلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل الإسلام ما ألفيتم فيها شيئاً أو عبارةً يميّزها من سائر أهل البادية .. فمن طالع مثلاً أبيات السمَوْءل بن عادِيَاء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة التزوير منسوبة إليه لم تُعْرَف ولم تُطْبَع إلاّ حديثاً) لما توهّم أنّ صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً فى سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شُعْبة [1] بن غَرِيض والربيع بن أبى الحقَيْق وغيرهما التى اعتنى بجمعها نولْدِكِ وفرانْزدِلِيتش [2] ليس من المستحيل أنّ ما فُقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة إلى ما حُفِظ.) قد حوى أشياء ممّا يختصّ بدينهم وليس من المحال أيضاً أنّ الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلّا فى الموجود المعروف الذى لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغةً ولا أسلوباً ولا مأخذًا كأن دينهم لم يؤثّر فى شعرهم ألبتّة .

---

(١) [إن شعبة تصحيف سيمة (بفتح السين المهملة وسكون الياء) . انظر ما قال الأستاذ الإيطالى Levi Della Vida فى المجلة Rivista degli Studi Orientali, VIII, Roma. 1919-21, P. 627-628, فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور فى سيمة بن غريض فى مقالته *A proposito di as-Samaw'al* المطبوعة بالمجلة Rivista degli Studi Orientali, XIII, 1931-32, P. 62.] .

(٢) NOELDEKE, *Beiträge Zur Kenntniss der Poesie der alten Araber*, P. 52-86; F. DELITZSCH, *Jüdisch-arabische Poesien aus vormuhammedanischer Zeit*, Leipzig 1874.

١ — وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهليّة أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاًصنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فأبتدئُ بالصنف الأوّل أى أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجودُ رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقُهم وعوائدهم أقرب للهَمَجية المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام اجتماعىّ متين فسُمّوا أولئك الرجالُ صعاليك أى فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزّلين عن نفس قبائلهم جائلين فى القفار والبوادى بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعل فى أيّامنا المعروفون بالبواقين عند أهل شمّر والحجاز الشماليّة (١) ومنهم من نبَغ فى الشعر على توحّش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضُرب بهما الأمثالُ لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم (٢) فكثُرت فيهما الأخبار العجيبة والروايات الغريبة . وهما تأبّطَ شرًّا الفَهْمىّ (٣) والشّنْفَرَى الأزدىّ عاشا فى القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً فى غزواتهما . وافتخر تأبط شرًّا فى قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتّخاذها جارة فى ليلة مظلمة (٤) :

وأدْهمَ قد جُبْتُ جِلْبَابَهُ … كما اجتابَتِ الكاعبُ الخَيْعَلا
إلى أن حَدَا الصُّبْحُ أثناءهُ … ومزّق جِلْبــابَهُ الأَلْيَلا
على شيْم نارٍ تَنَوَّرْتُها … فبِتُّ لها مُدْبِرًا مُقْبِلا
فأصبحْتُ والغولُ لى جارةٌ … فيا جارَتَا أنْتِ ما أهْوَلا
وطالبْتُها بُضْعَها فالتَوَتْ … بوجه تَهَوَّلَ فاسْتَغْوَلا

---

(١) انظر : JACOB, *Altarabisches Beduinenleben*, 2 éd., Berlin 1897, P. 225.

(٢) محضير : كثير العدو . ومغوار : مقاتل كثير الغارات .

(٣) جمع المستشرق الإنكليزى LYALL أربعة أشعار لتأبط شرا فى المجلة *Journal of the Royal Asiatic Society* سنة ١٩١٨ ص ٢١١ — ٢٢٧ .

(٤) الأبيات مروية فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيعل : قميص بدون أكمام — تنوره : تطلع نحوه ببصره .

وما أحسن وصفَ حال حياته فى قصيدة مدح بها عمّه شمْس بن مالك[1] :

(من بحر الطويل)

قليلُ التشكّى للمُهِمّ يُصيبُهُ   كثيرُ الهَوَى شتّى النَّوَى والمَسالِكِ
يظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمْسِى بغيرِها   جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظهورَ المَهالِكِ
ويسبِقُ وَفْدَ الريحِ من حَيْثُ ينتحى   بمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ المُتدارِكِ
إذا حاصَ عَيْنيْهِ كَرَى النومِ لم يَزَلْ   له كالئٌ من قَلْبٍ شيْحانَ فاتِكِ
ويجعَلُ عينيْه رَبيئةَ قَلْبِهِ   إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أخْلَقَ صائكِ
إذا هزّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلّلَتْ   نَوَاجِذُ أفْواهِ المنايا الضواحِكِ
يرى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويهتدى   بحيثُ اهتدَتْ أمُّ النجومِ الشوابِكِ

أمّا الشَّنْفَرى الأزدىُّ فصاحب اللاميّة المشهورة التى يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحْشةِ عيشهِ فى البرارى كأنّه لم يعاشر إلّا السباع . وهى قصيدةٌ غاية فى الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وإن كان بعضُ النحويّين يزعمون أنّها من مصنوعات حمّاد الراوية المتوفّى سنة ١٥٥ . وممّا يدلّ أيضاً توحُّش عِيشته شعر آخر له قال فيه[2] :

(من الطويل)

[و] لا تَقبُرونى إن قبرِى مُحرَّمٌ   عَلَيْكُمْ ولكنْ أبْشِرِى أمَّ عامِرِ
إذَا احْتَمَلوا رَأْسِى وفى الرَّأْسِ أكْثَرِى   وغودِرَ عند المُلْتَقَى ثَمَّ سائِرِى

---

(١) الأبيات مروية فى حماسة أبى تمام من ٤١ — ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٦ — ٤٩ من طبعة بولاق . — اعرورى الفرس : ركبه عريا ليس تحته شىء — منخرق : سريع — فاتك : فاجىء . وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها المجرة .

(٢) الأبيات مروية فى حماسة أبى تمام ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من طبعة بن (أو ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ من طبعة بولاق) وفى NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, P. 30 . — [فى تأبط شرا والشنفرى راجع أيضاً مقالتى المستشرق الإيطالى Francesco GABRIELI السابقتين *Ta'abbata Sharr an Shanfarà e Khalaf al-Ahmar* (*Rendiconti dell'Accademia dei lincei*, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, P. 40—69); *sull'Autenticità della «Lâmiyyat al-'Arab»* (*Rivista degli Studi Orientali*) XV, Roma 1934, 35 P. 358-361.]

هُنالِكَ لا أرْجو حَياةً تَسُرُّنى   سَجيسَ اللَّيالى مُبْسَلًا بِالجَرائِرِ

ثمّ من الصنف الأول مع بعدهم عن هَمَجيّة تأبّط شرًّا والشَّنْفَرَى أصحابُ ستٍّ من المعلّقات السبع الشهيرة أعنى : امرأ القيس وهو أقدمهم ، والحارث بن حِلِّزة ، وعَمْرَ بن كلثوم ، وعنترة العبسىّ وزُهَيْرًا ولبيدًا وهو أحدثهم . أمّا طَرَفَة فمن شعراء الصنف الثانى المجالسين للملوك . وامرؤُ القيْس ابن حُجْر من آل ملوك كندة عاش فى النصف الأوّل من القرن السادس للمسيح ويقال إنّه أمير الشعر لما أدرك فيه من الإتقان فقال ابن قتيبة[1] المتوفّى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ إنّه « سبق إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العربُ واتّبعتْهُ عليها الشعراءُ من استيقافه صَحْبَه فى الديار ورِقّة النسيب وقرب المأخذ » . وأجْوَدَ أيضاً الوصف والتشابيه فكان كثيرٌ من أهل الأدب والشعر فى القرون الماضية يفضّلونه على سائر الشعراء واختصر القاضى أبو بكر الباقِلّانىّ [2] حُكمَهم فيه هكذا [3] : « وأنت لا تشكُّ فى جَوْدة شعر امرئ القيس ولا ترتاب فى براعته ولا تتوقّف فى فصاحته وتعلمِ أنّه قد أبدع فى طرق الشعر أمورًا اتبِعَ فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتّصل بذلك من البديع الذى أبدعه والتشبيه الذى أحدثه والتمليح الذى يوجد فى شعره والتصرُّفِ الكثير الذى تُصادِفهُ فى قوله ، والوجوهِ التى ينقسم إليها كلامهُ من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقّة وأسبابٍ تُحْمَد وأمورٍ تؤْثَر وتُمْدَح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ » . إلاّ أنّ القاضى الباقلانىّ يقول بوجود ما يُعاب أيضاً فى شعر امرئ القيس فيوضح ما يزعمه عَوارًا فى

---

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٢) توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م .

(٣) إعجاز القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥ .

معلّقته بالتفصيل المفرط[1] وربّما عدَل عن الإنصاف فى أقواله لأنّ غرض كتابه إنّما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبُه من فحول الشعراء وعلى أنّ[2] «طريقة الشعر شريعةٌ موروودة ومنزلة مشهودة يأخذُ منها أصحابُها على مقادير أسبابها ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدّم معنى قد طمّسه المتأخّر بما أبرّ عليه فيه وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدّم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا إليه فهما فيه شريكا عَنانٍ وكأنّهما فيه رضيعا لِبان» . أمّا معلّقة امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب فى الكلام عليها فى هذه النبذة الإجمالية الوجيزة .

ثمّ الذى يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلّقات على الترتيب التاريخى هو الحارث بن حِلّزة اليَشْكُرىّ البَكْرىّ الذى ألّف قصيدته المشهورة فى أيّام عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ – ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولارتجالاً بين يديه كما يقوله خطأً أكثر كتبة العرب . وغرضها سياسىّ أعنى حثّ بنى بَكْر ابن وائل وبنى تَغْلِب بن وائل على ترك التشاكى الباطل لئلّا تعود تضرم جَذْوَةُ العَداوة والحرب بينهما ولا يُنْقَض الصُّلْح المنعقد عند المنذر بن ماء السماء[3] ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ – ٥٥٤م) بعد الحرب الطويلة الشهيرة بحرب البَسُوس . وبعد الحارث بمدّة غير مديدة ألّف عمرو بن كُلْثوم التَغْلَبىّ[4] معلّقته التى تشير أيضاً إلى ما كان قديماً بين حيّىْ بكر وتغلب من

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ – ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥م .

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦ .

(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع فى هذه المسألة ما كتب المستشرق NOELDEKE فى كتابه *Fünf Mo 'allaqât*, I., Wien 1899, P. 54).

(٤) [طبع ديوانا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم فى مجلة المشرق ص ٥٩١ – ٦١١ من السنة العشرين ١٩٢٢] .

العَداوة . ويُنْذِر فيها الشاعر بل يرغّب عمرَو بن هند الملك لميله إلى بكر ويوعِد البكريّين وُثوبَ بنى تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض . وهى قصيدةٌ غايةٌ فى الفخر لا تكاد تفوق فيه عليها غيرُها فلا عَجَبَ أنَّ بنى تغلب لم تزلْ تعظِّمها جدًّا يرويها صغارُها وكبارها فى القرن التالى لظهور الإسلام حتّى قال بعض الشعراء يهجوهم [1] :

أَلْهَى بنى تغلبٍ عن كلّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يُفاخِرون بها مُذْ كان أوّلُهُمْ يا لَلرِّجالِ لفخرٍ غير مسْؤُومِ

وممّا تنفرد به معلّقتا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهليّة أنَّ مُعْظَمَها يدور على الموضوع الأساسىّ فلا تبقى فيهما للغزَل والوصف وسائر لواحق القصائد إلاّ أبيات قليلة جدًّا . ثم تَتشابَهان أيضاً خلافاً للمعلّقات الأخرى لأن صاحبَيْهما كأنّهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعاً وهما يخاطبان مَلِكاً ذا شأن عظيم ولا يدخُلان فى أمورهما أو أحوالهما الشخصيّة ما عدا النسيب الذى تبتدئ القصيدتان به .

وفى السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنترةُ بن شدّاد العَبْسىّ معلّقتَهُ فى الفخر والحماسة وصف فيها فَضْله وأفعالَهُ المجيدة فى الحرب وبَسالتَهُ فى القِتال وقدْر ما أهان هائلَ الأخطار والموت . كيف لا وهو من أشجع العرب وأعلاهم همّةً وأعزّهم نفساً ضُرب به الأمثالُ واتُّخِذَ كأنموذج الفتى الكاملِ المروءةِ والشّجاعة فلم يزلْ صيتُهُ يَطير فى كلّ الأنحاء لما أُلّف فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوامّ حتّى الآن المعروفة بسيرة عنترة . وديوان أشعاره أيضاً كلّه فخر وحماسة مع العَرْض

[1] كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ من طبعة ليدن ، والبيتان مرويان أيضاً فى الأغانى ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنجن سنة ١٨٥٤ .

فيه عن توحّش الشنفرى وعن كلّ تنافُر الألفاظ وخُشونة المعانى .

ونحو سنة ستّمائة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زُهَيْر ابن أبى سُلْمَى المُزَنىّ معلّقته يمدح فيها هَرِم بن سنان والحارث بن عَوْف من سَرَوات العرب اللذَيْن بتحمّلهما أعباء الدية أزالا الحرب[1] وأتمّا الصلح بين قبيلتَىْ عَبْس وذُبْيان ، ويحُثّ الناس على الخير والمحبّة . وهذه المعلّقة تختلف عن المعلّقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن النصائح والحِكَم تَجَنَّبَ زهيرٌ فيها وفى سائر أشعاره عن الوحشيّة والفخر . فأحسنُ ما قيل فيه أنّه لم يمدَحْ أحدًا إلاّ بما فيه . قال أبو منصور الثعالبىّ المتوفّى سنة $\frac{٤٣٠}{١٠٣٨}$ فى كتاب خاصّ الخاصّ[2] : « إنّه أجمعُ الشعراء للكثير من المعانى فى القليل من الألفاظ وأبياته التى فى آخر قصيدته التى أوّلها * أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنة لم تَكَلَّمِ * تُشْبِه كلامَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهى غُرّة حِكَم العرب ونهاية فى الحُسْن والجَوْدة تجرى مجرى الأمثال الرائعة الرائقة وهى[3] :

وَمَنْ يكُ ذا فضلٍ فيَبْخَلْ بفضله ... على قومهِ يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

ومن يغترِبْ يَحْسِبْ عدوًّا صديقَهُ ... ومن لا يكرِّمْ نفسَهُ لا يُكرَّمِ

ومن لا يذُدْ عن حَوْضهِ بِسلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومن لا يَظلِم النّاسَ يُظْلَمِ

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ ... ولو خالَها تَخفَى على الناسِ تُعْلَمِ

ومَنْ لا يُصانعْ فى أمورٍ كثيرةٍ ... يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ

فترون من كلّ ما تقدّم كم فرق بين أكثر أشعار زهير وبين أكثر أشعار

(١) يعنى الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٢) كتاب خاص الخاص ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإعجاز والإيجاز ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبى الأبيات فى كتابه المذكور فليراجع معلقة زهير .

السابقين له كأنَّ زهيراً أحسَّ بتقرُّب عهد جديد أعنى عهد الإسلام الذى بُدِلَ فيه التوحُّش والجهلُ القديم بتهذيب الأخلاق والحِلْم . — وممَّن اتَّبع من هذه الجهة طريقة زهير ونظم فى شعره درر المواعظ والحِكَمَ والتأمُّل لبيد ابن ربيعة العامرى الذى أدرك الإسلام إلاَّ أنَّه لم يقُلْ فى عهده إلاَّ بيتاً واحداً اختلفت الرواة فيه . ومات على القول المرجّح سنة ٤١ / ٦٦١ـ٦٦٢ وهو كبير السنّ وألَّف معلَّقته بين سنة ٦١٠ و ٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعها وجد فيها الفخر بيد أنَّ هذا الافتخار ليس بالشجاعة والأفعال الحربيَّة مثل ما ورد فى معلَّقة عنترة بل إنَّما هو بالمكرُمات ومكارم الأخلاق ، ومن المشهور ما فى ديوانه من العبارات الدينيَّة بل الشبيهة بالعقائد الإسلامية مثل[1] (من بحر الرمل) .

إنَّ تقوى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ　　وبإذن الله رَيْثى وعَجَلْ

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ له　　بيديه الخيرُ ما شاء فَعَلْ

مَنْ هداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى　　ناعمَ البال ومن شاء أَضَلّْ

ولكن ليس كلُّ ما يُنْسَب إليه فى ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل لا اختلاف فى بعض الأشعار أنَّها مصنوعة .

إنَّ أصحابَ المعلَّقات الستّ (أى ما عدا معلَّقة طرفة) أشعرُ الشعراء من الصنف الأوَّل مع أنَّ شعراء آخرين نبغوا فى عهدهم فى قبائل العرب فوصلت إلينا جملةٌ من مآثرهم . منهم عُرْوة بن الورد وهو عَبْسىّ مثل عنترة

---

(١) ديوان لبيد المطبوع بليدن سنة ١٨٩١ عدد ٣٩ بيت ١ — ٣ .

(٢) ديوان عروة بن الورد المطبوع بغوتنجن سنة ١٨٦٣ عدد ٣ بيت ١٣ — ٢١ . والأبيات مروية أيضاً فى الأصمعيات عدد ٣١ (ص ٢٩ — ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وحماسة أبى تمام ص ٢٠٨ — ٢٠٩ من طبعة بن (أو ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٤ — ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . — ومما يدلّ على كراهة العرب للعمل اليدوى بيت جرير فى ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٣ [ج ١ ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

ومات قُبَيْل الإسلام . واشتهر مثل عنترة بالشجاعة والفضل ، ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحُرّ الباسل وذمّ الذى يُسْتَأْجَرُ شغلُهُ[٢] :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصافِي المُشاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغنَى مِنْ دَهْره كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاها مِنْ صَديقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طاوِياً يَحُتُّ الحصى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ
قَليلَ ٱلتِماسِ الزّادِ إلاّ لِنَفْسِهِ إذَا هُوَ أَمْسَى كالعَرِيشِ المُجَوَّرِ
يُعِينُ نِساءَ الحَيِّ مَا يَسْتَعِنَّهُ فيُمْسِى طَليحاً كالبَعيرِ المُحَسَّرِ
وَلٰكِنَّ صُعلوكاً صحيفةُ وَجْهِه كَضَوْءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلاًّ على أعْدَائِه يَزْجُــرونَهُ بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
فإنْ بَعُدوا لا يَأْمَنونَ ٱقتِرابَهُ تَشَوُّفَ أهلِ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فذلكَ إن يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَها حَميدًا وإن يَسْتَغْنِ يَوْماً فأَجْدِرِ

ومن الشعراء المجيدين حاتم بن عبد الله الطائىّ المضروب المثل بجُوده الوافر. فقيل إنَّ بنته وصفتْهُ بين يدى النبىّ على هذه الصفة : « كان أبى يفُكُّ العانِىَ ويَحْمى الذّمار ويَقْرِى الضيف ويُشبِع الجائع ويُفرِّج عن المكروب ويُطْعِم الطعام ويُفْشِى السلام ولم يرُدّ طالبَ حاجةٍ قَطُّ.[١] » . وقال ابن الأعرابىّ إنّه « كانَ جَوَادًا يُشْبِه شعرُه جُودَهُ ويصدّق قولَه فعلُهُ .... إذا غنِم أنهب وإذا سُئِل وهَب . . وإذا أَسَر أطلق[٢] » . عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلاّ أنّ فى صحّة بعض أشعاره نظرًا فظاهر أنّ أبياتاً مجهولاً اسمُ مُنْشِدها إنما عُزِيت إلى حاتم لما فيها من مدح الجُود والكَرَم .

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ — ٩٨ من طبعة بولاق .

وممّن كان بعد منتصف القرن السادس الأَفْوَه الأَوْدى سيّد قومه وقائدهم فى حروبهم عدّه العرب من حكمائها لما ورد من الحِكَم فى أبياته منها [1] (من بحر البسيط):

لا يصلُح الناسُ فَوْضَى لاسَراةَ لهم ولا سراةَ إذا جُهّالهمْ سادوا
والبيتُ لا يُبْتَنَى إلّا له عُمُدٌ ولا عِمَاد إذا لم تُرْسَ أوتادُ
وأن تَجَمّعَ أوتادٌ وأعْمِدةٌ يوماً فقد بلغوا الأَمرَ الذى كادوا

وممّن كان وفاتُهُ قبل الإسلام بقليل ذو الإِصْبَع العَدْوانىّ صاحب الغارات الكثيرة والوقائع المشهورة والحِكَم والوصايا. ومنهم سَلامة بن جَنْدَل التميمىّ من فرسان العرب الذى يروى عنه ديوان صغير[2] أكثره فى الحماسة والفخر مع شىء جميل من الوصف والتشبيه.

وممّن أدرك الإسلام مع وقوع جميع شعره فى الجاهلية دُرَيْد بن الصِّمَّة الجُشَمىّ أحد الشُّجْعان المشهورين وذوى الرأى الذى شهد يوم حُنَيْن سنة $\frac{٨}{٦٢٩-٦٣٠}$ فقُتِل فيه (وهو كبير السنّ جدًّا) فيمن قُتِل من الوثنيّين. ومنهم أيضاً شعراء غير المذكورين لا فائدة فى سَرْد أسمائهم فى هذه النبذة.

وقبل أن نختم الكلام على هذا الصنف الأوّل من شعراء الجاهليّة لا بدّ من الإشارة إلى جَرْى النساء أيضاً من أهل البادية فى ميدان الشعر لا سيّما فى المراثى فإنّهنّ استنبطن فى هذا الباب أساليبَ بديعة لم يتنبّهْ لها الفحولُ

---

(١) الأبيات مروية فى العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢. وروى القالى فى أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٢ ص ٢٢٤ – ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]). [أما ديوان الأفوه فهو مطبوع فى كتاب الطرائف الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧].

(٢) – [عنى بطبعه المستشرق Huart فى المجلة الفرنسية *Journal Asiatique*, série X, vol. 15, 1910, P. 71-105 والأب لويس شيخو فى بيروت سنة ١٩٢١].

لِمَا طُبِعْنَ عليه من رِقّة الطِباع وشدّة الجَزَع فى المصائب وصدْق الحِسّ فيُبْرِزن عواطفَهُنّ بشعر سلِس وكلام ليّن قريب المأخذ يكاد يسيل رقّةً وانسجاماً [١] » . فتعلمون أنّ الأب لويس شَيْخو أفرد لهنّ كتاباً جمع فيه كلَّ ما تيسّر له من مراثى إحدى وستّين شاعرةً من عهد الجاهليّة ما عدا ديوان الخنساء الذى نشره على حِدة [٢] . أمّا أشعار الخنساء فى رثاء أخوَيْها صخر ومعاوية فشهيرة قالتها جميعها قبل الإسلام مع أنّها أدركت خلافة عمر [٣].

٢ ــ فلننتقل إلى الصنف الثانى من شعراء الجاهليّة أعنى إلى الشعراء الوثنيين الذين لازموا أبواب ملوك الحيرة وغسّان ومدحوهم وامتنعوا عن خشونة أهل البادية لتقرّبهم من أحوال سكّان المدن والرفاهِيَة والترَف . فمدْحُهُمْ للملوك ليس كمدح شعراء الصنف الأوّل لسادة قومهم لما أدخلوا فيه من إفراط المَلَق وافتخارهم بالحماسة ليس إلّا قليلاً ووصفُهم يجرى أحياناً فى مجال مختلف عن مجال وصف أهل البرارى ، والغَزَل وذكر الخمر فى قصائدهم يتّبعان مذهب أهل المدن . وربّما أخذوا عن نصارى الحيرة وغسّان معانى وعبارات دينيّة جديدة لم يسْبق إليها أحد شعراء الصنف الأوّل .

لكان زهَيْر بن جَناب الكلْبيّ من أقدم شعراء الصنف الثانى لو صحّت قطعة شعر منسوبة إليه وردت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج علىٌ الأصفهانىّ [٤]

---

(١) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب للأب لويس شيخو ص ١ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٧ .

(٢) ببيروت سنة ١٨٨٦ وطبع أيضاً ديوان الخنساء فى بيروت سنة ١٨٨٨ و ١٨٨٩ (ويليه الترجمة الفرنسية) وفى مصر سنة ١٨٨٨ و ١٣٢٦ [و ١٣٤٨] .

(٣) وفى الخنساء راجع G. GABRIELI, *I tempi la vita eil canzoniere della poetessa araba al-Khansa'* Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansà und ihre Trauerlieder*, Wien 1904.

(٤) الأغانى ج ٢١ (المطبوع بليدن سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م) ص ١٠٠ .

وفى كتاب المعمّرين لأبى حاتم السجستانىّ[1] المتوفّى فيما بين سنتى ٢٥٠ و ٢٥٥ وفى عدّة كتب أخرى :

لقدْ عُمّرتُ حتى لا أبالى ... أحَتْفى فى صَباحى أو مَسائى
وحُقَّ لمن أتتْ مائتانِ عاماً ... عليه أن يمَلّ من الثّواء
شهدتُ الموقِدين على خَزَازَى ... وبالسُّلاَّنِ جمعاً ذا زُهاء
ونادمتُ الملوكَ من آل عمرو ... وبعدهمُ بنى ماء السّماء

والمراد بآل عمرو على المحتمل ملوك كِنْدة أى بنى عمرو بن حُجْر والمرادُ ببنى ماء السماء المنذر بن ماء السماء الذى تولّى مُلْك الحيرة من سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م إلى شهر يونيو سنة ٥٠٤ م . ولكن مع قطع النظر عمّا فى صحة تلك الأبيات من الشكّ لا نجدُ فيما نُقل إلينا من أشعاره وأخباره شيئاً غير هذه الأبيات يدلّ على ملازمته ملوك الحيرة بل إنّ شعره شعرٌ بدوىٌّ محض كما يصلُح لمن قيل إنّه «كان سيّد بنى كَلْب وقائدَهم فى حروبهم وكان شُجاعاً مظفّرًا ميمون النقيبة فى غزواته»[2] .

فأوّل من نتحقّق ملازمته ملوك الحيرة من الشعراء الوثنيّين عَبِيد بن الأبرص الأسَدىّ مجالس المنذر بن ماء السماء السابق ذكره . وشعره سلِس اللفظ ووصفه مصيب وهو يفتخر أحياناً على منوال أهل البادية فلمّا قُتل والد امرئ القيس الشاعر بيد بنى أسد ورثاه امرؤ القيس وقال إنّه يأخذ ثأر أبيه بقتل جُمّة من الأسديين أنشد عبيد فى قصيدة طويلة[3] :

---

(١) كتاب المعمرين ص ٢٦ — ٢٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . أما خزازى والسلان فهما من أيام العرب قبل حرب البسوس بقليل أى فى أواخر القرن الخامس للميلاد .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٩٣ — ٩٤ . [وفى صحة شعر زهير بن جناب نظر فليراجع ما قال الأب Lammens فى كتابه المسمى *Le berceau de l'Islam*, Roma 1914, P. 319-321]

(٣) رويت الأبيات فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٤٣—١٤٤ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والأغانى ج ١٩ ص٨٥ من طبعة بولاق [وديوان عبيد قصيدة عدد ١٧ بيت ١ إلى ٧ من طبعة ليدن ١٩١٣].

يا ذا المُخوِّفُنا بقتْـ ل أبيه إذلالاً وحَيْنَا

أزَعَمْتَ أنّك قد قتَلْـ تَ سَرَاتَنا كَذِباً ومَيْنَا

هلّا على حُجْر بن أُ مٍّ قطامِ تبكى لا علينا

إنّا إذا عضّ الثِقا فُ برأس صَعْدتنا لَوَيْنا

نحمى حقيقتَنا وبَعْـ ضُ القوم يسقُط بَيْنَ بَيْنا

هلّا سألتَ جُموعَ كِنْـ دةَ يوم ولَّوْا أيْن أيْنَا

أيّامَ نضربُ هامَهُمْ ببواترٍ حتّى انحنَيْنا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يجرى فى الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعْظَم قصيدته البائيّة الشهيرة التى عدّها بعضُ اللغويّين من المعلّقات. وفيها أيضاً من الوصف ما يدلُّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وتُرَعِهِ القريبة من الحيرة حين قال فى الدموع [1] :

أو فَلَجٍ ببطن وادٍ للماء من تحته قَسيب

أو جَدْوَل فى ظِلال نخلٍ للماء من تحته سُكوب

فظاهر أنّ هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسّطة التى ليس فيها أنهار . وعبيدٌ أمر الملكُ المنذر بن ماء السماء بقتله فى حكاية مشهورة يطول ذكرها هنا [2] .

وممّن جالس عمرو بن هند (٥٥٤ – ٥٦٨ أو ٥٦٩) طَرَفة بن العبد أحد أصحاب المعلّقات السبع وأقلّهم عُمْرًا لأنّه قُتل بأمر الملك وهو ابن ستٍّ وعشرين سنةً . وهو يفتخر فى شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشّجاعة

---

(١) كتاب شرح القصائد العشر . . . تصنيف أبى زكرياء . . . التبريزى طبعة كلكتة سنة ١٨٩٢ – ١٨٩٣ بيت ٩ و ١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و ١٠] .

(٢) [راجع فى عبيد مقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المسماة *La poesia di 'Abīd Ibn al-Abraṣ* *Rendiconti dell' Accademia d'Italia*, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma 1940, P. 240-251.]

والحماسة ويعتبر زوال كلّ أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنّه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوبَ الزهد فإنّما يقصد لذّات العيْش . وفى معلّقته أبيات تدلّ على قربه من الفرات والبحر (من الطويل) [١] :

كأنَّ حُدوجَ المالكيّة غُدْوةً خَلايا سَفين بالنواصف من دَدِ

عَدَوْليّةٍ أو من سفين بن يامِنٍ يجورُ بها الملاّحُ طوْرًا ويهتدى

يشُقُّ حَبابَ الماء حَيْزومُها بها كما قَسَم التُّرْبَ المُفائِلُ باليَدِ

وفى نفس معلّقته عند وصف ناقته قال[٢] :

وأتْلَعُ نهّاضٌ إذا صعدت به كسُكّانِ بوصيٍّ بدجلَة مُصْعِدِ

ومن حاملى لواء الشعر أيضاً المتلمّس خالُ طرفة وحكايته مع الملك عمرو ابن هند أشهر من أن أذكرها . وعاصره أوس بن حَجَر التميميّ الذى قال فيه أبو عمرو بن العلاء [٣] : «كان أوسٌ فحلَ مُضَر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه» . وقال أبو ذؤيْب : «وكان أوس عاقلاً فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفِهِمْ للحُمُر ولا سيّما للقوس وسبَق إلى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة» . وإذا اطّلعنا على ما نُقل إلينا من شعره وجدناه غير بعيد من أسلوب شعراء الصنف الأوّل المعاصرين له مع تقرُّبه من الملوك والمدن . ومن الجدير بالذكر أنّه ربّما استعمل فى أبياته عبارات أقربَ لدين النصارى منها لمذاهب الوثنيّين ثمّ إنّ زُهير بن أبى سُلْمَى كان راويَ شعره .

ولكن الذى فاز فى قريضه بالرُّتْبة العُلْيا من شعراء ملوك الحيرة وغسّان وكان من أبرز المبرّزين فى ميدان الشعر هو النابغة الذُّبيانيّ فقدّمه بعض

---

(١) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥ .

(٢) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة الليدنية .

أهل الأدب والشعر على امرئ القيس[١] وقالوا إنّه أوضح الشعراء القدماء معنًى وأبعدُهم غاية وأكثرهم فائدة[٢] . وقيل أيضاً إنّه « أحسنُهم[٣] ديباجةَ شعر وأكثرهم رَوْنَق كلام وأجزلهم بيتًا كان شعره كلاماً ليس فيه تكلُّف ونبغ بعد ما احتنك وهلك قبل أن يُهْتَرَ » . — كان مع المنذر بن ماء السماء (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ — ٥٨٠ م) وأبى قابوس النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ — ٦٠٢ م) فلمّا وُشِىَ به إلى النعمان هرَب منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسّان فى الشام ومدحه بقصائد مشهورة ذكر فيها شجاعةَ الغسّانيّين فى الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء[٤] :

إذا ما غزوْا بالجيش حَلَّقَ فوقَهمْ عصائبُ طيرٍ تَهتدى بعصائبِ
.... فهم يتساقون المنيّةَ بينهمْ بأيديهمُ بِيضٌ رِقاقُ المضاربِ

ووصف فيها أيضاً ما كان لهم من التَّرف والرَّفْه[٥] :

مَحلَّتُهُمْ ذاتُ الإلهِ ودينُهُم قَويمٌ فما يَرْجونَ غيْرَ العَواقِبِ
رِقاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يَوْمَ السَّباسِبِ
تُحَيِّيهمُ بِيضُ الوَلائِدِ بَيْنَهُمْ وأكْسِيَةِ الإضْريجِ فَوْقَ المشاجِبِ
يَصونونَ أجْسادًا قَديماً نَعيمُها بِخالِصَةِ الأرْدانِ خُضْرِ المَناكِبِ

---

(١) [راجع أيضاً كتاب فحولة الشعراء للأصمعى المطبوع فى *Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen Gesellschaft*, LXV, 1911, P. 492.]

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ — ١٣١٠ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة ليدن . — واحتنك : أحكته التجارب أى جعلته حكيماً . واهتر : فقد عقله من الكبر والمرض .

(٤) ديوان النابغة الذبيانى عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Divans of the six Arabic poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله فى هذه الطبعة الأستاذ نلينو فى *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, P. 174-176] .

(٥) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ أبيات ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس ١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

ولا يَحْسِبون الخَيْرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ ولا يَحسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ
حَبَوْتُ بها غَسّانَ إذ كُنْتُ لاحِقًا بِقَوْمى وَإِذْ أَعْيَتْ عَلَىَّ مَذاهِبِى

فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من البون الشاسع .
وبعد إقامة سنين عند بنى غسّان رجَع إلى الحيرة وجالس الملك النعمان ثانيةً إلى موت الملك سنة ٦٠٢ م ثم عاش فى قبيلة ذبيان ومات قبل ظهور الإسلام . ووصف بديع الزمان الهَمَذانىّ فى مقالته الأُولى [١] شعر النابغة فقال : «ينسِبُ إذا عشِق ويثلِب إذا حنِق ويمدَح إذا رغِب ويعتذِر إذا رهِب» . وقال الأصمعىّ : [٢] «كفاك من الشعراء أربعة زهير إذا طرب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضِب وعنترة إذا كلِب» — أمّا ما يُلام النابغة عليه فإنّه أوّل فحول الشعراء لم يقُل الشعر إلاّ طَمَعًا فى الكسب . قال ابن رشيق القيروانىّ المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب العمدة[٣] : «كانت العرب لا تتكسّب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهةً أو مكافأةً عن يدٍ لا يستطيع على أداء حقّها إلاّ بالشكر إعظاماً لها . . . حتى نشأ النابغة الذبيانىّ فمدح الملوكَ وقبِل الصلة على الشعر وخَضَع للنعمان بن المنذر وكان قادرًا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسّان فسقطت منزلتُهُ وتكسّب مالاً جسيما حتى كان أكلُهُ وشربه فى صِحاف الذهب والفضّة وأوانيه من عطاء الملوك . وتكسّب زهير بن أبى سُلْمَى بالشعر يسيرًا مع هَرِم بن سنان . فلمّا جاء الأعشى جعل الشعر متجرًا يتجرُ به نحو البلدان» .

والأعشى هذا هو ميمون بن قيس من شعراء الصنف الثانى أيضاً المشهور

---

(١) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والمزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .
(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

برقّة شعره لفظاً وتفنّنه بحراً ، نادم ملوك الحيرة . وكثُر شعره فى وصف القِيان والخمر كأنّه من شعراء عصر العباسيّين الأوّل فى زمان هارون الرشيد . وفى أبياته أيضاً أقوالٌ تتقرّب من اعتقادات النصارى فجاء فى ذلك فى كتاب الأغانى[1] ، ما نصّه : « قال لى يحيى بن متّى راوية الأعشى وكان نصرانيًّا عِباديًّا وكان معمّرًا قال كان الأعشى قَدَريًّا وكان لبيد مثبتاً قال لبيد :

من هداه سُبُلُ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضَلّ

وقال الأعشى :

إستأْثَرَ الله بالوفاء وبالـ ـعَدل وولّى الملامةَ الرجُلا[2]

قلت فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قِبَل العِباديّين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقّنوه ذلك » . — وأدرك الأعشى الإسلام فقصيدته الجميلة التى مدح فيها النبيّ مشهورة .

ممّن يدخل جزئيًّا فى الصنف الثانى من شعراء الجاهليّة لملازمته ملوكَ بنى غسان مدّة سنين وذلك قبل الهجرة النبويّة هو حسّان بن ثابت المولود بيَثْرِب (المدينة) المتوفّى سنة ٥٤ بعدما طعَن فى السنّ . فإنّ أجمل شعره ما قاله فى الجاهليّة واصفًا ملاذّ عيشته فى جِلّق وغيرها من قرى الشام ومادحًا الملوك الغسّانيّين الذين كان يفِدُ عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز . ففى كتاب الشعر والشعراء لابن قتَيْبة المتوفّى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نَصّه[3] : « قال الأصْمعيّ الشعرُ نَكِدٌ بابُهُ الشرُّ فإذا دخل فى الخير ضعُف . هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام سقط شعره .

---

(١) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به وخص به — ولى : جعله والياً عليه .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

وقال مرّةً أخرى شعرُ حسّان فى الجاهليّة من أجود الشعر فقُطع متنُهُ فى الإسلام لحال النبيّ صلعم »[1]. ومن جيّد شعره وأشهره قصيدة أوّلها « أسأَلت رسْمَ الدارأمْ لَمْ تسألِ »[2] مدح فيها ملوك بنى غسّان ووصف لذيذ عيشه فى الشام وافتخر بعشيرته من الخَزْرَج . وهى لينة الألفاظ. أسهلُ فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأوّل بكثير وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المَدَر المتمتّعين بأنواع الترَف والرفاهية ثم إن إطناب الشاعر فى وصف الخمر يبعد عن أُسلوب شعراء أهل البادية كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور فى بلاغة خُطَّابهم ووَفْدهم على أبواب الملوك . — أمّا أشعار حسّان فى عهد الإسلام فهى على نَمَط غير هذا فَسيأتى الكلامُ عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣ — وهذا أوان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهلىّ أعنى شعر النصارى المقيمين فى مملكة اللخميّين بالحيرة وما يليها وفى مملكة بنى غسّان فيما بين الشام والبادية . — لا يخفى عليكم أنّ الأب لويس شيخو بما له من اليد الطولى فى الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م فى بيروت القسم الأوّل من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة وهو عبارة عن مجلد ضخم جمع فيه من عدّة كتب جملةً وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أنّ أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى. ولكنّه بالغ فى ظنّه هذا أىّ مبالغة كأنّه زعم نصرانياً كلّ شاعر جاهلىّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد فى شعره شىء ممّا يتقرّب

---

(١) وهذا الحكم الذى أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبى منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ فى كتاب خاص الخاص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦ / ١٩٠٨ « من عجائب أمر حسان أنه كان رضى الله عنه يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جداً ويغبر فى نواصى الفحول ويدعى أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء فى ذلك . . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب فى طريقه من الملك » . [وراجع كتاب الموشح للمرزبانى ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٤٣] .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة بمبىء سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ — ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ — ١٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٣٠٧ — ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

من اعتقاد وحدانية الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينيّة فعدّ من النصارى امرأ القيس والنابغة وطرفة ، وغيرَهم من شعراء الصنف الأوّل والثانى الذين لا شكّ لكلّ مُنصِف فى أنّهم من أصحاب الوثنيّة . أمّا المؤكّد المُثبَت فإنّما هو أنّ دين النصرانيّة ذاع فى القرن السابق للهجرة فى شمالىّ جزيرة العرب[1] فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقِسم غير صغير من بنى تميم فضلاً عن أكثر المقيمين بمملكة بنى غسان وأكثر سكّان مدينة الحيرة وسُميت نصارى الحيرة بالعِباد[2] ولعلّ المقصودَ عباد الله أو عباد المسيح ، ونصرانيّتهم (وهى على مذهب النّسْطُوريّة) قديمة لأنّنا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من سنة ٤٠٠ م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤ م . — ومن أقدم شعراء النصارى الذين وصل إلينا شىء من أشعارهم أبو دُؤاد الإيادىّ قد ولاه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) على خيله « فكان وصّافاً للخيل وأكثر أشعاره فى وصفه ؛ وله فى غير وصفه تصرّف بين مدح وفخر وغير ذلك إلاّ أنّ شعره فى وصف الفرس أكثر »[3] . ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات ، وبُعد شعره عن أساليب عرب البادية . — وأشهر منه عَدِىّ بن زيد العبادىّ[4] من عائلة قديمة بالحيرة تعلّم الفارسيّة وتولّى الأمور العربيّة بديوان كسرى

---

(١) [انظر ما قاله فى هذا الموضوع الأستاذ نلينو فى ج ٣ ص ١٢١ — ١٦٨ من كتابه *Raccolta di scritti editi e inediti*, Roma 1941] .

(٢) راجع **G. ROTHSTEIN**, *Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira*, Berlin 1899, P. 19-28

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق — أما أبيات له فهى مروية فى حماسة البحترى ص ١٣١ من طبعة ليدن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر السلف من الناس) والأصمعيات عدد ٢٩ ص ٢٧ — ٢٨ (١٥ بيتاً فى الطرد) وعدد ٧٢ ص ٦٨ — ٧٠ (٤٠ بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٢٢ — ١٣٢٥ .

(٤) راجع : **J. HOROVITZ**, *'Adi ibn Zaid the poet of al-Hirah* (*Islamic Culture*, P. 31-69); **F. GABRIELI**, *'Adi ibn Zaid il poeta di al-Hirah* (*Rendiconti Accademia dei Lincei* classe scieze morali, VIII serie, *sreie*, vol. III, 1948, P. 81-96).

أبَرْويز (٥٩٠ – ٦٢٨م) من ملوك بنى ساسان بالمدائن فأرسله مرّة كسرى إلى ملك الروم بهديّة من طَرَفه ثمّ استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ – ٦٠٢م) من المدائن إلى الحيرة وولاّه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وشَتْ إليه به الحُسّاد . وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأسهل فهماً فلذلك لم يعُدّه علماءُ اللغة العربيّة من الفحول «وكان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان : عدىّ بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم[1] يعارضها ولا يجرى معها مجراها»[2] . وعلى قول الأصمعىّ «كانت الرواة لا تروى شعر أبى دؤاد ولا عدىّ بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء»[3] أو كما قيل «لأنّ ألفاظه ليست بنجديّة»[4] . والحقُّ يقال إنّ الجواليقىّ المتوفى سنة ٥٣٩ كثيرًا ما روى أبياتاً لعدىّ بن زيد فى كتاب المعرّب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الأراميّة والفارسيّة فى كلام عدىّ ومعانى شعره. وهو يخالف أيضاً شعراء نَجْد فى استنكافه من الأعاريض الطويلة واختياره القصيرة ثمّ فى أسلوب خمريّاته الشبيهة بخمريّات الأعشى وحسّان بن ثابت . ومن المشهور أنّ الخليفتين الأمويّين هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ – ١٢٥/٧٤٣) والوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ – ١٢٦/٧٤٤) كانا يُحبّان سماع شعر عدىّ بن زيد فى الشراب[5] . ولكن مع حبّه لوصف القيان والصهباء كعين الديك والصَّبوح حمله دينه مرارًا عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلّها ، وذكر ما هو قريب من الزهد فى بعض قصائد لطيفة قلّدها غير مرّة المتأخّرون فقال مثلاً

---

(١) يعنى الكواكب السيارة .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ – ١٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٦٧ و ج ٦ ص ١٢٣ من طبعة بولاق .

بلسان حال المقابر[1] : (من بحر الرمل)

مَنْ رآنا فَلْيُحَدِّثْ نفسَهُ أنّهُ موفٍ على قَرْنِ زَوَالْ

وصروفُ الدهر لا يبقَى لها ولِما تأْتِى به صُمُّ الجبالْ

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالْ

وأباريقُ عليهـــا فُدُمٌ وجيادُ الخيلِ تَرْدِى فى الجِلالْ

عمَروا دهرًا بعيْشٍ حسنٍ أمِنَى دَهرِهِم غيرُ عِجالْ

ثم أضحَوْا عَصفَ الدهر بهم وكذاك الدهرُ يُودِى بالرجالْ

وكذاك الدهر يرمى بالفتى فى طِلابِ العَيْشِ حالاً بعد حالْ

فظاهر ما فى هذا الشعر من مشابهة زُهْدِيّات بعض الشعراء الإسلاميين لا سيّما أبى العتاهية فليس من البعيد أنّ شعر عدىّ بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخّرين فى وصف فناء الأُمور الدنيويّة وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره . ثمّ من الجدير بالذكر أنّ عدىّ بن زيد أحبّ فى زهديّاته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثُر إيرادُ أبياته كأنّها شواهد تاريخيّة فى كتب التاريخ مثل كتاب الطبرىّ المشهور . ومن هذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١م وهو فى الحبْس[2] : (من بحر الخفيف)

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٣٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً فى كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ — ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠ . — قرن : طرف . وردى الفرس : رجمت الأرض بحوافرها . وأودى به الموت : ذهب به . وفدم : جمع فدام المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه من شراب . وإبريق وفدام كلمتان فارسيتان معربتان وأصل الأولى آب ريز وأصل الثانية pandam . راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis inantiquis Arabum c rminibus* et in Corano Peregrinis, Lugduni Batavorum 1880, P. 3.

(٢) الأبيات مروية فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ — ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ — ٤٥٦ وحماسة البحترى عدد ٣٩٤ ص ١٢٩ — ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ — ٨٧ من طبعة بيروت . ضام يضيم : ظلمه وقهره . معرضاً : ممتداً أمامه . إمة : رخاء العيش . أما كسرى أنو شروان فكان ملك الفرس بين سنتى =

أيّها الشامتُ المُعيِّرُ بالدهـ ـرِ أأنت المبرّأُ الموفورُ
أمْ لديك العهدُ الوثيقُ من الأيّـ ـام بل أنت جاهلٌ مغـرور
منْ رأيت المنونَ خلّدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضامَ خفيرُ
أين كسرى كسرى الملوكِ أنوشر وان أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الـ ـروم لم يبْقَ منهمُ مذكور
وأخو الحَضْر إذ بناه وإذْ دِجْـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابور
شاده مرمرًا وجلّله كِلْـ ـساً فللطير في ذُراه وُكور
لم يَهَبْهُ ريْبُ المنون فباد الـ ـمُلْك عنه فبابه مهجور
وتذكَّرْ ربَّ الخوَرْنَق إذ شـ ـرّف يوماً وللْهُدَى تفكير
سرَّه مالُهُ وكثرةُ ما يَمْـ ـلِك والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدير
فارْعَوَى قلبُهُ فقال وما غِبْـ ـطة حَيٍّ إلى الممات يصير
ثُمَّ بعد الفلاح والمُلْك والإ مّةِ وارَتْهمُ هناك القبور
ثمّ صاروا كأنّهم وَرَقٌ جَـ ـفّ فألْوَتْ به الصَّبا والدبور

وخلاصة القول أنّ شعر العباديّين أصبح ذا تأثير لا يُنْكَر في المعاصرين المجاورين لهم من الوثنيّين مثل الأعشى وفي بعض المتأخّرين الإسلاميين لا سيّما في مجال الزهديّات والخمريّات .

٤ ــ يبقى عليّ أن أتكلّمَ بالإجمال في الصنف الرابع من شعراء الجاهليّة ، أي في شعراء أهل المدَر الذين لا يدخلون في الصنف الثاني والثالث فأقصِر قولي على اثنين منهم : قَيْس بن الخَطِيم وأُمَيّة بن أبي الصَّلْت .

= ٥٣١ – ٥٧٩ م . أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولى الأمر أولهم من سنة ٢٤١ إلى سنة ٢٧٢ م . والثاني من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . ويروى البحتري في حماسته عدد ٣٩٣ و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهي أيضاً من أبيات زيد .

وُلد قيس بن الخطيم الأوسىّ بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح فقُتل أبوه وهو صغير السنّ جدًّا فى حروب جرت بين الأوس والخَزْرَج فلمّا شبّ قيس وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أخذْ ثأر قتل والده ولم يزلْ يتربَّص بذلك فى المواسم حتَّى ظفِر بقاتل أبيه وقاتل جَدّه فقتلهما . فله فى ذلك قصيدة تقولون إنّها من نسج أهل البادية[1] : (من بحر الطويل)

طَعَنتُ ابنَ عَبْدِ القَيسِ طَعْنةَ ثائر ... لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها
مَلكتُ بها كَفِّى فأنْهَرتُ فَتقَها ... يَرَى قائمٌ مِن دونِها ما وراءها
يهُون عَلَىَّ أنْ تَرُدَّ جِراحُها ... عُيونَ الأَواسِى إذ حمِدتُ بَلاءها
كنتُ امْرأً لا أَسْمَعُ الدَّهر سُبَّةً ... أُسَبُّ بِها إلاَّ كَشَفْتُ غِطاءها
فإنِّى فى الحَرْبِ الضَّروسِ مُوَكَّلٌ ... بإقْدامِ نَفْسٍ ما أُريدُ بقَاءها
مَتَى يَأْتِ هذا المَوْتُ لاَ تُلْفَ حاجةٌ ... لِنَفْسى إلاَّ قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءها
ثأرتُ عَدِيًّا والخَطِيمَ فَلَمْ أُضِعْ ... وِلايةَ أَشْياخٍ جُعِلْتُ إزاءها

ولكنّه مدنىّ لا بدوى فى نوع التغزّل إذا قال القصائد المشهورة فى عَمْرة بنت رَوَاحة ، ومات قبل الهجرة بقليل .

أمّا أُمَيّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفىّ فهو من أهل الطائف كان فى الجاهليّة رغِب عن عبادة الأوْثان ويؤمن بالبَعْث وله أشعار مليحة حكى فيها قِصَص الأنبياء وأتى بألفاظ لم يعرفها العربُ أخذها من أهل الكتاب كما أخذ منهم أيضاً الأحاديث التى جاء بها فى شعره . ويكثِرُ فى أبياته ذكرُ الله والاستدلالُ على وجوده وحكمته باعتبار عجائب المخلوقات ووصفُ رحمته تعالى وعدد

---

[1] (١) حماسة أبى تمام ص ٨٥ – ٨٧ من طبعة بن أو ج ١ ص ٩٤ – ٩٧ من طبعة بولاق فراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه فى ديوانه ص ٣ – ٥ من طبعة ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalski (انظر فى ص ١ – ٦ الترجمة الألمانية والحواشى)] .

الأبيات المنسوبة إليه المتفرّقة فى كتب إسلاميّة شتّى يزيد على الأربعمائة إلاّ أن لا شكّ فى كون كثير منها مختلَقةً لا سيما المرويّة فى كتاب البدء والتاريخ لمطهّر بن طاهر المَقْدِسىّ من علماء القرن الرابع للهجرة فإنّها مملوءة عبارات وألفاظاً قرآنيّة . ومن المشهور أن أُميّة لم يُسْلِمْ بل رثى من قُتل من قريش فى وقعة بدر ومات فى السنة الثامنة للهجرة [1] . وإنى أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنّها معروفة .

قد اتّضح ممّا تقدّم أنّ الشعر الجاهلىّ مصدر أكثر فنون الشعر العربىّ فى عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والرثاء والهجاء والوصف والزهديّات والطرديّات والتشبيب والخمريات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروضاً حتّى لا يخفى أنّ الشعراء المتأخّرين لم يزيدوا على البحور القديمة إلاّ شيئاً قليلاً جدًّا . كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأنه دفتر عظيم قيّدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذى نشأ فى نَجْد ثمّ شاع فى سائر أنحاء جزيرة العرب الشماليّة لَمَا تهيّأت قبل الإسلام وحدةُ اللغة الأدبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم [2] . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهليّة بفضائل الشعر بعد الإسلام استصوبْنا قول ابن رَشِيق القيْرَوانىّ فى كتاب العُمْدة [3] : « إنّما مَثَل القدماء والمحْدَثين كمَثَل رجُلَيْن ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه ثم

(١) [اعتنى الدكتور Schlthess بجمع بقايا ديوان أمية (وهى ٥٠٠ بيت) وبنقلها إلى اللغة الألمانية وبطبعها فى ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie vol VIII, 3) ثم فى سنة ١٣٥٢هـ ١٩٣٤م طبع فى بيروت ديوان لأمية بن أبى الصلت يحتوى على ٣٠٠ بيت فاعتنى بجمعه بشير يموت . لا توجد فى طبعة ليبسك كل الأبيات المروية فى طبعة بيروت] .

(٢) [فى هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ نلينو « كيف نشأت اللغة العربية » فى مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ — ٤٨] .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلْفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خَشُن ».

٥ ــ تقدّمت لَمْحَة فى شعر عرب الجاهليّة فقبل الشروع فى الوصف الإجمالىّ للآداب بعد ظهور الإسلام يبقى علىّ أن أقول كلمة فى حال كلامهم المنثور . إنّى ذكرت فى أحد الدروس السابقة أنّ ابتداء الآداب عند كلّ أمّة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدمَ من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادىّ لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيًّا بالتعبير عن حُميًّا العواطف وشدّة الطّرَب ؛ أمّا الشعر فبانسجامه ووزنه يحرّك أهواء النفس ويُثير كامنَ حركاتها وهو ألذّ فى الأسماع وأشدّ وقعًا فى القلوب من الكلام المنثور لا سيّما إذا أُنشد على الغِناء وآلات الطرب كما كانت العادة فيه عند كلّ الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكُنّه القلبُ أو تتصوّرُهُ النفس بلا تفكّر وتعمّد . وبما أن القوّة الخياليّة عند كلّ أمّة غلبتْ أوّلاً على القوّة الفكريّة والنظرية ومال الإنسان إلى ما استحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر فى الأشياء لا عجب فى سبق الشعر لسائر الفنون الأدبيّة المستظرفة . أمّا الإنشاء المنمّق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد فلم ينشأ إلا وقتَ بلوغ الأمم درجةً أعلى فى سير ترقّيها فى المدنيّة والآداب . ثمّ لسبق الشعر سبب ثانٍ وهو أن الغرض من الشعر أو المنثور المستظرف ليس فقط إبرازَ العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليدها وتداولُها على ألْسِنة الناس . فإذا كانت صناعة الخطّ مجهولةً أو قلّ استعمالُها فلاسبيل إلى إبقاء المنثور وحِفْظِه من ورود التغيير والنَّقْص والزيادة فى ألفاظه وعبارته فبتغيُّر العبارة والألفاظ يضيع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبْقى إلاّ كلام ركيك معتاد لا يُعَد من المستظرَف ولا

تهش إليه الأسماعُ ولا ترتاح له القلوب . أما الكلام المقيَّد بالوزن والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبرًا على توالى الزمان وأخفُّ على ألسنة الرُّواة فيمكن أن يشيع فى الآفاق ذكرُهُ ويعظُمَ فى الناس خَطَرُهُ وإن لم يَحْظَ بالتخليد فى بطون الصُّحُف .

فلهذين السببين كان مُعْظَم براعة كلام العرب فى الشعر على كثرة ما كانوا يروونه فى أسمارهم ومواسمهم من الحكايات المتعلقة بأنسابهم وغزواتهم وأيّامهم (أى حروبهم ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التى كانوا يشرحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهى من قبيل ما يوجد فى كتاب جمهرة الأمثال لأبى هلال الحسن العسكرىّ المتوفّى سنة $\frac{٣٩٥}{١٠٠٥}$ وفى كتاب مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد المَيْدانىّ المتوفّى سنة $\frac{٥١٨}{١١٢٤}$. وربّما حفِظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تَدْمُر والفُرْس والروم والعبرانيّين كما يظهر من إشارات إليها وردت فى أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخُرافيّة قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلّها هى أساطير الأوّلين التى كان كفّارُ مكّة يشبّهون بها إنذارات القرآن وقصصه [1] . والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجميّة فى مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النَّضْر بن الحارث بن كَلَدَة الذى قتله النبىُّ صَبرًا بأُثَيْل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثمّ رجع إلى مكة وعلّم سكّانَها ضرْب العُود والغِناء فإذا جلس النبىُّ مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلُمُّوا إلىّ أحدّثكم أحسنَ من قِصَص محمّد ثمّ حدّثهم أحاديث ملوك الفُرْس وأخبار رُسْتَم وإسْفَنديار ويُلهيهم من القرآن

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و ٨ : ٣١ و ١٦ : ٢٤ و ٢٣ : ٨١ — ٨٣ و ٢٥ : ٤ — ٥ و ٢٧ : ٦٧ — ٦٨ و ٤٦ : ١٧ و ٦٨ : ١٥ و ٨٣ : ١٣ .

ومن ذكر الله ،ففيه نُزلت الآية(١) : «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . — وعند الكلام على آداب الجاهليّة بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أمم أجنبيّة اتخذها العرب وخصّصوها ببعض رجالهم المشهورين .

إلاّ أنّ أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعةَ أو التفكُّه فرَأى العربُ فيها المضمونَ ولم يَرَوْا وَشْى الكلام وحَلْى المعانى ودررَ الألفاظ . أمّا الذى قصدوا فيه رقّةَ الكلام وتنميقَ الإنشاء وغايةَ البلاغة فالحِكَمُ النثرية والخُطَب . ومن حِكَمهم لم يصل إلينا إلاّ شىء قليل جدًّا أغلبُهُ على صورة أمثال قصيرة فلا شكّ أنّها من قبيل وصايا لُقْمان المرويّةِ فى القرآن الشريف(٢) . — أمّا فنّ الخَطابة فله عند العرب مقامٌ عالٍ جدًّا فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يُحْمَد فيها خطيبٌ لملأنا بِضْع صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسىّ المبنىّ على الحرّيّة ونوعٍ من مجلس الشُّورَى(٣) فكان رجال كلّ قوم من أهل الوبر يباحثون أهمّ أمور القوم فى مجلسهم كما كان كِبارُ أهل مكّة يتفاوضون فيها فى دار النَّدْوة المنسوبِ تأسيسُها إلى قُصَىّ بن كلاب . فكان للخطيب البليغ شأنٌ عظيم . ومن الحرىّ بالذكر أنّ الألفاظ التى كان العرب يعبرون بها عن متولّى حُكْم قوم من أقوامهم أعنى السيِّد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيل فى أنحاء اليمن إذا بَحَثنا

---

(١) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ — ٧ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) ١٢ — ١٩ .

(٣) فى نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A. NALLINO *sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo. Raccolta di scritti editi e inediti* VOL. III, Roma 1941, P. 64-86.

عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات الساميّة وجدنا أنّ معناها الأصليّ إنّما كان القائلَ أو المتكلّم[1] . ثمّ أثّرت فى ارتقاء فنّ الخَطابة سياسة العرب الخارجيّة ، أعنى العلائق بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسّان فكان حينئذ الخطيبُ وكيلَ جميع قبيلته يخطُب باسمها فى المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدِّفاع عن حقوق قومه . فوصف أوْس بنِ حَجَر منصِب الخطيب فى داخل قومه وخارجه حين قال[2] وهو يرثى أبا دُلَيْجة فَضالة بن كَلَدة : (من بحر البسيط) .

أبا دُلَيْجةَ مَنْ يَكْفِى العشيرةَ إذْ　　أمسوْا مِنَ الخَطْبِ فى لَبْسٍ وبَلْبَالِ
أمْ مَنْ يَكُونُ خطيبَ القومِ إذْ حَفَلُوا　　لدى الملوك ذوى أيْدٍ وأفْضال

ولهم عوائد خاصّة عند إلْقاء الخُطَب الاحتفاليّة وعند أهل المدن الحجازيّة فى أواخر القرن السادس للمسيح نوعٌ ثانٍ من الخَطابة جارٍ فى أمور الدين والأخلاق والزهد وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نُفَيْل من أهل مكّة وقُسّ بن ساعدة الإياديّ النصرانىّ أسْقُف مدينة نجران ، الذى ضُرب به المَثَل فى الفصاحة والبلاغة . بَيْدَ أنّ القليل الذى بَلَغَنَا من خطب زيد بن عمرو مختَلَقٌ من غير شكّ[3] وما يُرْوَى عن قُسّ ليس إلّا قِطع صغيرة

(١) قال التبريزى فى شرحه على حماسة أبى تمام (ص ٧٠٥ من طبعة « بن » أو ج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : « وسمى الرئيس زعيما لأنه يزعم عنهم أى يقول كما قيل له قيْل ومقول » وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldeke فى *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol.42, 1888, P.481. وراجع أيضاً ما قاله Hommel فى نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II, *p.* 52 *note* 4

(٢) عدد ٣٢ بيت ٤ و ٥ من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ اعتنى بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله فى هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893, P. 323-334).

(٣) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2ème édition, 1ère partie, Leipzig 1909. P. 18-19.

لا نعرف أهي ألفاظه أم لُباب كلامه فقط . وما يُنْسَب إلى قسّ هو كلُّه بالكلام المسجّع الذى كان يألفه الكُهّانُ لارتباطه الأَصليّ بالسحر القديم حسبما سأُبينه إن شاء الله .

وقُصَارى الأَمر أنَّ العرب فى الجاهليّة لم يخرجُوا فى النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطَّعات فلو جاز قياسُ كتاب دينى جليل بسائر التصانيف لقلْتُ إنَّ أولَ كتاب مطوَّل صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن الشريف .

٦ — لا بُدَّ للباحث عن تاريخ الآداب العربيّة من الفحص عمّا يتعلّق بالقرآن من المسائل اللغوية والأدبيّة ، منها مسأَلة لغته أهى لغة أهل قريش المعتادة أم لا ؟ ومسأَلة إنشائه الذى اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنّه كلام منثور خارجٌ عن نوعى المنثور المتداولَيْن لا يسمَّى مُرْسَلاً مُطلَقًا ولا مسجَّعاً . ومسأَلة جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصدّيق وفى عهد عثمان بن عفّان . ثمّ مسأَلة تواتره وقراءاته . ومسأَلة بلاغته وإعجازه وهلمّ جرًّا . ولكنّى فى هذه المقدّمة المختصرة لا أُريد بيانَها ولا حلَّها مقتصرًا على التلميح إليها والإشارة إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذى لا يُقدَّر مقدارُه فى حياة الأُمم الإسلاميّة وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل فى النصارى لأنَّ مدار الإنجيل ليس إلاَّ على العقائد والأَخلاق خلافاً للقرآن الذى يتضمن أيضاً أحكاماً فقهيّة مهمّة أساسيّة لا يجوز للمسلم الانصراف عنها فى التشريع . فالتشريع عند النصارى عَمَلٌ بشرىّ ليس له ارتباط متين بأَقوال الإنجيل أمّا التشريع فى الإسلام فلا يُتصوَّر إلاَّ كفرع من العلوم النقليّة الدينيّة ، أصوله فى القرآن والسنّة والإجماع . فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الإسلامية على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأُمم النصرانيّة .

وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن فى الهيئة الاجتماعية الإسلاميّة ودخول أحكامه فى أمور تكون دنيويّة فقط عند النصارى . ثمّ لا شكّ فى أنّ القرآن كان أشدَّ العوامل فى انتشار لغة العرب فى غير بلادهم القديمة وصيرورتها لغة العلم عند كافّة المسلمين مهما كان بُعْد مساكنهم عن أقطار الحجاز. ولا ريْبَ أيضاً أنّ القرآن كان مصدر علومٍ شتّى اختصّ بها المسلمون أو ساعَدَهم على التقدُّم فى علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطىّ[١] فى النوع الخامس والستّين من كتاب الإتقان فى علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبى الفضل المُرْسىّ ما نصّه[٢] : « ثمّ [أى بعد التابعين] تقاصرت الهِمَم وفترت العزائم وتضاءل أهلُ العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات ،إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أُودِع فيه فسُمّوا القراء ،واعتنى النحاة بالمعرَب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدّى ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة ،واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر ؛ فأجروا الأول على حُكمه وأوضحوا معنى الخفى منه وخاضوا فى ترجيح أحد محتَملاتِ ذى المعنيين والمعانى وأعمل كل منهم فكره

---

(١) توفى السيوطى سنة ٩١١ / ١٥٠٥ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

وقال بما اقتضاه نظره؛ واعتنى الأُصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسَمَّوْا هذا العلم بأُصول الدين ؛وتأملت طائفة منهم معانى خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا فى التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسَمَّوا هذا الفن أصول الفقه؛وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرّعوا فروعه وبسطوا القول فى ذلك بسطاً حسناً وسَمّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً ؛وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسمّوْا ذلك بالتاريخ والقصص ؛وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التى تُقلقِل قلوبَ الرجال وتكاد تُدَكْدِك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعِقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر فسُمّوا بذلك الخطباء والوعاظ ؛واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان وفى منامى صاحبَى السجن وفى رؤياه الشمْس والقمر والنجوم ساجدة ،وسمّوْه تعبير الرؤيا ؛واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ؛ ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعُرْف

عادتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله وَأْمُرْ بالعُرْف ، وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض . واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا ؛ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ، فاستخرجوا منه علم المواقيت ؛ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ. وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين فى الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ، ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاحَ لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأُنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك ؛ هذه الفنون التى أخذتها الملة الإسلامية منه » .

الباب الثالث

الآداب فى صدر الإسلام وفى أيام الخلفاء الراشدين

١ – الشعر فى مدح النبى – ٢ – شعراء المشركين الحاقدون على النبي – ٣ – الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا فى أبياتهم بأمور دينية – ٤ – شعر الفتوحات – ٥ – الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب – ٦ – النثر .

أمّا حال الآداب العربيّة الدنيوية فى صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين فما هو[1] ؟ قال ابن خلدون فى مقدمته[2] : «ثمّ انصرف العرب عن ذلك [أى عن الشعر] أوّلَ الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحى وما أدْهَشَهم من أسلوب القرآن ونظمه فأُخْرِسُوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ثمّ استقرّ ذلك وأُونِسَ الرُّشْدُ من الملّة ولم ينزل الوحْيُ فى تحريم الشعر وحَظْره وسَمِعَهُ النبيّ (صلعم) وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديْدنهم منه» . وقال عمر بن الخطاب : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته»[3] – هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر ألبتّة ؛ فما أوردتهما لو لم أعثُر على مثل هذا الفكر فى تواريخ الآداب العربيّة المتداولة فى المدارس المصريّة مثل أدب اللغة العربية لمحمّد حسن

---

(١) [فى هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis Zum Tode des Kalifen 'Umar* Leipzig 1937.]

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج٣ ص٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجمحى [فراجع طبقات الشعراء للجمحى ص ١٠ من طبعة ليدن سنة ١٩١٦] .

المرْصَفىّ[١] وأدبيات اللغة العربية لمحمّد عاطف بك وصاحبيه[٢] وخلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق[٣]. فإذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطوّلة مثل سيرة الرسول لابن هشام ، وكتاب المغازىّ للواقدى وطبقات ابن سَعْد وتاريخ الطبرىّ وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام ، ثم إذا تصفّحتم كتب الأدب القديمةَ مثلَ كتاب الأغانى وغيرهِ ألفيتم أنّ الآداب العربية لم تزل فى ذلك العصر زاهيةً وأنّ الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم ولا الخطباء عن نسْج نثرهم .

إنّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى أوائل ظهور الإسلام أو فى أيّام الخلفاء الراشدين يجوز تقسيمُهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الدين الإسلامىّ : ١ً الذين قالوا الشعر فى مدح النبىّ سواء أسلموا أم لم يُسْلِموا ؛ فأكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يفدون فى الجاهليّة على الملوك . ٢ً الشعراء الذين قالوا الشعر فى رِثاء قتْلى الكفّار وهجاء النبىّ وأغلبهم من أهل مكّة . ٣ً شعراء أسلموا ولم يهتمّوا فى أبياتهم بأمور النبىّ والدين وهم أكثر شعراء أهل البادية .

١ — ومن الصنف الأوّل كعب بن زُهَيْر والأعشى وحسان بن ثابت السابق ذكره . فإن تأمّلتم أشعارهم وجدتم بينهم فرْقاً بالإضافة إلى الإسلام . لأنّ كعباً وهو بدوىّ الأصل مدح النبىّ سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألّفها على منوال قصائد أهل البادية فى مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبِّئتُ أنّ رسولَ اللهِ أوْعدنى   والعَفوُ عند رسول الله مأمولُ
مهْلاً هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ الـ   ـقرآن فيه مواعيظٌ وتفصيلُ

---

(١) أدب اللغة العربية للمرصفى ج ا ص ٩٣ — ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ — ١٤٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

لقلنا إنَّه إنَّما أراد قائدًا أو سيدًا من قومه لا نبيًّا جليلاً أتى بدين جديد . ثم فى نفس تلك القصيدة مدح المهاجرين فلم يصفهم إلاَّ بالحماسة والشجاعة . فشتَّان ما بين أسلوب هذه البردة البدويّة وبين العواطف والعبارات الدينية التى تتحلَّى بها بردة الشيخ البوصيرى[1] ! وفى قصيدة أخرى[2] إمدح كعبُ الأنصار ولم يجعل فيها بيتاً يخرج عن منهج المدح البدوىّ ويشير إلى محاسن الدين الإسلامىّ . — أمَّا الأعشى فمدح النبي (مع أنه لم يُسْلِم) فى سنة ٧ فلتقربه من نصارى نجران والحيرة استعمل بقصيدته ما دلّ به على علوّ منزلة النبيّ فى الأمور الدينية فقال مثلاً[3] :

نبيٌّ يرى ما لا تروْن وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ولكن أوّل من يصلُح له اسمُ شاعر إسلامىّ هو حسّان بن ثابت الأنصارى الذى مرّ ذكر شعره فى عهد الجاهليّة . وهو بعد الهجرة النبوّية ربّما هجا الكُفَّار على الأسلوب القديم حسبما كانوا هم يهجون النبيّ ، ومن هذا القبيل مثلاً ما قاله فى الهُذليّين لمّا أسَروا بعض المسلمين وباعوهم من قريش[4] :

(من بحر البسيط.)

لو خُلِقَ اللُّؤْمُ إنْساناً يُكَلِّمُهُمْ لَكانَ خَيْرَ هُذَيْلٍ حِينَ يَأْتِيهَا

---

(١) توفى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى فيما بين سنتى ٦٩٤ و ٦٩٦ ﻫ .

(٢) نقل الأستاذ R.Basset معظمها إلى اللغة الفرنسية فى كتابه *La Bânat So'âd ... de Ka'b ben Zohair* Alger, 1910, P. 51-53. أما ديوان كعب بن زهير فهو غير مطبوع .

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٨٥ من طبعة بولاق [أو ديوان الأعشى قصيدة ١٧ ، بيت ١٤ من طبعة لندن ١٩٢٨] .

(٤) ديوان حسان ص ١٠٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ٨١ من طبعة بمبى سنة ١٢٨١ أو عدد ٦٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٤٢٤ — ٤٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

تَرَى من اللؤمِ رقماً بينَ أعيُنِهِمْ | كما كَوى أَذْرُعَ العاناتِ كاوِيهَا
تَبْكي القُبورُ إذا ما ماتَ مَيِّتُهُمْ | حتّى يصيحَ بِمنْ في الأرضِ داعِيها
مِثْلُ القَنافِذِ تَخْزَى أن تُفاجِئَها | شَدَّ النَّهارِ وَيَلْقى اللَّيْلُ سَارِيهَا

ولكن حُسْن إسلامِهِ ظاهر في جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدها بعد يوم أُحُد مجيباً لعبد الله بن الزِّبَعْرَى القُرَشيّ قال في آخرها[1] :

فلا تذْكُروا قَتْلَى وحمزةُ فيهمُ | قتيلٌ ثوى لله وهْو مُطيعُ
فإنَّ جنانَ الخُلْد منزلةٌ له | وأمْرُ الذي يَقضي الأمورَ سريعُ
وقَتْلاكُمُ في النار أفضلُ رِزْقِهِمْ | حَميمٌ معاً في جوْفها وضريعُ

وما أحلى وأرقّ القصيدة التي رثى بها النبيّ ومطلعها[2] :

ما بالُ عينِكَ لا تنامُ كأنَّها | كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأرْمَدِ

وهي على سذاجة نظمها وألفاظِها واقعةٌ في القلوب ظاهرة التفجُّع بيِّنة الحَسْرة والتلهُّف والأسف .

ليست هذه المقدّمة الوجيزة مكاناً يصلُح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبيّ وحِمائه وحماء الصحابة في صدر الإسلام . كان عرب البادية في الجاهليّة لا يغزُون ولا يتحارَبون إلاّ وشعراؤهم أنشدوا الأبيات في هِجاء الأعداء والافتخار ورثاء القَتْلى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراءُ المسلمين والمشركين هذا المنهج أيضاً في المديح والرثاء والتهاجي . وتناولت شعراءُ الكفّار

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس أو ص ٤٨ من طبعة بمبي أو عدد ١٧٥، بيت ١٦ إلى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان وابن الزبعرى » .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبي أو قصيدة ١٣٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ — ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ — ١٠٢٥ .

النبيَّ ومَنْ معه بالهجاء ومسُّوه بالأذى؛ فانتصرت شعراءُ النبيّ له وأجابوا المشركين عنه . ويُرْوَى أنَّ النبيَّ قال لحسّان بن ثابت اهْجُهم، يعنى قُرَيْشاً فواللهِ لَهِجاؤُك عليهم أشدُّ من وقع السّهام فى غَلَس الظّلام اهْجُهم ومعك جبريلُ روحُ القدس[1] . وفى كتاب الأغانى ما نصُّه[2] : «كان يهجوهم يعنى قريشاً ثلاثة نَفَرٍ من الأنصار يُجيبونهم : حسّان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رَواحة . وكان حسّان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكُفْر وينسبهم إلى الكفر ويعلم أنّه ليس فيهم شرٌّ من الكفر فكانوا فى ذلك الزمان أشد شىء عليهم قولُ حسان وكعب، وأهْوَنُ شىء عليهم قول ابن رواحة فلمّا أسلموا وفقِهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة».

وربّما تَفاخَرَ شعراءُ الفريقَيْن وخطباؤهما أمام النبيّ على جَرْى عادة العرب فى ذلك الزمان كما اتّفق حين وفَدَتْ بنو تميم على النبيّ فى السنة التاسعة للهجرة . قال ابن سعد الكاتب[3] المتوفّى سنة $\frac{٢٣٠}{٨٤٥}$: «فقال الأقرع [بن حابس من رؤساء بنى تَميم] يا محمّد ايذَنْ لى فوالله إنَّ حَمْدى لَزَيْن وإنَّ ذمّى لَشَيْن . فقال له رسول الله كذَبْتَ ذلك اللهُ تبارك وتعالى . ثمّ خرج رسول الله فجلس وخطب خطيبُهم وهو عُطارد بن حاجب . فقال رسولُ الله لثابت بن قيس بن شمّاس أجِبْه . فأجابه . ثم قالوا يا محمّد

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وانظر الأغانى ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق

(٣) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد فى WELLHAUSEN, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. IV, Berlin 1889, P. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ — ٢٤ من طبعة ليدن] ونص الخطبتين والشعرين مروى فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٨ — ٩ من طبعة بولاق وفى السيرة لابن هشام ص ٩٣٤ — ٩٣٨ من طبعة أوربا وتاريخ الطبرى ج ١ ص ١٧١٠ — ١٧١٧ من طبعة ليدن .

ايذَنْ لشاعرنا . فأَذِن له فقام الزِّبْرِقان بن بَدْر فأَنشد . فقال رسولُ الله لحسَّان بن ثابت أَجِبْه فأَجابه بمثل شعره . فقالوا والله الخَطيبُهُ أبلغ من خطيبنا ولَشاعِرُهُ أشعر من شاعرنا ولَهُمْ أحلمُ منَّا . ونُزِّل بهم[1] : «إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون » . — فترَوْن أن الشعر عند أهل المدينة ومكة فى غزْوة الإسلام قد أصبح ذا شأْن عظيم كأَنَّه من وسائلهم السياسية .

٢ — أمَّا شعراءُ الصنف الثانى أى الذين رثَوا القَتْلى من المشركين وهجَوا النبيَّ والمهاجرين والأَنصار وأكثرهم من أهل مكَّة فأَسماؤهم وأبياتهم مرويَّة فى سيرة الرسول لابن هشام وغيرها من المصنَّفات القديمة فى المغازى والتاريخ . وأشهرهم عبد الله بن الزِّبَعْرى وضِرار بن الخطَّاب الفِهْرِيّ والحارث بن هِشام ابن المُغِيرة وأبو سُفْيان بن حَرْب .

٣ — وممَّنْ نبغ من شعراء الصنف الثالث أى الذين أسلموا بغير أن يؤثِّر إسلامهُم فى شعرهم تأْثيرًا شديدًا جليًّا وأغلبهم من أهل البادية مُتمِّم بن نُوَيْرة اليَرْبوعيّ صاحب المراثى المشهورة فى أخيه مالك الذى قُتل فى جملة العرب المرتدِّين بعد موت النبيّ فى أيام خلافة أبى بكر . فرثاه متمّم بأشعار تُثير الأَشجان وتَقْدح شَرر النيران فضربت الشعراءُ الأَمثالَ به وبأَخيه مالك فى أشعارهم . وممَّا قال[2] :

أَبَى الصَّبْرَ آياتٌ أراها وأنَّنى   أرى كلَّ حَبْلٍ بعدحبْلك أَقْطَعَا

(١) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) آية ٤ .

(٢) المفضليات ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو عدد ٦٧ ، بيت ١٧ إلى ٣٥ (ما عدا بيت ١٩) من طبعة أكسفورد ١٩٢١] .

وأنّى متى ماأدْعُ باسمِكَ لاتُجِبْ … وكنتَ جديرًا أنْ تُجيبَ وتُسْمِعَا

وكنّا كندمانَىْ جَذيمةَ حِقْبَةً … من الدهرحتّى قيل لَنْ يَتَصَدَّعَا

فلمّا تفرّقْنا كأنّى ومالكاً … لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليْلةً مَعَا

فإنْ تكنِ الأيّامُ فرّقْنَ بَيْنَنَا … فقدْ بانَ محموداً أخى يَوْمَ وَدَّعَا

أقول وقد طار السَّنا فى رَبابهِ … وغَيْثٌ يسُحُّ الماءَ حتّى تَرَيَّعَا

سقى اللهُ أرضاً حَلَّها قبرُ مالكٍ … ذِهابَ الغوادى المُدْجنات فأَمْرَعَا

وآثَرَ سَيْلَ الواديَيْن بِدِيمةٍ … تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا من النّبْتِ خِرْوَعَا

ومن النابغين أيضاً أبو مِحْجَن الثَّقَفىّ من فُرْسان العرب شهد يومَ القادسيّة سنة $\frac{١٦}{٦٣٧}$ [١] وقصّته فيه مشهورة. وكان مولَعًا بالخمر الذى يدور عليه معظم شعره. ومن بين أبياته الشهيرة [٢]:

إذا مُتُّ فادْفنّى إلى أصل كرْمَةٍ … تروّى عِظامى فى التّراب عروقُها

ولا تدْفِنَنّى بالفَــلاة فإنّنى … أخافُ إذا ما مُتُّ أنْ لا أذوقُها

ومنهم جَرْوَل بن أوس الحُطَيْئة «من فحول الشعراء ومتقدّميهم وفصحائهم متصرّف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب مجيد فى ذلك أجمع» [٣] ولكنّه دنِئُ الطبع لئيم النفس كثير الطمع [٤] جعل الشعر مَتجَرًا فكان له من الهجاء معاشٌ ومَكْسَب لأنّ الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شرّه فقال الأَصْمَعىّ: «كان الحطيئة جَشِعًا سَؤولاً

---

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islam* (*Skizzen und Vorarbeiten* VI), Berlin 1899, P. 72-74; CAETANI, *Annali dell'Islām*, III, P. 629-693.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بعناية Abel و ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦ (فى LANDBERG, *Primeurs arabes*, I) وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ – ١٣٤٨].

(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق.

(٤) انظر أيضاً كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥.

مُلحِفاً دنِىء النفس كثير الشرّ قليل الخير بخيلاً قبيح المنظر رثّ الهيئة مغموز النسب فاسد الدين وما تشاء أن تقول فى شعرِ شاعرٍ من عَيْب إلّا وجدتَه وقلّما تجدُ ذلك فى شعره » [١] . فمن غريب الاتّفاق أنّ هذا الشاعر الموصوف بدَناءة الخُلق كان راوية كعب بن زهير بل إن صحّ الخبر راويةَ زهير بن أبى سُلْمى الذى شعره فى طلب العُلا والمكارم . وكان الحُطَيْئة قد ارتدّ فيمن ارتدّ بعد وفاة النبىّ وهجا حينئذ الخليفة أبا بكر فى بيتين مشهورين[٢] ثمّ أسلم ثانية إلاّ أنّه لم يزل يهجو أكابر الناس حتّى أمر عمر ابن الخطّاب بحبْسه فقال فى الحبس أبياتاً أشار فيها إلى حال أولاده الصغار المقيمين بذى مَرَخ (وهو وادٍ من أودية اليمن)[٣] :

ماذا تقول لِأفراخٍ بذى مَرَخٍ ... حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجرُ
ألقيْتَ كاسِبَهم فى قَعْرِ مُظْلمةٍ ... فاغْفِرْ عليك سلامُ الله يا عُمَر
أنتَ الأمينُ الذى من بَعْدِ صاحبِهِ ... ألقى إليه مقاليدَ النُّهَى البَشَرُ
لمْ يُؤْثِروك بها إذ قدّموك لها ... لكنْ لأنفسهمْ كانت بها الخِيَرُ

فعفا عمر عنه . ولا يُعْرَف تاريخُ وفاته الذى جعله أبو الفداء سنة ٦٩ بدون إيراد مصدر هذا الخبر . والمحقّق إنّما هو أنّه أدرك خلافة عثمان على الأقلّ . وكان الحطيئة رقيق الإسلام فكثُرت فى ذلك الحكايات .

ومن معاصريه الشمّاخ بن ضِرار الذُّبيانى صاحب ديوان طُبع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ بعناية الشيخ أحمد بن الأمين الشنْقيطىّ وقيل إنّه أوصف الشعراء للحمير والقوس وأرجز الناس على البديهة . وهو كثير الهجاء أيضاً مات بعد

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٤٦ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان عدد ٣٤ ؛ بيت ٥–٦ من الطبعة بعناية Goldziher فى *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 47, 1893, P. 43.

(٣) ديوان عدد ٤٧ من الطبعة المذكورة .

قتل عمر بن الخطّاب . وكان له أخوَانِ شاعران أعنى مزرّدًا وجَزْءًا اللذَيْن لم يُنْقَل إلينا إلاّ مقطّعات صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ الزُّبَيْدىّ من سادات أهل اليمن وأشجع العرب . أسلم فى يدى النبىّ فى السنة العاشرة وشهد وقعة القادسيّة فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم فى آخر خلافة عمر . وأكثر شعره فى الحماسة وذكر الفتوح . ولشجاعته وشُهْرته كثُرت فيه وفى سيفه المسمّى الصَّمْصامة وفى كِبَر سنّه الحكايات المختلَقة منها ما رُوى فى كتاب الأغانى[1] فيه مع عُيَيْنة بن حِصْن فى تحريم الخمر وتحليله[2].

ومنهم أيضاً هُذَليّان أحدهما أبو خِراش خُوَيْلِد بن مُرّة الذى مات فى خلافة عمر بن الخطّاب « وكان ممّن يعدو فيسبق الخيل فى غارات قومه وحروبهم »[3] . والثانى وهو أشعر منه أبو ذُؤَيْب خُوَيْلد بن خالد الذى غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح سنة $\frac{٢٦}{٦٤٧}$ فأخذه الموت بعد انتهاء الغزاة سنة ٢٨ تقريباً . وله ديوان لم يُطْبَع بعد[4] . ومما يُسْتجاد من شعره قصيدة طويلة يرويها صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب[5] رثى بها بنيه

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٣٠ — ٣١ من طبعة بولاق .

(٢) وفى ذلك الخبر ذى الإسناد الضعيف جداً ترون عمر بن معديكرب وعيينة يتباحثان كأنهما فقيهان ويذكران المتكلف بمراعاة أحكام الدين وهذا لا يعقل فى ذلك العهد عند رجلين فارسين فى الحرب قليلى الإسلام بعيدين عن الميل إلى البحث عن أمور الدين فظاهر أن الخبر كله من الروايات التى اخترعت فى أواخر أيام بنى أمية لما أخذ أهل التقى والدين والفقهاء يبذلون جهدهم فى النهى عن المنكر الشائع من شرب الخمر وإهمال الأحكام الشرعية فى الحياة العادية فأشاع أولو الأغراض عدة حكايات مصنعة عذراً لأميالهم وأعمالهم المكروهة . راجع GOLDZIHER *Muhammedanische Studien*, I, P. 30-31.

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٥٤ . [طبع ديوانه فى مدينة ليبسك سنة ١٩٣٣ بعناية J. Hell فى المجموعة *Neue Hudhailiten-Diwâne* ج ٢] .

(٤) [طبع ديوانه فى مدينة هانوفر سنة ١٩٢٦ بعناية J. Hell] .

(٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٨ — ١٣٢ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ — ١٣١٠ [ومفضليات =

الخمسةَ أو الثمانية الذين قُتلوا له أو هلكوا بالطاعون في عام واحد .

وأوّلها :

أمِن المنونِ وريْبِها تتوجّعُ ... والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعِ

قالت أُمَيْمةُ ما لجسمك شاحباً ... مُنْذ ابتذلْتَ ومثلُ مالك ينفعُ

أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعاً ... إلّا أقضَّ عليك ذاك المضجعُ

فأجبْتُها أمّا لجسمِيَ أنّه ... أوْدَى بنِيَّ من البلاد فودّعوا

أودى بنِيّ فأعقبوني حسْرةً ... بعد الرُّقاد وعبرةً ما تُقْلِعُ

سبَقوا هَوَيّ وأعنَقوا لهواهم ... فتُخُرِّمُوا ولكلّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فغبَرْتُ بعدهُمُ بعيش ناصبٍ ... وإخال أنى لاحِقٌ مستتبِعُ

ولقد حرَصْتُ بأن أدافع عنهمُ ... وإذا المنيّةُ أقبلَتْ لا تُدْفَعُ

وإذا المنيّـةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

ولو أردتُ سَرْد أسماء جميع الذين زهَوْا في ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأىّ سبب لا يُظْهِر شعرُهم على وفْرته تأثيرَ الدين الإسلاميّ في أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأنَّ أحوالَهم ما تغيّرت منذ انتهاء عصر الجاهليّة قلتُ إنّ أهلَ البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمُّل أمورِ الدين وفهْمِها فصعُب دخولُ الإيمان في قلوبهم فلم يزالوا إلى أيّامنا موصوفين بقلّة عواطفهم الدينية . ونُزِّل فيهم في سورة التوبة[1] : «الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا

—عدد ١٢٦ من طبعة أكسفورد سنة ١٩٢١] وتوجد ١٥ بيتاً من هذه القصيدة في شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٩٢ – ٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ وتروى ثلاثة عشر بيتاً في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج٢ ص ٦٦٧ عدد ٢٩١٤ من طبعة حيدر آباد ١٣١٩ وفيه أيضاً ترجمة الشاعر (ص ٦٦٥ – ٦٦٧) و ٧ أبيات من شعر يبكى أبو ذؤيب فيه النبى وفى آخر هذه الأبيات تفاؤل يشبه تفاؤل الجاهلية .

(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ – ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .

يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ . . » . ولكن قلّتْ الأعرابُ من هذا النوع الثانى فأغلب أهل الوَبَر لم يُسْلِموا إلّا كارهين أو طامعين فيما كانوا يرجونه من الرّبح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبىّ إلّا كأنّه مَلِك من الملوك القادرين الأعِزّاء الذين لا يمكن مُعَاداتُهم . وحال أكثرهم كحال بنى عامر بن صَعْصَعَة الذين لمّا وفدوا على النبىّ قال رئيسهم[1] : يا محمّد ما لى إن أسلمت ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال أتجعل لى الأمرَ مِنْ بَعْدِك ؟ قال ليس ذلك لك ولا لقومك . قال أفتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال لا ولكنّى أجعل لك أعنّة الخيل فإنك امرؤ فارس . قال أوَليست لى ؟! الأملأنّها عليك خيلًا ورجالاً . ثمّ ولّى[2] . — ومع قطع النظر عمّا رأيناه من قلّة ميلهم إلى جلالةِ الدين لا شكّ فى أنّ لكراهتهم تلك أسباباً خاصةً . قد مرّ فى إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنّة أجدادهم كانت عند عرب الجاهليّة أفضل الفضائل ومُعظَم الأدب فظهر لهم الإسلام بدْعةً مكروهةً لا يتّبعها نِيال الناس كما قالت زوجة العبّاس ابن مرداس حين بلغها خبر إسلامه[3] : (من الطويل)

لَعَمْرِى لَئِنْ تابعتَ دين محمّدٍ   وفارقْتَ إخوانَ الصّفا والصنائعِ
لَبدّلتَ تلك النفسَ ذُلّاً بعِزّةٍ   غداةَ اختلاف المُرْهَفات القواطع

---

(١) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد فى ٤٢ WELLHAUSEN, *skizzen und Vorarbeiten,*
[الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٥١ سطر ١٩ — ٢٣ من طبعة ليدن] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHER *Muhmmedanische studien*, I, P. 9-10.

أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثنيّ يذمُّ أخاه بُجَيْرًا حين أسلم [١] : (من الطويل)

ففارقتَ أسبابَ الهُدَى واتّبعْتَهُ على أيّ شيء ويبَ غيرِك دلّكا
على مذهبٍ لم تُلفِ أمًّا ولا أبًا عليه ولم تعرفْ عليه أخاً لكا

ففى تمسُّك العرب بسنن آبائهم نُزِّلت بضع آيات منها فى سورة البقرة [٢] : «إذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عليْهِ آباءَنَا». وفى سورة المائدة [٣] : «وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا». وفى سورة الأعراف [٤] : «وَإذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْها آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِها». وفى سورة الزُّخرُف [٥] : «بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ». وفى سورة لقمان [٦] : «وَإذَا قيل لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا». — وفى بعض الأشياء أنَّ الشريعة الإسلاميّة خالفت سنن العرب القديمة مخالفة شديدة. كانت العرب أفخرَ الناس بأنسابهم محتقرين من لم يكن منهم أو كان مغموز النسب متكبّرين بالحَسَب الطويل فجاء القرآن بما يدُلّ على مساواة الناس عند الله [٧] : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ». — كان العرب يُذِلّون من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا يردّ الشرّ بمثله أو بأكثر منه كما قال عمرو بن كُلْثوم فى معلّقته [٨] :

(١) انظر شرح بانت سعاد الشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصارى ص ٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٧١ — ١٨٧٤ بعناية I. Guidi
(٢) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .
(٣) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .
(٤) القرآن ٧ (سورة الأعراف) : ٢٨ .
(٥) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢ .
(٦) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .
(٧) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .
(٨) معلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أحدٌ عَلَيْنَـــا | فنجْهَل فوْق جهْل الجاهِلينَا

أمّا الإسلام فنصَح للناس بالعفو والحلم ومدح « الكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ النَّاسِ »[١] بل أمر المؤمنَ : « ادْفَعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ »[٢]. وكان الأعراب مولَعين بشُرْب الخمر ولِعْب المَيْسِر فجاء القرآن بتحريمها وأمرهم بالصلاة والصيام وغير ذلك من الأحكام المتْعبة لأبناء الفيافى . فخلاصة الأمر أنّه كان البون الواسع بين قواعد المُرُوّة على رأى الأعراب وبين كثير من أحكام الإسلام[٣] فلا عجب أنّ أهل البادية لم يعتنقوا الدين الجديد إلاّ رغماً عنهم .

٤ ـ ولإتمام هذا الوصف الإجمالىّ لآداب العرب فى أيّام النبىّ والخلفاء الراشدين يبقى علىّ أن ألمّح إلى نوع خاصّ من الشعر تليق به تسميةُ شعر الفتوحات . قد تقدّم أنّ عرب الجاهلية كانوا يخلّدون مآثر قبائلهم وذكر أيّامهم فى أبيات توارثها أهل كلّ قبيلة خلَفاً عن سَلَف . فكذلك لمّا فاضت الجيوش الإسلاميّة بأمواجها على ما هو خارج أنحاء جزيرة العرب وخفقت ألويةُ الجنود المظفَّرة فى أطراف النواحى الأعجميّة وأقاصى الآفاق ، أخذت الأعرابُ الكائنون فى جملة المجاهدين يقولون الشعر ويُنْشِدون القوافى وصْفاً لما قاسَوْا من المتاعب وما شهِدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من البأس وثَبات الجَنان . فقال مثلاً قَيْس بن المكشوح المُراديّ مفتخرًا بقتله رسْتَم أمير جيوش الفرس فى يوم القادسيّة سنة $\frac{١٦}{٦٣٧}$ [٤] :

حَلَبْتُ الخَيْلَ منْ صَنْعاءَ تَرْدى | بِكُلِّ مُدَجَّجٍ كَاللَّيْثِ سامِ

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٤ . (٢) القرآن ٢٣ (المؤمنون) : ٩٦ .

(٣) راجع ما قاله الأستاذ Goldziher فى المروة والدين فى كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١ — ٣٩ .

(٤) فتوح البلدان البلاذرى ص ٢٦١ من طبعة ليدن ١٨٦٦ .

إلى وادى القُرَى فديار كَلْبٍ   إلى اليَرْمُوكِ فالبَلَدِ الشآمِ

وجِئْنَ القادِسِيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ   مُسَوَّمَةً دَوابِرُها دَوامِ

فناهَضْناهُمُنالِكَ جَمْعَ كِسْرَى   وأبناء المَرازِبَةِ الكِرامِ

فلمّا أنْ رَأيْتُ الخَيْلَ جالَتْ   قَصَدتُ لِمَوْقِفِ المَلِكِ الهُمامِ

فأضْرِبُ رَأسَهُ فهَوَى صَريعاً   بِسَيْفٍ لا أفَلَّ ولا كَهامِ

وقدْ أبْلَى الإلهُ هناكَ خَيْرًا   وَفعْلُ الخَيْرِ عِنْدَ اللهِ نامِ

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار فى كتاب فتوح البلدان للبلاذُرىّ وفى تاريخ الطبرى وفى كتاب معجم البلدان لياقوت الحَمَوِىّ لألّفنا منها ديواناً .

٥ — ومن الكتب الكثيرة التداول حتى فى أيامنا ديوان محتوٍ على قصائد ومقطّعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب . لكنه كتاب مختلَق وهومِمّا صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصّة . وعلى قول بعض أهل السنّة المتأدبين هو تأليف الشريف المرتضى أبى القاسم علىّ بن طاهر المتوفى سنة $\frac{٤٣٦}{١٠٤٤}$. ونُسِبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علىّ القصيدة الزَّيْنَبِيّة فى الحِكَم والمواعظ التى من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول فى سنة ١٦٧ هـ فى أيام المهدى . أما ما رُوِى من شعر على بن أبى طالب فى كتب التاريخ وفى كتاب العُمدة[1] لابن رشيق فشىء يسير كله فى الحماسة ووصف الحروب .

٦ — أمّا المنثور المستظرف فى عهد النبىّ والخلفاء الراشدين فلم يخرج عمّا كان عليه فى زمان الجاهليّة من الحِكَم والمواعظ والوصايا والحكايات ما عدا الأحاديث النبويّة . ولم يدوّن فى ذلك العصر كتابٌ وإن كان بعض الناس

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

يقيّدون فى بطون الصحائف شيئاً من أحاديث النبىّ ومن الحكم . وفن الخطابة لم يزل فى رونقه القديم حتى نبغ فيه نفس النبىّ والخلفاء فمرّ فيما سبق ذكر نص مأخوذ من كتاب ابن سعد دالٌ على ارتفاع منزلة الخطيب البليغ عند عرب القبائل وأهل المدن. ولكن لقلّة استعمال الكتابة لتسجيل المنثور لم يصل إلينا من خطب ذلك العصر إلاّ شىء يسير جدًّا وربّما وقع فى هذا القليل نقص أو زيادة أو تغيير أو اختلاق . فخطبة الوداع مثلاً على عَظَمَة شأنها وعلوّ أفكارها ورِفْعة قائلها إنّما نُقلت بروايات مختلفة وعلى قطع متفرّقة . وأقبح الأمر ما عرض لأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فإنّ أصحاب الأهواء من الفِرَق الإسلاميّة اجترءوا على تزوير أقواله وعَزَوْا إليه جَمًّا غفيرًا من المواعظ. والحِكَم التى ليست له ألبتّة . فقال المسعودىّ فى مروج الذهب[1] إنّ « الذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيّفٌ وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً » وممّا نُسِب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة الذى اختلف فيه بعض أهل السنّة أهو للشريف المرتضى أبى القاسم علىّ بن طاهر المتوفّى سنة $\frac{٤٣٦}{١٠٤٤}$ أم لأخيه الشريف المرضىّ[2] ، وعلى كل حال أنه ليس من كلام علىّ وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه . وقال أبو عبد الله محمّد الذَّهَبِىّ المتوفّى سنة $\frac{٧٤٨}{١٣٤٨}$ فى كتاب ميزان الاعتدال[3] : «ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنّه مكذوب على أمير المؤمنين علىّ (رضه) فإنّ

---

(١) فى الباب الرابع والثمانين ج ٤ ص ٤٤١ — ٤٤٢ من الطبعة الباريسية.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ٤١٦ من الطبعات المصرية .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ج ٢ ص ٦٢٢ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣١١ فى مادة « نهج البلاغة » .

فيه السبُّ الصريح والحطُّ على السيّدين أبى بكر وعمر » . — وأحياناً عُزِى إليه كتاب الجَفْر والحِجابُ العظيم وغير ذلك ممّا هو برىء منه كلّيًّا .

ومن خطباء ذلك العصر سَحْبَان بن زُفَر الوائلىّ من قبيلة وائل باهلَة وُلِد فى زمان الجاهليّة ومات مسلماً سنة ٥٤ وضُرب به المثل فى البلاغة والبيان فقيل أخطَبُ مِنْ سَحْبَانِ وَائِل أو أنْطَقُ من سحبان . وما رُوى عنه فى كتاب الأمثال للمَيْدانى وفى شرح الشّريشىّ على المقامات الحريرية أشهر من أن أحتاجَ إلى ذكره هنا .

الباب الرابع

الشعر فى عصر بنى أُمية

١ – الغزل فى مدن الحجاز – ٢ – النسيب عند الأعراب – ٣ – الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية – ٤ – الأراجيز – ٥ – شعر الجنود – ٦ – شعر الفتن السياسية والدينية – ٧ – شعر أهل الحضر فى مدن العراق والشأم – ٨ – الشعر القصصى الفنى – ٩ – المراثى .

فلنُلْقِ الآن نظرةً على الآداب العربيّة فى أيّام دولة بنى أُميّة .

لا ريب فى أنّ نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة $\frac{٤١}{٦٦١}$ كان ذا عواقب متنوّعة مهمّة يصعُب تقديرُها حقّ القدْر ولكن البحث عنها وبيانها يحقُّ من يعتنى بتاريخ الأمم الإسلاميّة . فأقتصر هنا على ذكر أنّ ذلك النقل الذى غُيّر به مركز السياسة الإسلاميّة ثمّ الفِتَن التى حدَثت بين بنى أُميّة وبين أهل الحجاز فى أيّام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال فى الأنحاء البعيدة كانت سبباً فى وقوع اختلاف محسوس بين سَيْر الآداب فى جزيرة العرب لاسيّما الحجاز وسيرها فى الشام والعراق والجبال من قبل منتصف القرن الأوّل إلى أواخره . فلتحصيل الوضوح فى هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر فى أيّام الدولة الأُمويّة تسعة أقسام أو أصناف :

١ – الغزل فى مدن الحجاز ٢ – الشعر الغرامىّ والتشبيب عند الأعراب .

٣ – الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهليّة .

٤ – الأراجيز . ٥ – الشعر المتعلّق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود .

٦ ــ الشعر المتعلّق بالفتن والخلافات الدينيّة والسياسيّة . ٧ ــ الغَزَل والخمريّات والمديح بدمشق . ٨ ــ الشعر القَصَصيّ اليمنيّ . ٩ ــ المراثى .

١ ــ فأبتدئ بالصنف الأوّل أى الغزل فى المدن الحجازيّة .

إنّ محبّة إلْف النساء وهواهُنّ وفرطَ الصّبابة والشّوْق كانت فى كلّ زمن وعند كلّ أمّة مجالاً واسعاً وميداناً أُفْيِح لقريض الشعر فلم تخلُ الأمم الساميّة عن أشعار معبّرة عمّا فى نفوسهم وقلوبهم من شدّة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزّل بل ضربوا فى ذلك بسهم مُصيب كما يتّضح مثلاً من سِفْر نَشيد الأناشيد المُدْرَج فى كتب العبرانيّين المقدّسة . فمن طالع أشعار العرب القديمة استغرب قلّة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب لأنّ أكثرَ ما يُرْوَى من هذا الباب ألْيَق بتسمية النسيب منه بتسمية الغَزَل إذا امتثلنا فى تعريفهما قولَ أبى زكريّاء يحيى التبْريزىّ فى شرح حماسة أبى تمّام [1] : « النسيب ذكرُ الشاعرِ المرأةَ بالحُسْن والإخبارُ عن تصرّف هواها به وليس هو الغَزَلَ وإنّما الغزل الاشتهار بمودّات النساء والصّبْوة إليهنّ والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » [2] ومن الجدير بالذكر أنّ فحول شعراء الجاهليّة لم يُفْرِدوا للنسيب أشعارًا طويلة خاصّة فاقتصروا على جعله فى أول قصائدهم يشكُون فيه شدّة الوجد وألَم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزّل الحقيقىّ حصره فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يُدْرِجْهُ فى وسطها إلّا بأنْدَر النادر كما فعله عنترة بن شدّاد فى معلّقته حين قال نحو أواخرها :

يا شاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلّتْ لَهُ ۞ حَرُمَتْ عَلَىّ وَلَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ
فبعَثتُ جَارِيَتِى فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبِى ۞ فَتَجَسّسِى أخبارَها لى وَاعْلَمِى

(١) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص٥٣٨ من طبعة بن أو ج٣ ص١١٢ من طبعة بولاق .
(٢) راجع أيضاً نقد الشعر لقدامة ص ٤٢ ــ ٤٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ .

قَالت رَأيتُ مِنَ الأعادى غِرَّةً ... وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ

وكأنَّما ٱلتَفَتَتْ بجِيدِ جَدَايةٍ ... رَشَإٍ مِنَ الغِزْلَانِ حُرٍّ أرْثَمِ

وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلَّقة إلى غير الغزل والنسيب. أمّا مقطَّعات الشعر الجاهليّ المختصّةُ بالتشبيب المنقولةُ إلينا فى كتب الأدب واللغة فقليلة جدًّا وهى كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزّل[1]. فلهذا الأمر الغريب على رأيى سببانِ : الأول أنَّ التعبير عمَّا فى القلب من الهوى والعشق والشوق يستدعى كلاماً ليِّناً سهلَ المأخذ بعيداً عن الألفاظ الغريبة قريب المعانى فاستنكفت من جَمْعه علماءُ اللغة فى القرن الثانى والثالث للهجرة لأنَّ غرضَهم من لمّ الأشعار القديمة وحِفْظ شذراتها كان خصوصاً الغريبَ من الألفاظ والمهمّ من الأخبار . والسبب الثانى وهو الأخطر أنَّ الشعر فى التشبيب المحض كان على ظنّى عند عرب الجاهليّة نوعاً عامّيًّا تعاطاه أيضاً رعاعُ الناس فأهانه نوابغُ الشعراء وأهملوه وامتنعوا عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب فى أوّل قصائدهم . ولعلّ سبباً ثالثاً أيضاً عمِل فى كراهة الشعراء المجيدين المُفْلِقين للغزل وهو علوُّ منزلة النظم فى حياة العرب الاجتماعية لأنَّ غاية الشعر العالى إنَّما كان عندهم تعظيمَ الأكابر وتخليدَ ذكر مآثر القبائل والافتخارَ بالحماسة أو المَكْرُمات وهجاء الأعداء فلذلك لم يكن التشبيب المحض ممّا عُدَّ من مقاصد الشعر السامية .

أمّا فى خلافة علىّ بن أبى طالب وما يتبعها من الزمان فنجدُ بمكَّة والمدينة نوعاً جديدًا من الشعر أخذ يزهو بهما بَغْتَةً بل يغلب على سائر الأنواع فكاد

---

(١) كذلك نجد فى أبيات عامر بن الحارث النميرى الشاعر الجاهلى الملقب بجران العود غزلا يشابه غزل عمر بن أبى ربيعة الشاعر الأموى الذى سيأتى ذكره، فراجع القصيدة المروية فى آخر ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ ج ٢ ص ١٩٩ — ٢١١ [أو ديوان جران العود ص١٣ — ١٩ من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية فى أمالى القالى ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أما سبب لقبه بجران العود فانظر ماقاله عبد القادر البغدادى فى خزانته ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة فى كتاب الشعر ص٤٥٠ من طبعة ليدن .

أجْود الشعراء فى مدن الحجاز لا يتعاطَوْن غيرَهُ خلافاً لعُرْفهم فيا قبل . وهذا النوع الجديد هو الغَزَل ولعل أوّلَ من اشتهر به أبو دَهْبَل الجُمَحى من أشراف الناس بمكّة قال الشعر فى آخر خلافة علىّ ومدح معاوية وعبد الله ابن الزبير وغيرَهما من الأكابر . وهواه لعَمْرة مشهور قيل فى كتاب الأغانى[١] « إنّه كانت تتحدّث به أشراف قريش فى مجالسها وسوقة الحجاز فى أسواقها والسُّقاة فى مواردها » .وما صاغه أبو دهبل من الشعر فيها رقيقٌ ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل البادية المعروف . ويُروَى أنّه نظر عَرَضاً إلى عاتكة بنت الخليفة معاوية فى حجّتها وقال فيها أبياتاً شاعت بمكّة وشُهِرت فغنّى فيها المغنون فلمّا صدرت عاتكة عن مكّة « خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها فكانت تُعاهدُهُ بالبرّ واللطف حتّى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقائه »[٢] فأنشد شعرًا مشهورًا بلغ معاوية الذى أحضر أبا دهبل ولامه وقال له :

« أمّا من جهتى فلا خَوْفَ عليك لأنّى أعلم صيانة ابنتى نفسها وأعرف أن فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب فى كلّ من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يَجُزْ وإنّما أكره لك جوار يزيد[٣] وأخاف عليك وَثَبَاتِهِ » .

وإنّما أراد معاوية أن يهرُب أبو دَهْبَل . وفى ذلك قصّة طويلة وأشعار[٤] جارية مجرًى غيرَ مجرى نسيبِ الجاهلية . ثمّ سلك غيره من نوابغ الشعراء بمكّة هذا المسلك المبتدَع فقيل : « كانت العرب تفضل قريشاً فى كلّ شيء إلّا الشعر فلمّا نجَم فى قريش عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزومىّ والعَرْجىّ وأبو دهبل وعبد الله بن قيس الرُّقيّات أقرّت لها العرب بالشعر أيضاً »[٥] .

---

(١) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٥٨ — ١٥٩ من طبعة بولاق .
(٣) وهو ابن معاوية وأخو عاتكة .
(٤) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق .
(٥) كتاب الأغانى ج ٣ ص ١٠١ وراجع أيضاً ج ١ ص ٣٥ من طبعة بولاق .

وإن سألتمونى عن سبب هذا التقلُّب الشديد فى أساليب الشعر فى المدن الحجازيّة قلت : لا يخفى على أحد أنّ أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب فى أواخر خلافة علىّ بن أبى طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة والنُّسُك من الأنصار والمهاجرين كأنّ الدنيا فى الشام والدين بمدينة النبىّ . وكثُرت فى ذلك العصر ثروةُ الحرمين ولا سيمّا مكّة لاتّساع العلائق والمصارف التجاريّة ولزيادة الوافدين عليهما تأديةً لفريضة الحجّ . فبزيادة الثروة والنعمة واتّساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوسُ إليه من الشهوات والملاذّ والتنعُّم بأنواع الترَف وفسَدَت أخلاقُ الشُّبّان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التى لم تزل مجهولة عند العرب فى ذلك الزمان فاشتدّ ميلهم إلى التظرُّف والتغزّل وسَماع الغِناء وحضور الملاهى . وجُلبت إلى مكّة والمدينة القيناتُ المغنّيات بالرومىّ أو بالفارسىّ ثمّ أخذت الموالى يغنّون بالعربىّ أيضاً فقيل إنّ «أصل الغِناء أربعة نفر مكّيّان ومدنيّان فالمكّيّان ابن سُرَيْج وابن مُحْرِز، والمدنيّان مَعْبَد ومالك [بن أبى السَّمْح]»[1] ومنهم بل أقدمهم طُوَيْس المولود يوم وفاة النبىّ وهو أوّل من غنّى بالعربىّ بالمدينة وأوّل من ألقى الخَنَث بها وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها[2] ومنهم أيضاً الغَرِيض المغنّى بمكّة والمدينة صاحب عمر بن أبى ربيعة

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق — وابن سريج كان مولده فى خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى فى زمن عثمان بن عفان ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣ وابن محرز معاصر له — ومعبد بن وهب غنى فى أول دولة بنى أمية ومات فى أيام الوليد بن يزيد ١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤ بدمشق — ومالك بن أبى السمح مات فى أيام المنصور ١٣٦/٧٥٤ — ١٥٨/٧٧٥ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق — ويقال فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم — كان سائب مولى بنى ليث وقتل فى يوم الحرة ٦٣/٦٨٢ .

كثُرت فيه الحكايات ومات فى خلافة سليمان بن عبدالملك ($\frac{٩٦}{٧١٥}$ – $\frac{٩٩}{٧١٧}$)، ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سَرْد أسمائهم هنا . وممّا يدل على سعة العيش بمكّة فى النصف الثانى من القرن الأوّل ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى[1] أنّ عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجُمَحىّ قد اتّخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونَرْدات[2] وقِرْقات[3] ودفاتر فيها من كلّ علم وجعل فى الجدار أوتادًا فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ثمّ جرّ دفترًا فقرأه أو بعضَ ما يُلْعَب به فلعِب به مع بعضهم » . وفى وادى العَقِيق الذى كان منتزه أهل المدينة فى أيّام الربيع والمطر[4] أو فى مِنًى وسائر نواحى مكّة كان المتظرّفون من الفتيان لا سيّما فى موسم الحجّ ينتظرون ويلتقون النساء والبنات الحرائر ويحدّثونهنّ ويتغزّلون بهنّ . فإن أردتم مثالاً ممّا كان قدر كريمات النساء عند أكابر مكّة والمتغزّلين فهاكم ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى من أخبار الحارث بن خالد بن العاص المخزومىّ وهو أحد نوابغ شعراء قريش الغَزَليّين السابق ذكرهم أخو عِكْرِمة بن خالد المخزومىّ وهو محدث جليل من وجوه التابعين. إن عبد الملك سنة ٧٥ ولّى الحارث إمارةَ مكّة « فحج بالناس وحجّتْ عائشة بنت طلحة عامئذ وكان الحارث يهواها فأرسلتْ إليه أخِّرْ الصلاة حتّى أفرغ من طوافى . فأمر المؤذّنين فأخروا الصلاة حتّى فرغت من طوافها . ثمّ أقيمت الصلاة فصلّى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله وكتب إليه يؤنّبه فيما فعل فقال ما أهْون واللهِ غضبَهُ إذا

---

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) النرد هو ما يعرف اليوم بالطاولة .

(٣) قرقات جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق ١٣٠٠ – ١٣٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرطونى ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٤) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

رَضِيَتْ واللهِ لو لم تفرُغْ من طوافها إلى الليل لأخَّرتُ الصلاة إلى الليل »[١] . وله فى ذلك شعر مشهور[٢] . وربما كان فتيان مكّة من الأغنياء الظرفاء يرتحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصْعَب الزبَيْرِىّ قال[٣] : « اجتمع نِسْوةٌ فذكرن عمر بن أبى ربيعة[٤] وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه فتشوَّقْنَ إليه وتمنَّيْنه فقالت سُكَينة [بنت الحسين بن علىّ ابن أبى طالب] أنَا لكُنَّ به . فبعثت إليه رسولاً أن يوافىَ الصَّوْرَيْن[٥] ليلةً سمَّتْها فوافاهنَّ على رواحله فحدَّثهنَّ حتَّى طلع الفجر وحان انصرافهنَّ . فقال لهنَّ والله إنّى لمحتاجٌ إلى زيارة قبر النبىّ (صلعم) والصلاةِ فى مسجده ولكنّى لا أخلِط بزيارتكنَّ شيئاً ثمّ انصرف إلى مكّة فقال فى ذلك شعرًا معروفاً »[٦] . ومما يُرْوَى أيضاً من هذا الباب[٧] : «واعد عمر بن أبى ربيعة نسوةً من قريش إلى العقيق ليتحدَّثنَ معه فخرج إليهنَّ ومعه الغريض فتحدّثوا مليًّا ومُطِروا فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلُّوا عليهنَّ بمِطْرَفة[٨] وبردَيْن له حتّى استترن من المطر حتى سكن ثمّ انصرفن » فقال عمر فى ذلك أحد أشعاره[٩] . — وحسبنا هذا بياناً لأحوال عِيشة الظرفاء بالحرمين . فإن كان الأمر كذلك فلا عجب فى ابتداء نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه فحولُ الجاهليّة ولا أهلُ البادية ثمّ لا عجب أنَّ

---

(١) كتاب الأغانى ج ٣ ص ١٠٣ وراجع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ٣ ص ١١٣ — ١١٤ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ٤٧ .

(٤) وهو مقيم بمكة .

(٥) الصوران موضع بجوار المدينة المنورة .

(٦) ديوان عمر بن أبى ربيعة عدد ٢١٨ من طبعة ليبسك ١٩٠٢ .

(٧) كتاب الأغانى ج ١ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

(٨) رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٩) ديوان عدد ٥٢ من الطبعة المذكورة .

أكثر شعراء المدن الحجازيّة لم يتجاوَزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء وتركوا أسلوب القصيدة القديمة . ثمّ شاع حبّ التشبيب فى البلاد البعيدة عن الحجاز وغلب فى شعر بعض من أراد حفظ الأساليب القديمة والتكسُّبَ بالمديح فيروى فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتَيْبَة[1] أنَّ «بعض الرُّجّاز أتى نَصْر بن سيّار والى خراسان لبنى أميّة فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات فقال نصر : والله ما بقَّيْتَ كلمة عذبة ولا معنًى لطيفاً إلاَّ وقد شغلتَه عن مديحى بتشبيبك فإن أردتَ مديحى فاقتصد فى النسيب . فأتاه فأنشده :

هل تعرِف الدارَ لامّ الغَمْرِ دَعْ ذا وحَبِّرْ مِدْحَةً فى نَصْر

فقال نصر لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمْرَين » .

وأشهر شعراء الحرمين فى ذلك العصر وأنسبهم عمر بن أبى ربيعة المخزومى المذكور وُلد فى ليلة قُتل عمر بن الخطّاب أعنى فى ٢٦ ذى الحجة من سنة ٢٣ ومات على القول الأرجح سنة ١٠١ . أمّا قول البعض إنَّ عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دهْلَك القريبة من مدينة مصوَّع على سواحل البحر الأحمر الغربية فخطأ نشأ من خَلْط وقع بينه وبين صاحبه الأحْوَص . وكان عمر مفرطاً فى التشبيب بالنساء فكلّ جميلة رآها فى الشوارع أو فى الحجّ وقعت فى نفسه فذهب عقلُه عليها فلم يقلْ شيئاً من الشعر إلاَّ فى النسيب والغزل فكثيرًا ما أظهر فى أبياته أسماء الحرائر اللواتى هواهنّ مثل زينب بنت موسى ولُبابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثريا بنت علىّ وبَغُوم وأسماء وغيرهِنّ وربّما كاد يشين عِرْضهنّ . وفى القرن

(١) ص ١٥ من طبعة ليدن ، وراجع أيضاً كتاب العمدة لابن رشيق ج٢ ص٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الثانى خاف بعضُ الناس على الفتيات ما يمكن أن يهيجه شعره لقلوبهنّ فتُنْسب فى ذلك إلى الزبير بن بكّار هذه الرواية[١] : «قال حدَّثتنى ظَبْيَة مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصْعَب قالت : مررتُ بجَدّك عبد الله بن مصعب وأنا داخلةٌ منزله وهو بفنائه ومعى دفتر فقال ما هذا معكِ ودعانى فجئته وقلت شعر عمر بن أبى ربيعة فقال ويحكِ تدخُلين على النساء بشعر عمر ابن أبى ربيعة إنَّ لشعره لَمَوْقعاً من القلوب ومَدْخَلاً لطيفاً لو كان الشعرُ يسحَر لكان هو فارجعى به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً الزبير بن بكّار المتوفّى سنة $\frac{٢٥٦}{٨٧٠}$: «أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرًا من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلّى بمودّته والابتيار »[٢] . وجماعة من الأدباء أثْنَوْا على شعره كلّ الثناء وقالوا إنَّ عمر أشعر قريش لأنّه «رَقّ معناه ولطُف مَدْخَلُهُ وسهُل مخرَجُهُ ومتُن حَشْوُهُ وتعطَّفتْ حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته »[٣]. وممّن بلغ الغاية فى الإطراء مُصْعَب بن عبد الله بن مصعب حيث قال[٤] : «راق عمر بن أبى ربيعة الناسَ وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدّة الأَسر وحسن الوصف ودقّة المعنى وصواب المصدر والقَصْد للحاجة واستنطاق الرَّبْع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفّة المقال وقلّة الانتقال وإثبات الحجّة وترجيح الشكّ فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغَزَل ونهج العلل وعطف المَسَاءة على العُذّال وحسن التفجّع وبُخْل

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغانى بعد هذا النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشىء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأمالى القالى ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤].

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .

المنازل واختصار الخبر وصِدْق الصفاء إن قدح أورى وإن اعتذر أبرى وإن تشكّى أشجى وأقدم عن خِبْرة ولم يعتذر بغِرّة وأسَر النوم وغمّ الطير وأغذ السيْر وحير ماء الشباب وسهل وقوّل وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطَرْفه وأبرص بنعت الرُّسُل وحذروأعلن العتبّ وأسرّ وبطن به وأظهره وألحّ وأسفّ » إلخ . ومن الجرىّ بالاعتبار أنَّ شعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه الحجازيّين مع مداره على الغزل فقط. ومع قربه غير مرّة من الخَلاعة لم ينحطّ أبدًا إلى الفحش والمجون المحض الكثير وجودهُ فى غزل شعراء عهد العبّاسيّين ولكن ليس هنا موضع إيضاح سبب ذلك . ثمّ من الجدير بالذكر أيضاً أنَّ عمر بن أبى ربيعة وأكثرَ شعراء الحجاز لا سيّما مكّة فى زمن الأمويّين إلى أوائل القرن الثانى امتنعوا عن باب الخمريّات فى شعرهم امتناعاً تامًّا ولم يذكروا الخمر إلاّ فى التشابيه مثلَ قول عمر بن أبى ربيعة [١] :

تَنْكَلُّ عن واضح الأنيابِ مُتَّسِقٍ عَذْبِ المقبَّلِ مصقولٍ له أُشُرُ
كالمِسْكِ شِيبَ بذَوْبِ النَّحْلِ يخلِطُهُ ثَلْجٌ بصهباء ممّا عتّقَتْ جَدَرُ

أو مثل قوله [٢] :

إذا ابتسمتْ قلْت انكلالُ غَمامةٍ خَفَى بَرْقُها فى عارضٍ متهلّلِ
كأنَّ سحيقَ المِسْك خالَطَ طَعْمَهُ وريحَ الخُزامى فى جَديدِ القَرَنْفُلِ
بصهباء دِرْياقِ المُدامِ كأنّها إذا ما صَفَا راووقُها ماءُ مَفْصِلِ

وذلك مع أنَّ شُرْبَ الخمر غيرُ مجهول فى ذلك العصر بالمدينة [٣] فكان مثلاً الوليد بن عثمان بن عفّان والوليد بن عُتْبة بن أبى سفيان وعبد الرحمن

(١) ديوان عدد ٥، بيت ١٢ — ١٤ من الطبعة المذكورة . وجدر قرية بين حمص وسامية تنسب إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوربا .

(٢) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ إلى ١٣ من الطبعة المذكورة .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omaiyade Mo'âwia Ier*, Beirut, 1908, P. 412-415.

ابن أَرْطاة المعروف بابن سَيْحان وجُبَيْر بن أَيْمن وغيرهم من الخواصّ معاقرين للخمر متنادمين على الشراب . بيْد أنّه لم يذهب إلى مدحه إلاّ من ليس من الفحول المشهورين مثل ابن سَيْحان المذكور القائل الشعر فى الشراب والغزل والفخر والمديح وله مع ابن عمّه فى شرب الخمر قصّة غريبة وأبيات[1] أو مثل عبد الله بن أبي مَعْقِل بن نَهيك بن إساف الأنصاريّ القائل[2] :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عِيشة الفتى وجَدِّك لم أَحْفِلْ متى قامَ رامسُ

فمنهنّ سَبْقِى العاذلاتِ بَشرْبة كأَنَّ أخاها مَطْلِعَ الشمسِ ناعسُ

ومنهنّ تجريدُ الكواعب كالدُّمى إذا ابتُزَّ عن أَكْفالِهِنَّ الملابسُ

ومنهن تقْريطُ الجوادِ عِنانَهُ إذا استبقَ الشَّخْصَ الخَفِيَّ الفوارسُ

ويروى محمّد بن سلاّم الجُمَحيّ ما نصّه[3] : «وكان السَّرِىّ بن عبد الرحمن ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف وجُبَيْر بن أَيْمَن بن أمّ أيمن مولى النبيّ (صلعم) وخالد بن أبي أيوب الأنصاريّ وكانوا يشربون النبيذ وكلّهم كان على ذلك مقبول الشهادة جليل القدر مستوراً فقال السرىّ :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيْرًا ونازعتَ الزُّجاجة خالدَا

أَمِنْتَ بإذْن الله أن تُقْرَعَ العصا وأَنْ يُنْبِهوا من نَوْمة السُّكر راقدا

فقالوا قبّحك الله ماذا أردت إلى التنبيه علينا والإذاعة لِسِرنا إنّك لحقيق أن لا ننادمك . قال والله ما أردت بك سوءا ولكنه شعر طفَح فَقَثْتُه عن صدرى . قال وخالد بن أبي أيّوب الذى يقول :

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن ، وراجع كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أَلا سَقِّنِي كأْسي ودعْ قول مَنْ لَحَى ... ورَوِّ عِظاماً قَصرَهنَّ إلى بِلَى

فإنَّ بُطْءَ الكأس موتٌ وحَبْسَها ... وإنَّ دِراكَ الكأسِ عندي هو الحَيا

فلنرجع إلى سياق الكلام . لو أردنا ذكر شيء من أخبار جميع الذين ذهبوا مذهب عمر بن أبي ربيعة في مدن الحجاز في العصر الأمَويّ لاحتجنا إلى استغراق مدّة دروس . فحسْبُنا ذكر أسماء بعضهم منهم الأَحْوَص المدنيّ الأنصاريّ الذي مات جَدّه شهيداً يوم الرَّجيع في السنة الرابعة للهجرة وخالُهُ يوم أُحُد فلمّا سمع يوماً سُكَيْنة بنت الحسين تفتخر بقرابتها بالنبيّ قال[1] :

فخَرَتْ وانتمتْ فقلتُ ذَرِيني ... ليس جهلٌ أتيتِهِ ببديعِ

فأَنا ابن الذي حَمتْ لَحْمَهُ الدَّبـ ... ـرُ قتيلِ اللِّحْيان يوْمَ الرجيعِ

غَسَلَتْ خاليَ الملائكةُ الأَبـ ... ـرارُ مَيْتاً طُوبَى له مِنْ صريعِ

ولكن إن قطعنا النظر عن مرثيته لمعاوية التي قال فيها[2] :

مَلِكٌ تدينُ له الملوك مباركٌ ... كادت لِهَيْبته الجبالُ تزولُ

تُجْبَى له بَلْخٌ ودجلةُ كلُّها ... وله الفرات وما سقى والنيلُ

وعن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز[3] ، لم يكن عيشه وشعره إلّا في الغزل . فمن المعروف أنَّ عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دَهْلَك لفرْط تشبيبه بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة . ثم عُفِيَ عنه . ومات بدمشق بعد المائة بسنين قليلة . ولسان حال عيشته ما قاله في أحد أشعاره[4] :

أَلاَ لا تلُمْهُ اليومَ أنْ يَتَبَلَّدا ... فقد غُلِبَ المحزونُ أنْ يَتَجَلَّدا

---

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب الثاني والتسعين ج ٥ ص ١٥٨ من الطبعة الباريسية .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ — ٣٣١ من طبعة ليدن .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٥٩ من طبعة بولاق .

وما العيشُ إلّا ما تلَذُّ وتشتهى … وإنْ لام فيه ذو الشَّنَانِ وفَنّدا
بكيْتُ لصِّبا جَهْدًا فمَنْ شاءَ لاَمَنى … ومَنْ شاءَ وَاسى فى البُكاءِ وأَسْعَدا
وإنّى وإن عُيِّرتُ فى طلَب الصِّبا … لأَعْلَمُ أنّى لستُ فى الحُبِّ أَوْحَدَا
إذا كنتَ عِزْهاةً عن اللَّهْوِ والصِّبا … فكُنْ حَجَرًا من يابسِ الصخرِ جَلْمَدَا

ومن شعراء قريش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبى ربيعة فى ذلك المُجيدين العَرْجىّ[1] وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفّان من نَسْل عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممّن ذكروا نساء قريش فى شعرهم وشبّبوا بالحاجات كما قال[2] (من بحر الطويل) :

أماطتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهها … وأَدْنَتْ على الخدَّيْن بُرْدًا مهلهَلاَ
من اللاءِ لم يحْجُجن يَبْغِينَ حِسْبة … ولكن ليقتُلْن البرىءَ المغفَّلا

أو كما قال[3] فى جَيْداءَ أُمّ محمّد بن هشام أعنى أمّ خال الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ – ١٢٥/٧٤٣) :

عُوجى علينا ربّةَ الهوْدج … إنّكِ إلّا تفعَلى تحْرَجِى
أنّى أُتِيحَتْ لى يَمَانِيَة … إحدى بنى الحٰرِثِ من مَذْحِجِ
نلبَثُ حوْلاً كاملاً كلّهُ … ما نَلْتقى إلاّ على مَنهَجِ
فى الحجّ إنْ حَجّتْ وماذا مِنًى … وأَهْلُهُ إنْ هى لم تَحْجُجِ

وذكْرُ النساء فى الحجّ كثير فى أشعار أهل الحجاز أيام بنى أُميّة فمن

(١) مات بمكة فى أيام هشام بن عبد الملك .
(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦١ من طبعة بولاق – ماط : أبعد . وحر الوجه : ما بدا من الوجنة . وحِسْبَة الأجر والثواب .
(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفى الكامل للمبرد ص ٣٩١ من طبعة ليبسك سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أو ج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٤ الأبيات مروية بغير اسم الشاعر .

هذا القبيل شعر مشهور لمحمّد بن عبد الله النُّمَيرىّ من أهل الطائف قاله[1] فى زينب بنت يوسف بن الحَكَم أخت الحجّاج بن يوسف فاستحسنه الناس فى ذلك الزمان فقيل إنّ سعيد بن المسيَّب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المتوفّى فى أواخر القرن الأوّل مرّ فى بعض أزقّة مكّة فسمع رجلاً يغنى بذلك الشعر فلمّا وصل الغناء إلى البيت :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمانَ إذْ مَشَتْ ‏ ‏ به زينبُ فى نِسْوةٍ عَطِرَاتِ

ضرب برجله وقال : هذا والله مما يلَذُّ استماعُهُ[2]. وللنميرىّ أشعار كثيرة فى زينب ينشبّب بها وله قطعةٌ يرثيها فيها فلم يُعْرَف له مما غيرُ هذا الغزل إلا أبيات وصف فيها خوفَهُ من الحجّاج بن يوسف وهروبَه منه إلى اليمن[3]. ومن شعراء المدينة المشهورين بالغزل عبد الله بن مسلم بن جُنْدَب الهذلى وتروى له قصائد لغزال يراه «يأوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا» وفيها أيضاً افتخار[4] . ومن الحرىّ بالذكر أنّ الكَلَف بالنسيب وسماع الغناء قد عمّ كلّ أجناس النّاس بمدن الحجاز فمن المشغوفين بهما غير واحد من الفقهاء الموصوفين بالعلم والفضل والنُّسْك . فيُنْشَد لعبيْد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود الشهير بعُبَيْد الله بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة من أعلام التابعين المتوفّى سنة ١٠٢ وقيل ٩٩ وقيل ٩٨ هذه الأبيات المرويّة فى حماسة

---

(١) كتاب الأغانى ج ٦ ص ٢٥ — ٢٦ و ٣٠ من طبعة بولاق والعقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ ، ويوجد الشعر فى تمامه فى NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, p. 21-22.

(٢) كتاب الأغانى ج ٦ ص ٣٠ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٦٤٧ — من طبعة ليبسك ١٨٦٦ — ١٨٧١ فى مادة عرفات . أعجب هذا الشعر عائشة بنت طلحة (الأغانى ج ٦ ص ٣٠ وج ١٠ ص ٦١) واهتزّ هارون الرشيد طرباً عند سماعة (الأغانى ج ٦ ص ٣١) .

(٣) كتاب الأغانى ج ٦ ص ٢٨ من طبعة بولاق .

(٤) القصائد مروية فى ديوان الهذليين عدد ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ من طبعة برلين ١٨٨٤ .

أبي تمام[١] وفي كتاب الأغاني[٢] وفي وفيات الأعيان لابن خلّكان[٣] :

شَقَقْتِ ٱلقلبَ ثمّ ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ فالْتَأَمَ الفُطورُ

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُؤادي فبَادِيهِ مع الخافي يَسِيرُ

تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سرورُ

وله في عثمة هذه التي تزوّجها أشعار كثيرة ، وله أيضاً في امرأة من هُذَيْل غاية في الجمال أتت المدينة وكادت تذهب بعقول أكثر الرجال أبياتٌ يذكر فيها أسماء أشهر فقهاء المدينة ويستشهدهم على وفرة مودّته لها[٤] .
ونستفيد من عدّة روايات قديمة نُقلت في كتاب الأغاني أنّ سعيد بن المسيّب السابق ذكره الذي قال فيه ابن خلكان[٥] إنّه كان « سيّد التابعين من الطراز الأوّل جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع » أحبّ سَماعَ الغناء وإنشادَ أبيات الشعراء الغزليين والحُكْمَ في جودتها فقال جامع بن مُرْخِيَة الكِلابيّ فكاهةً[٦] :

سألتُ سعيد بن المسيّب مُفْتِي الـ مدينة هل في حُبّ ظَمْيَاءَ من وِزْرِ

فقال سعيد بن المسيّب إنّما تُلام على ما تستطيع من الأمر

وعُرْوَة بن أُذَيْنة من أعيان فقهاء المدينة والمحدّثين روى عنه مالك بن أنس وغيره كان أيضاً من شعراء غزلٍ مقدّمين وله الأشعار الرائقة غنّي فيها

---

(١) كتاب الحماسة ص ٥٩٤ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٨ من طبعة بولاق وتليها ثلاثة أبيات أخرى .

(٣) كتاب وفيات الأعيان عدد ٣٦٣ من طبعة غوتنجن أو ٣٢٩ من الطبعات المصرية . — ومن الغريب أن البيت الأول (وفيه صدعت بدلا من شققت) والثالث ينسبان إلى قيس بن ذريح في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١١٧ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ — ٩٧ من طبعة بولاق . روى له ابن عبد ربه في عقده ج ٣ ص ١٠٠ بعض الأبيات في الغزل .

(٥) وفيات الأعيان عدد ٢٦١ من طبعة غوتنجن أو ٢٤٨ من الطبعات المصرية .

(٦) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ .

المغنّون ولم يقلْ فى غير الغزل شيئاً سوى مرثية لأخيه بَكْر [١] .

ومن المفتونين بسماع الغناء والأشعار فى التشبيب أبو السائب المخزومىّ من أهل المدينة قيل إنّه كان «رجلاً صالحاً زاهدًا متقلِّلاً يصوم الدهر وكان أرقّ خَلْق الله وأشدَّهم غَزَلًا»[٢] وقيل أيضاً إنّه «كان يصلّى فى كلّ يوم وليلة ألفَ ركعة»[٣] وعلى ذلك له مع الشعراء والمغنّين والمغنّيات عدّة نوادر وروايات يطول ذكرها هنا فيكفينا ما رُوِى عن مُصْعَب بن عبد الله بن مصعب[٤] : «قال حضر أبو السائب المخزومىّ مجلساً فيه بَصْبَص جارية يحيى بن نفيس فغنّتْ :

قلبي حبيس عليكِ موقوفُ والعينُ عَبْرَى والدمع مذروفُ
والنفس فى حَسْرة بغُصّتها قد شَفَّ أرْجاءها التساويفُ
إن كنتِ بالحُسْن قد وُصِفْتِ لنا فإنّنى بالهوى لَمَوْصوفُ
يا حسْرَتَا حسرةٌ أموتُ بها إن لم يكن لى لديكِ معروف

قال فطرب أبو السائب ونعَرَ وقال لا أعرف لله قدْرَهُ إن لم أعرفْ لكِ معروفكِ ثمّ أخذ قِناعها عن رأسها وجعل يلطِم ويبكى ويقول لها : بأبى واللهِ أنتِ إنّى لأرجو أن تكونى عند الله أفضلَ من الشهداء لِما تُولّيناه من السرور

---

(١) راجع كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٦٢ — ١٧٢ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٧ — ٣٦٨ من طبعة ليدن وحماسة أبى تمام ص ٥٦٩ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٤٣ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٦٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٥٤ من الطبعات المصرية (ترجمة سكينة بنت الحسين) والعقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعه مصر ١٣٠٥ . [وكتاب المؤتلف للآمدى ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة مصر ١٣٥٤ والبيان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٠٩ سطر ٨ .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ١١٨ من طبعة بولاق — سوف : مطله وقال له مرة بعد مرة سوف أفعل نعر : صاح وصوت بخيشومه — لطم : ضرب خده أو صفحة جسده بالكف مفتوحة .

وجعل يصيح واغَوْثاه يالله لِما يَلقَى العاشقون » . — وكذلك عَطاءُ بن أبى رَباح المتوفَّى سنة ١١٤ أو ١١٥ من أجلَّاء الفقهاء والزُّهّاد بمكَّة كان يهتزّ طَرَباً حين سمع غناء ابن سُرَيج والغريض فى الأشعار الغزليّة [١] فلم يستقبح إلّا ما ورد أحياناً فيها من قلّة احترام مناسك الحجّ [٢] . ومن المشهور أنّ عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىّ من قُرّاء أهل مكّة الملقَّب بالقس لعبادته لما سمع غناء سلامة من المولَّدات القيان افتتن وشُغفَ بها وقال فيها الأبيات والقصائد [٣] . — وخلاصة القول أنّ سكّان المدن الحجازيّة فى أيّام بنى أميّة إنّما أرادوا من الشعرِ الغزلَ فلا عجب فيما رواه عبد الله بن مَسْلَمة بن أسْلَم «قال لقِيتُ جريرًا فقلتُ له يا أبا حَزْرَة إنّ شعرك رُفع إلى المدينة وأنا أحبّ أن تُسْمِعَنى منه شيئاً . فقال إنّكم يا أهلَ المدينة يُعْجِبكم النسيب وإن أنسب الناس المخزومىّ يعنى عمر بن أبى ربيعة » [٤].

٢ — وهذا أوان الشروع فى الكلام على الصنف الثانى من الشعر فى أيّام بنى أميّة وهو النسيب عند الأعراب . قد تقدّم أنّ فحول شعراء الجاهليّة لم يُفرِدوا للنسيب والغزل أشعارًا خاصّةً وإنّما أدرجوهما فى ضمْن قصائدهم ولم يُطيلوهما . أمّا نحو أواسط القرن الأوّل للهجرة وفيما يليها فأخذت بعض شعراء أهل الوَبَر المعدودين يقولون القصائد فى مجرّد النسيب بل لا يتعاطَوْن غيره وصناعتهم بعيدة عن أسلوب أشعار الجاهليّة وعن منهج الغزليين

---

(١) كذلك كتاب الأغانى ج ١ ص ١٠٠ و ١٠٩ — ١١٠ و ١٢٦ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) انظر بيتاً للعرجى فى الأغانى ج ١ ص ١٦٢ و ج ٢ ص ١٢٢ و ج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٦ — ٩ من طبعة بولاق — ومن الفقهاء الناسكين الشعراء الذين كان نسيبهم رقيقاً وتشبيبهم عجيباً عبد الله بن مبارك وشريح الذى كان قاضياً فى أيام على بن أبى طالب ومعاوية فانظر العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ٣٦ من طبعة بولاق .

من أهل المدر فإنّهم لا يعشَقون إلّا امرأةً واحدةً جعلوا عيشهم فِداءها ولا يتغزّلون ولا يفتخرون بنيل وصلها وإنّما يُظْهِرون فى شعرهم رقّة القلب وشدّة الحُنُوّ ويُكْثرون فى بيان الصّبابة وتوجُّع الكآبة وقَلَق الأشواق وألم الفراق وفَرْط الحُزْن والغمّ واليأس وكلٌّ ذلك مصوغٌ فى قالب رشيق مترجَم بلفظ رقيق وكلامٍ لطيف عفيف لا يدخل فيه شىءٌ من الخلاعة والشّهْوة الدنيّة .

وممّا أستلفتُ أنظاركم إليه أنّ هولاء الشعراء جميعهم من قبائل قاطنة فى الحجاز أو شمالىّ اليمن ليست منازلها بعيدةً عن أحد الحرمين فكانت مثلاً بنو عُقَيْل مقيمين بالتهامة عن جنوبىّ مكّة وبنو لَيْث من كِنانة بظاهر المدينة وكانت بنو عُذْرة يسكُنون وادى القُرَى وما يليه فى الطريق من المدينة إلى الحِجْر وتبوك . ثم ممّا يجب تنبيهُكم إليه أنّ تلك القبائل إمّا كانت بنواحى اليمن مقيمة أو من اليمن متأصّلة كأنّ رقّة القلب أكثر فى أهل اليمن منها فى غيرهم[1] فورد فى كتاب الأغانى[2] عن المدائنى ما نصه :

«قال ابن دأب قلت لرجل من بنى عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً . قال أَوَقَدْ فرغنا من شعر العقلاء حتّى نروى أشعار المجانين إنّهم لكثيرٌ . فقلت ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق . فقال هَيْهات بنو عامر أغلظ أكبادًا من ذاك إنّما يكون هذا فى هذه اليمانية الضّعافِ قلوبُها السخيفةِ عقولُها الصلعة[3] رءوسُها ، فأمّا نِزارٌ فلا» . فى بعض الأشعار تلميحات إلى رقّة قلب أهل اليمن ؛ ففى قصيدة

---

(١) قال ابن الفقيه الهمذانى فى كتاب البلدان ص ٣٣ من طبعة ليدن ١٣٠٢ ما نصه : «ولما جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم أهل اليمن أرق قلوباً منكم وهم أول من جاءنا بالمصافحة» .

(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق وراجع أيضاً ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) [هكذا فى طبعة بولاق وفى طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص٣ : صعلة وهو الأصح] .

منسوبة إلى مجنون لَيْلَى العاشق الساكن فى نَجْد[1] :

وإنِّى يمانِىُّ الهَوَى مُنْجِدُ النوى سبيلانِ أَلْقَى من خِلافهما جَهْدَا

ولعلّ من أقدم من اشتهر من هؤلاء الشعراء العشّاق الذين ضُربت بهم الأمثالُ وكثُرت فيهم الحكايات والروايات الخياليّة فى كتب الأدب تَوْبة ابن الحُمَيِّر من قوم بنى عُقَيْل (وهى فرع من ربيعة بن عامر بن صَعْصَعة) كان كثير الغارات على أعداء حيِّه فقُتل فى إحدى غاراته فى مدّة خلافة معاوية (٤١/٦٦١ — ٦٠/٦٨٠) . وعشقه للَيْلَى الأَخْيَلِيّة وشعره فيها مشهوران . ومن مُستجاد شعره هذان البيتان[2] :

لَوْ أنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيّة سَلَّمَتْ عليّ ودُونِى تُرْبَةٌ وصفائحُ

لَسَلَّمْتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زَقَا إليها صَدًى من جانب القَبْرِ صائحُ

ومن أجود ما قاله قصيدة أولها[3] :

نَأَتْكَ بلَيْلَى دارُها لا تزورُها وشطَّتْ نَواها واستمرَّ مَرِيرُها

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١١ من طبعة بولاق . — وكان بنو عامر نزاريين وسكنوا فى جبل السراة بأرض نجد .

(٢) البيتان مرويان فى حماسة أبى تمام ص ٥٧٦ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٥٠ من طبعة بولاق وفى الأغانى ج ١٠ ص ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٠ من طبعة ليدن وفى الأغانى والحماسة يليهما بيت ثالث لا يتصل معناه بما تقدم اتصالا تاما جليا ويوجد فى مكانه فى كتاب ابن قتيبة وكتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ (ص ١٨٩ — ١٩٠ من طبعة ليدن ١٨٩٨) البيت :

ولو أن ليلى فى السماء لأصعدت بطرفى إلى ليلى العيونُ اللوامح

صدى : طائر تقول عرب الجاهلية إنه يخلق من رأس المقتول ولا يزال يصيح فى رأسه إذا لم يؤخذ بثأره يقول « اسقونى اسقونى» حتّى يقتل قاتله .

(٣) أول القصيدة (٧ أبيات) فى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٩ — ٢٧٠ من طبعة ليدن والباقى فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٦٩ من طبعة بولاق وبيتان فى حماسة أبى تمام ص ٥٩٤ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة بولاق وكل الأبيات فى NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 5-6.

إلّا أنّه ختمها بأبيات تخرج عن النسيب وتدلّ على كثرة قطعه الفيافى الهائلة وعلى اقتحامه الأخطار فهى على أسلوب شعر أهل البادية من الجاهليّة [١] :

وأدْمَاء من حرّ المَهَارى كأنّها مهاةُ صحارٍ غيرُ ما مسّ كُورُها

قطعتُ بها أجوازَ كلّ تنوفة مَخوفٍ رَداها كلّما آستنّ مُورُها

ترى ضُعفاء القوم فيها كأنّهُمْ دعاميصُ ماءٍ جَفّ عنها غديرُها

أمّا سائر الذين اشتهروا من شعراء هذا الصنف فتركوا كلّ شىء من الحماسة ووصف الناقة والقفار وامتنعوا فى قصائدهم عن كلّ ما هو غير وصف حال المتيّم وذكر حرّ الشوْق واللوْعة . ومنهم قَيْس بن ذَريح الكِنانىّ اللّيْثى رضيع الحسين بن علىّ بن أبى طالب مات سنة ٦٨ وكان منزل قومه فى ظاهر المدينة . ومن المشهور أنّ لُبْنَى من بنى كعب بن خُزاعة وهم قوم أصلهم من اليمن وسكناهم فى بطحاء مكّة بسرف [٢] (بين مكّة وبطن مَرّ) وقعت فى نفسه فتزوّجها وبعد مدّة طلقها كارهًا فذاب كبده وجدًا عليها وصَبابة بها فقال فيها القصائد المُشجية . فعلى ما يُرْوَى [٣] « شُهِرَ أمرُ قيس بالمدينة وغنّى فى شعره الغَرِيض ومَعْبَد ومالك وذو وهم فلم يبْقَ شريف ولا وضيع إلّا سمع بذلك فأطربه وحزِن لقيس » . — ومن عُشّاق العرب الذين قتلهم الهوى عُرْوة بن حِزام العُذرى لا يُعْرَف له شعر إلّا فى عفرآء وهى

(١) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٦٩ . آدم : أسمر — مها : نوع من البقر الوحشى — كورٌ رحلٌ — أجواز جمع جوز وهو وسط الشىء — تنوفة المفازة الواسعة — ردى يردى ردى هلك — استن اضطرب — المور الغبار المتردد والتراب تثيره الريح — دعاميص جمع دعموص دويبه أو دودة سوداء تكون فى الغدران .

(٢) سرف بفتح السين المهملة وكسر الراء موضع على ستة أميال من مكة (انظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٧٧ — ٧٨ من طبعة ليبسك ومعجم ما يستعجم البكرى ص ٧٧٢ — ٧٧٣ من طبعة غوتنجن ١٨٧٦) وقيل فى الأغانى ج ٨ ص ١١٣ من طبعة بولاق [وكذا أيضاً فى ج ٩ ص ١٨١ حاشية ١ من طبعة دار الكتب المصرية] إن سرفا على ستة أيام من مكة وهو تحريف .

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٢٨ من طبعة بولاق .

بنت عمّه كان تـألّفها إلفًا شديدًا وهما صغيران يلعبان معًا فلمّا شبّا خطبها
ولكنّ عمّه زوّجها برجل من البَلْقاء تحمّلها إلى بلده عن شرقىّ بُحَيْرة لوط
فتبعتْها نفسه واشتدّ وجدًا بها حتّى جُنّ فكان ذلك فى أيّام خلافة عثمان
ابن عفّان (٢٣/٦٤٤ - ٣٥/٦٥٦) إن صحّ خبرٌ مرتقٍ إلى الهَيْثَم بن عدىّ [١] المتوفّى
سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧ أو ٢٠٩ فإذًا كان عروة بن حِزام أقدم الشعراء المتيّمين
المعروفين . وشعره لطيف ظريف لكنّنا لم نعثُر على ذكر من غنّى فيه من المغنّين
قبل عهد بنى العبّاس كأنّه لم ينتشرْ صِيتُهُ إلّا نحو أواسط القرن الثانى .

ومن العُذريّين أيضاً جميل بن عبد الله بن مَعْمَر وهو المقدّم على سائر
شعراء النسيب من أهل البادية وقصّته مثل قصّة عروة بن حزام أعنى أنّه
« عشِقَ بُثَيْنة [العُذريّة] وهو صغير فلمّا كبر خطبها فرُدّ عنها فقال الشعر
فيها » [٢]. وكان سُكناه بنواحى تيْمَاءَ ووادى القُرَى وقيل إنّه مات سنة
٨٢ [٣] وأشعاره مشهورة لحُسْن اللفظ وصَقالته وتدبيج أجزائه ودقّة المعنى وهى
صادرة عن قلب صادق الصبابة والعشق . فمن أشهر أبياته قوله [٤] :

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٩٧ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٥٧ سطر ٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى فى الباب التاسع عشر بعد المائة (ج ٧ ص ٣٥٣ من الطبعة الباريسية) .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٠ من الطبعة الليدنية .

(٣) قال ابن خلكان إن جميلا توفى سنة ٨٢ هجرية فى مصر (وفيات الأعيان عدد ١٤١ من طبعة غوتنجن أو عدد ١٣٨ من الطبعات المصرية) وراجع حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ج ١ ص ٢٥٦ من طبعة مصر المطبوعة على الحجر – فاعتنى المستشرق الإيطالى Francesco Gabrieli بجمع أبيات جميل العذرى المتبددة فى كتب الأدب وغيرها وبضبطها وانتقادها (انظر مقالتيه *Giamil al-'Udhri; studio critico e raccolta dei frammenti*, Rivista degli Studi Orientali, XVII, 19947,P.40-71 et 133-172;*Contributi alla interpretazione di Giamil*,Riv.degli Studi Orientali, XVIII, 1939, P. 173-198. وفى نفس الوقت جمع بشير يموت أبيات جميل وطبعها بعنوان ديوان جميل فى بيروت سنة ١٣٥٢] .

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ٥١ و ج ٣ ص ١٤٨ و ج ٧ ص ٧٩ و ١٠٢ و ١٠٣ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٨ من طبعة ليدن .

خليليّ فيما عِشتُما هل رأيتما   قتيلًا بكى من حبّ قاتله قَبْلِي

الذى أخذه أبو العتاهية حين قال :

يا من رأى قبلى قتيلًا بكى   من شدّة الوجد على القاتل

ومن الغريب أنّ صبابته كانت سبب نُشوب عداوة بينه وبين بنى الأَحَبّ من عذرة وهم رهط بثينة فهجاهم فهجَوْه[1] وهذا منهج لم يذهب إليه غيره من شعراء هذا الصنف . ولمّا اشتد التهاجى بينه وبين جوّاس بن قُطبة أحد بنى الأَحبّ تنافرا إلى يهود تَيْماء فى قصّة تجدونها فى كتاب الأغانى[2] .

أما من نال فى الشهرة الغاية القُصْوَى من قتلى الهوى وذلك لوفرة ما روى فيه من القصص المتّصلة والمنقطعة ومن الأخبار المنثورة والمنظومة قَيْس ابن المُلَوَّح العامرىّ الملقّب بالمجنون أو مجنون بنى عامر أو مجنون لَيْلَى لذهاب عقله بشدّة عشقه ليلى العامريّة التى كره أبوها أن يزوّجه إياها فزوّجها رجلاً آخر . ولا يخفَى على أحد أنّ الرواةَ ذهبوا كلّ مذهب فى نقل رواياته وأخباره وفى وصف شدّة وجده الذى اصفرّ بسببه وشحَب وهزَل وأخذ يهيم فى القفار مع البهائم ويتوحّش مع الوحش فى البرارى وغير ذلك من الحكايات المتعدّدة . فزعم بعض الناس أنّه رجل لم يكن قط . ولا عرف فى الدنيا إلّا باسم المجنون لأنّه وضعه الرواة فيُعْزَى إلى ابن الكَلْبى النسّابة الشهير المتوفَّى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هذا القول :[3] « حُدّثتُ أنّ حديث المجنون وشعره وضعه فتًى من بنى أمية كان يهوى ابنة عمّ له وكان يكره أن يُظْهِر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يرويها الناس للمجنون ونسبها

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٩٣ و ٩٤ و ١٠١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ١١٢ — ١١٣ وقيل فى كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٢٦١ من طبعة ليدن) إن جواساً كان أخا بثينة وأحب أخت جميل وهذا على الأرجح غير صحيح .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

إليه » . وفى قول يرتقى سَنَدُهُ إلى عَوَانة بن الحَكَم الكلبيّ[١] المتوفَّى سنة ١٤٧ : « المجنون اسم مستعار لا حقيقة له وليس له فى بنى عامر أصل ولا نسب . فسئل مَنْ قال هذه الأشعار فقال فتًى من بنى أميّة » . أمّا غيرهما من علماء اللغة والأدب فما شكّوا فى وجود المجنون فقال الأصمعى[٢] المتوفَّى نحو سنة ٢١٦ : « لم يكن مجنوناً ولكن كان فيه لُوثة كلوثة أبى حيّة النُّمَيْرىّ » . وزاد فيه ابن قُتَيْبة[٣] : « هو من أشعر الناس على أنّهم قد نحلوه شعراً كثيراً رقيقاً يُشْبِه شعرَهُ » . فهذا أيضاً رأى الجاحظ حيث قال[٤] : « ماترك الناس شعراً مجهول القائل قيل فى ليلى إلّا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً هذه سبيلهُ قيل فى لُبْنَى إلّا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح » . فلذلك قال صاحب كتاب الأغانى فى ترجمة مجنون ليلى[٥] : « وأنا أذكر ممّا وقع إلىّ من أخباره جُملا مستحسَنة متبرئاً من العُهْدة فيها فإنّ أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيْتُ عنه إليه وإذا قدّمتُ هذه الشريطة برئتُ من عيبِ طاعنٍ ومتّبِـعٍ للعيوب » . وعلى كلّ حال لا شكّ أن شهرة المجنون وشعره قد ذاعت بعد منتصف القرن الأوّل للهجرة إذ غنّى فى شعره ابن مُحْرِز والأخضر الجدّى من مُغنّى المدينة فى ذلك العصر فكان المجنون معاصراً لقيس بن ذريح إن صحّت الرواية المذكورة عن الهَيْثَم ابن عدىّ فى كتاب الأغانى[٦] وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبة[٧] وكتاب

---

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٧ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٥٥ من طبعة ليدن . لوثة : مس الجنون .

(٣) كتاب الشعر ص ٣٥٥ من الطبعة المذكورة .

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٧٠ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٤ — ١٥ وراجع ج ٢ ص ١٧ (لقاؤه لقيس بن ذريح) .

(٧) كتاب الشعر ص ٣٦٠ — ٣٦٣ من طبعة ليدن .

مروج الذهب للمسعودي[1] ثمّ من المشهور أنّ أهل التصوّف بعد القرن الخامس أحبّوا قصة المجنون وليلى لما رأوا فيها من أسنى الكناية عن أسرار النفس البَشَريّة ومن الرمز إلى اشتياق النفس الخالية عن الأهواء الدنيّة إلى الرجوع إلى الله والاقتران بذاته . فبقيس بن الملوّح المجنون وهواه مثّلوا الذى وصل إلى أسمى منزلة من الطُّهْر والعَفاف وأشاروا إلى شدّة حبه لله وشوقه إلى وصله . أمّا ليلى الطاهرة الموصوفة بغاية الرونق كأنّ جمالَها لا يُمثّل وكمالَها منقطعُ النظير فصارت عندهم إشارة إلى بهاء اللاهوت ولألاء النور الأزليّ فكثُر ذكر ليلى العامرية وعوالى نجد فى ديوان عمر بن الفارض وذهبت شعراء الفُرْس والترك إلى نظم الأناشيد الطويلة المحتوية على ألوف أبيات بلُغتهم يقصّون فيها قصّة أخبار ليلى والمجنون إشارة إلى أسرار الطُّرُق الصوفيّة .

ومن شعراء أهل القبائل المقدّمين المشتهرين بهذا النوع من النسيب أبو صخر الهُذَليّ وكُثيِّر عَزّةَ ولكن بما أنّهما ذهبا أيضاً إلى قول الشعر فى المديح والهجاء والسياسة والمباحث الدينيّة وجالسا بنى أميّة بدمشق أرى من المناسب عدّهما من غير هذا الصنف .

٣ ـ فلننتقل إلى الكلام على شعر الصنف الثالث أعنى الشعر على أسلوب فحول الجاهليّة .

قد تقدّم وصف كَلَف أهل المدن الحجازيّة فى القرن الأوّل بنوع من الشعر كاد لم يسبَق إليه مشاهير القدماء وهو الغزل الذى لم يتعاطَ غيره شعراء مكّة والمدينة والطائف فى ذلك العصر . وتقدّم أيضاً أنّ شعراء أهل القبائل فى الحجاز وما يليها من أراضى نجد واليمن اختصوا بالنسيب وأفردوا له

---

(١) فى الباب التاسع عشر بعد المائة ج ٧ ص ٣٥٦ — ٣٦٠ من الطبعة الباريسية .

القصائد الرائقة الطويلة خلافاً لعرف نوابغ الشعراء قبل الإسلام . فبالجملة وجدنا فى الحجاز للشعر انقلاباً شديداً وانحرافاً ظاهراً عن أساليبه القديمة . ولكن إذا التفتنا إلى الشام وأمعنّا النظر فى حال الشعر بدمشق عند بنى أميّة إلى آخر القرن الأوّل تعجّبنا من وجود قريض الشعر هناك جارياً مجرى فنون الشعر الجاهلىّ وكون أكثر الشعراء الوافدين على الخلفاء الأمويين النائلين منهم الجوائز البهيّة الجزيلة مقتدين فى نظمهم الجيّد بمن سبقهم قبل ظهور الإسلام . وحسبنا ذكر الأخطل وجرير والفرزدق وذى الرمّة . وما سبب بقاء الأساليب القديمة فى نفس عاصمة الشام على تقلّبها بأرض الحجاز ؟

أوضحت فيما تقدّم تغير أحوال مدن الحجاز الاجتماعية بعد ظهور الإسلام وزيادة الثروة والرفاهية والترّف فيها وقلّة اشتغال أبنائها الأغنياء بأمور الحرب والسياسة وعدم اعتنائهم بالعلوم النظريّة العقليّة المجهولة إذ ذاك للأمة العربيّة . فرأيت أنّ تلك الأحوال الخاصّة كانت سبباً لحَصْر شعراء المدن الحجازيّة شعْرَهم فى النسيب والغزل ونهْجِهم فى ذلك طُرُقاً غير مألوفة عند نوابغ شعراء الجاهليّة الذين كانوا جميعهم يسكنون بعيداً عن تلك المدن . أمّا أحوال الشام فى القرن الأوّل فإنّها مختلفة عن أحوال الحرمَيْن . كان مُعْظَمُ أهل الشام من غير الناطقين بالضاد فلم يمكنهم تعاطى الشعر العربىّ ولا فَهْمُ محاسنه فمن الضرورىّ أن ينفرد به هناك العربُ المقيمون ببادية الشام من زمان قديم أو المرتحلون عن الأنحاء الشاميّة فى عهد الفتوح وبعدها . ومَن جمع الأخبار المتفرقة فى كتب العرب والروم وأعمل فيها الفكر تلقّى أنّ مدن الشام الكبيرة مثل دمشق والقُدْس وحِمْص وأنطاكية بقيت إلى أواخر القرن الأوّل على ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامى تقريباً

لقلّة مَن استوطنها من العرب فإنّهم اختاروا السُّكْنى فى المدن الصغيرة والقُرَى لا سيّما فيما يلى أطراف البادية مثل الرُّصافة وتَدْمُر وحُوّارين وجابية[١] . ثمّ إن قطعنا النظر عن رجال السياسة ورؤساء الجنود وهم كما تدرون أغلبهم من قُرَيش مثل بنى أميّة وجدنا أنّ الذين أقاموا بالشام من العرب إنما كانوا من أهل البادية والقبائل لا سيما من نجد واليمن لأنّ سكان مكّة والمدينة والطائف والمدن اليمنيّة الكبرى لم يفارقوا أوطانهم ذات ثروة ورَخاء للاستقرار فى بلاد بعيدة . ولعلّ اليمنيّين والذين انتسبوا إلى قحطان فاقوا فى الشام القيسيين عدداً فإليهم خصوصاً استند الأمويون لتأييد ملكهم[٢] . ثمّ زيدوا على ذلك أن الأوّل من خلفاء بنى أميّة لأغراضهم السياسيّة أحبّوا المصاهرة فى كَلْب وهم قبيلة عظيمة من أولاد قحطان القُضاعيّين سكنوا المفاوز الواسعة الواقعة بين نجد والعراق والشام فلهم تَدْمُر وسَلِيمَة وتبوك ودُومة الجَنْدَل وبادية السّماوة فتزوّج معاوية بن أبى سفيان امرأتين كلبيّتين أعنى نائلة بنت عمّار وميسون بنت بَحْدَل فولدت له ميسونُ يزيد الذى لمّا شبّ تزوّج امرأة كلبيّة أيضاً[٣] . فكانت أهل البدو يفدون إلى بنى أميّة أفواجاً فلاطفهم الخلفاء وأنعموا عليهم ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عيشة السريان والروم القاطنين بالمدن الشامية لم تزل قليلة التأثير فى أميال العرب وعوائدهم إلى نحو أواخر القرن الأوّل ولا فتنَتهم ولا أخذت بمجامع قلوبهم كأنّ حُبّ البادية أشدّ من

---

(١) H. LAMMENS, *Etudes sur le régne du calife omaiyade Mo'âwia Ier*, Beyrouth 1908, P. 8; H. LAMMENS, *La Bâdia et la Hira sous les Omaiyades*, Mélanges Faculté Orientale, Beyrouth 1910, IV, P. 91 n. 1 [*Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth 1930, P. 325].

(٢) A. VON KREMER, *Culturgeschichte des Orients unter den Califen*, Wien 1875-77, II, P. 141; LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*, P. 8-9, 50-54.

(٣) أما مصاهرة معاوية ويزيد فى بنى كلب فانظر ما قاله الأب لامنس فى كتابه : *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*, P. 309-312, 418.

الرَّغبة فى سعة العيش والترَف ولذّات المدن . وعلى ذلك دلائل متعددة اعتنى حديثاً بجمع أهمّها الأب هنرى لامّنْس[١] فقال إنّ العرب بعد الفتح عند احتلالهم البلاد الممصّرة «رأوا فيها أنفسهم كالغريب الذى اعتاد سُكنى وطنه فلا يُطيق العيشة فى غيرها . وكذلك العرب فإنّ مدن الشام مع سعتها ضاقت عليهم بعد توطُّنهم فى البوادى يتجوّلون فيها كيف شاووا . وكانّ عمر بن الخطّاب شعَر بما لقيهُ العرب من الجهد والعناء فى سكنى المدن فأراد أن ينشئ لهم فى العراق على طَرَف الصحراء دساكر[٢] يقطُنونها ليعتادوا التمصير والعيشة المدنيّة تدريجاً كما يؤخذ من روايات فتوح البلدان للبَلاذُرىّ [المتوفى سنة ٢٧٩] . وليس البصرتان فى العراق أى البصرة والكوفة كما الفسطاط فى مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو . والحق يقال إن العرب الأوّلين بعد خروجهم من مواطنهم البدوية واحتلالهم الأمصار كانوا يهيمون إلى البادية ويحِنُّون إلى نوقها ليرتووا من ألبانها ، وذلك ما كانوا يدعونه بالعَيْمة أى شهوة اللبن وأن لا يصبر عنه الإنسان . . . فكانت العيمة كالداء المعروف فى أيّامنا بداء الوطن . (nostalgie) ولنا على ذلك شواهد عديدة » . منها مثلاً ما يروى فى مُسْند أحمد بن حنبل[٣] أنّ النبى خاف على أمّته أنّهم «يُحِبّون اللبن فيَدَعون الجماعات والجمع ويبدون» . وممّا يروى فى الشاعر الصحابىّ النابغة الجَعْدىّ أنّه بعد قضاء أعوام فى المدينة أراد الرجوع إلى قومه فدخل على عثمان بن عفّان «فقال أستودعك الله يا أمير المؤمنين قال وأين تريد يا أبا ليلى قال ألْحَقُ بإبلى فأشْرَب من ألبانها

---

(١) LAMMENS, *La Bâdia et la Hîra sous les Omaiyades*, P. 91-119[*Études sur le siècle des Omaiyades*, PP.325-350.] ؛ وراجع ملخص هذه المقالة فى المشرق ج ١١ سنة ١٩٠٨ ص ٧٦٥—٧٧٣ .

(٢) الدسكرة : القرية العظيمة .

(٣) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ١٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ .

فإنى مُنْكِر لنفسى فقال أتَعَرُّباً بعد الهجرة يا أبا ليلى؟! أما علمتَ أنَّ ذلك مكروه؟ قال ما علمته وما كنت لأخرج حتّى أُعْلِمَك. قال فأذِن له وأجّل له فى ذلك أجَلًا »[1] . قال الأب لامّنس : «فى إنكار عثمان على النابغة فعلَهُ نظرٌ لأنّ الخليفة كان يجد فى شوق العرب إلى باديتهم خطراً على الدولة إذ أنّهم لو رجعوا إلى مضاربهم لعدلوا عن ضبط الأمصار وأنفوا الجهاد فيقوى عليهم أعداؤهم ويسترجعون منهم الأمصار التى فتحوها بعد الحروب الطويلة والمشقّات المُضْنِية . فملافاةً لهذا الخطر أمر الخلفاء الراشدون بألّا يُدفع العطاءُ لغير المهاجرين . وفى صحيح البخارىّ (٤ :١٨٥) أنّ الحجّاج أخذ على بعض الصحابيّين فى زمانه اعتزالَهم عن المدن . . والكتبة الأوّلون كانوا يفرقون بين العرب والمهاجرين فيدعون ساكنى المدن بالمهاجِرين وسَكَنة البادية بالعرب ومنه قول القُطامىّ فى اتّفاق العرب على تسويد ربيعة :

فليس من الأحياء إلّا مسوِّدٌ ربيعــةَ أعرابيُّهُ ومهاجِرُهْ

«وإنما فى تفضيل العرب للبادية على الحضر عدّة شواهد فى تاريخ النهضة الإسلاميّة فمن ذلك أنّ بنى كلب لمّا طردتْهم قيس من مفاوز السماوة وألجأتْهم إلى سكنى سواحل الشام كانوا يعُدُّون أنفسهم هناك كالمنفيين يَتُوقون إلى مواطنهم البدويّة . قال زُفَر بن الحارث[2] :

يا كلبُ قد كلب الزمان عليكمُ وأصابكم منّى عذابٌ مرسَلُ

إنّ السماوة لا سماوةَ فالحَقِى بالغوْر فالأفْحاصُ بئس المَوْئِلُ

فجَنوب عكّا فالسواحل إنّها أرضٌ تذوب بها اللقاحُ وتَهزَلُ

---

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٣١ من طبعة بولاق [راجع مقالة مريم نلينو *an-Nābighah al-Ğa'di e la sua poesia* فى Rivista degli Studi Orientali, XIV, 1934, P. 383-384].

(٢) كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٢٤ . لقاح جمع لقحة وهى الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

« وكانت هذه القبائل تعُدّ واحةَ دُومة الجنْدل الغنّاء وعاصمة الشام نفسها لقربها من الغُوطة كمنازل وبيئة تنهك حُمّياتُها قواهم » وذلك سبب قول الأخطل[1] :

كرِهْن ذُباب دُومة إذْ عفاها غَداةَ تُثارُ لِلمَوْتَى القبورُ

وقوله[2] :

سقى اللهُ منه دارَ سَلْمَى بِرِيّةٍ على أنّ سَلْمَى ليْسَ يُشْفَى سَقيمُهَا

من العربيّات البوادى ولم تكن تُلوِّحُها حُمّى دمشقَ ومُومُها

وفى دُرّة الغَوّاص للحريرىّ وشرحها للخَفَاجىّ ومُعْجَم البلدان لياقوت عدّة أشعار من نسيج أهل البادية تصف كراهتهم للإقامة بالمدن مغتربين وشدّة شوقهم إلى البرارى[3] فمن أشهرها شعر يُنْسَب إلى مَيْسُون بنت بَحْدَل الكلْبيّة قالته لمّا تزوّجها معاوية وهو والى الشام وقيل إنّه لميسون بنت جَنْدَل الفَزاريّة[4] .

وما كان هذا الاستنكاف من عيشة المدن ممّا اختصّت به العوامّ بل إنّما تجده فى كلّ طبقات الناس حتّى عند الأُمراء والوجوه .

قال الأب لامّنس : « ولمّا جعل معاوية كرسىّ ملكه فى الفيحاء وترتّب على الأُمويّين أن يتخذوها كالمنبر الغربىّ لم يزالوا يحِنّون إلى مفاوز البادية ولعلهم لم يسكُنوها مطلقاً لولا بيعة الخلافة . وفى واقع الحال لا ترى من بنى أميّة أحدًا أطال الإقامة فى دمشق إلّا معاوية وعبد الملك . أمّا الآخرون فكانوا

(١) ديوان الأخطل ص ٢٠٣ سطر ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩١ [إلى ١٩٢٥] . الذباب : الطاعون .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٢١ سطر ٥ — ٦ من الطبعة المذكورة — لوح السفر أو العطش فلاناً غيره وسفع وجهه — الموم البرسام pleurésie

(٣) بعض هذه الأشعار مروية فى NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum,*

(٤) الأبيات مروية فى كتاب درة الغواص للحريرى ص ٢٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٢٩٩ .

يأنفون السكنى فيها فيُسرعون إلى البَيْداء ولا سيّما الوليد بن يزيد قال ابن عبد ربّه[1] : « فلمّا وَلِيَ الأمرَ جعل يكرَهُ المواضع التى يراه الناس فيها فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتّى قتل ولم يزل يتنقّل ويتصيّد » . وكان الأمويّون يقصِدون البادية أيضاً ليحافظوا على فصاحة العربيّة فلا يفسد لسانُهم برطانة أهل المدن . وقد اختبر عبد الملك الأمر بابنه الوليد فإن ابن عبد ربّه[2] روى عنه أنّه تراخى فى تأديب ولده فكان لحّاناً . وقال عبد الملك : أضرّنا فى الوليد حبّنا له فلم نوجّهْهُ إلى البادية . ولمّا خلف الوليد أباه لم يشأ أن يكون ابنُه رَوْح مثله فأنزله بين القبائل « فنشأ فى البادية فكأنّه أعرابىّ » . وعلى هذا المنوال صارت البادية كمدرسة للأمراء . وبالإجمال يمكن القول بأن الطبع الغريزىّ والوراثة الجدّية كانا يحمِلان العرب على الرجوع إلى مَنْشَئهم فيخرجون إلى البادية غاية إمكانهم وذلك فى الشام كما فى العراق وفى مصر كما فى الحجاز فإنّ عبد العزيز [وهو أمير من بنى أميّة] اتّخذ له فى مصر باديةً فجعلها فى حلوان وكذا كان يفعل العلويّون فى الحجاز بخروجهم إلى المساكن البدوية » .

كانت العرب تعنى بلفظ التّبَدّى خروج أشرافها إلى البرّيّة بعد انتهاء هطْل الأمطار وإقامتهم بالصحارى بقيّةَ سنتهم كأنّ البرارى مصيف يعتزلون فيه عن ضوضاء المدن ويرتاحون ويتنزّهون . فكانت هذه أيضاً عادة الأمويّين . قال الأب لامنس : « أمّا النّواحى التى كانوا يحِلّون فيها فكانت غالباً فى بادية الشام أو ما كان بجوارها فإنّ معاوية كان يشتو

---

(١) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ عن أبى الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ وقيل ٢٣١ .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٥٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ وانظر أيضاً ج ١ ص ٢٢٤ .

بالصَّنَّبْرة⁽¹⁾ فى الأُرْدُنّ . . وكذلك عبد الملك سكن الصِّنبْرة مدّةً . إلّا أنّ أكثر الأمويّين اتخذوا لهم منازل فى بادية الشام كما روى صاحب الأغانى والطبرىّ وابن عساكر فإنّ هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلّا ذكروا أيضاً تبديَهُ . فإنّ يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته فى حُوارين⁽²⁾ . وسكن ابنه خالد فى البلقاء فى قصر فُدَيْن حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصنّبْرة يقضى شهر آذار فى الجابية وكان له منتزه آخر فى دُومة الجَنْدَل . وكان خلفاء عبدالملك مواظبين على التبدّى إلّا عمر بن عبد العزيز [٩٩/٧١٧ – ١٠١/٧٢٠] الذى سكن بلدة خُناصرة – أمّا منزل الخلفاء فى البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفى بضرب الخِيَمَ والسكن فى المضارب كما أخبر . . عن هشام ابن عبد الملك [١٠٥/٧٢٤ – ١٢٥/٧٤٣] .. لكنّ تلك المنازل إنّما كانت موقّته فلم يرضَ بها الخلفاء فآثروا بناء الدُّور الرحْبة والقصور الجميلة . والمرجّح أنّ بعضهم لم يعمِدوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأن أصلحوا ما وجدوه من الأبنية القدمة فى طرف البادية حيث كانت تُخوم الرومان . . ولمّا احتلّوا تلك المبانى التى سبقهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالًا بما ألحقوا بها من المقاصير وزيّنوها بالزخارف والمحسّنات فاتخذوا الحمّامات وجعلوا فيها الأحواض وشيّدوا لها المشارب⁽³⁾ والعُلّيّات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير ».

ليس هذا موضع وصف قصور بنى أميّة فى البادية لاسيا فى البلقاء عن شرقىّ بُحَيْرة لوط التى اكتشفها فى العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيّات وألّفوا فيها الكتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد

---

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .
(٢) حوارين موضع بين دمشق وتدمر على مرحلتين من تدمر وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ .
(٣) مشارب جمع مشربة وهى الغرفة العلية .

أسماؤها فى نفس تـأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقّر والقَسْطَل والزَّيْزاء وفُدَيْن وأباتر والنَّجْراء والأزرق والأغْدَف وبعضها لا نعرف إلّا أسماءها المتداولة فى أيّامنا عند أهل تلك البرارى وأفخرها وأفخمها قُصَيْر عَمْرة المزخرَف حيطانها بالتصاوير الملوّنة العجيبة وهو ممّا بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ – ٩٦/٧١٥) والمَشْتَى (أو المَشَتّى على نطق الأعراب) ذو النقوش البديعة المحفوظة الآن فى أحد متاحف برلين وهو على الرأى المرجّح المقبول قصر بناه يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٠ – ١٠٥/٧٢٤) ليعيش فيه مع جاريته حَبابة ولم يُتِمّه لموت عشيقته الذى سبق قتله بيسير[١]. فمن اعتبر تلك الأبنية استجاد قول عثمان بن الوليد بن عُمارة القرشىّ بعدما ذكر فِعْلَ الدهر بملوك بنى أميّة[٢].

فأصبحوا لا ترى إلّا مساكنَهُمْ ... قَفْرًا سوى الذكْرِ والآثارِ إن ذُكِرُوا

استطردت قليلًا بهذا البيان لأهميّته ولا أرى فى ذلك ضَرَرًا لأنّى فى هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصّة أحبّ إيجاز الكلام فيما هو معروف والإطناب فيما هو غير متداوَل وإن عدمت موازنةُ أجزاء البيان. — أمّا خلاصة ما شرحته فى الصحف السابقة فإثبات ما هو آت: ١ً أنّ مُعْظَم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة بها فى زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيّما اليمنيّة أو المنسوب أصلها إلى اليمن. ٢ً إنّ رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من

---

(١) خطأ جرجى أفندى زيدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرهما إلى بنى غسان (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم فى مقالته فى حوران المدرجة فى مجلة الهلال السنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ – ١٤٤) وإنما اغتر برجم رجمه دوسو (Dussaud) فى أول اكتشاف تلك المبانى وهو ظن فاسد كما أظهره بعد روسو علماء المشرقيات.

(٢) حماسة البحترى ص ١٣٤ سطر ١ من طبعة ليدن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت.

أهل العقد والحلّ مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبّتهم له وتعظيمهم لقائليه. ٣ً إنّ سكّان المدن الشامية الكبرى وهم سريان وروم لم يزالوا مدّة طويلة بعد الفتح قليلي المعرفة باللغة العربيّة غيرَ معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك فى العراق إلاّ أن سكّانها الأصليّين فرس وآراميّون . ٤ً إنّ الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواصّ أم من العوامّ لم يَزالوا هائمين ببوادى أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها — فإن كان الأمر كذلك لم نتعجّبْ أنّ الشعراء الوافدين إلى خلفاء بنى أميّة وأمرائهم فى القرن الأوّل صاغوا نظمهم فى قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهليّة ونهجوا طُرُقهم فى عمل القصائد على الأسلوب القديم فى المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر الخمر .

أجمع علماءُ اللغة والأدب على أنّ الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربىّ فى أيّام بنى أميّة ثلاثةٌ : الأخطل والفَرَزْدَق وجَرير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذى نحن بصدده . وأقدمهم سنًّا الأخطل[١] الذى لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق[٢] وما يُستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنّما هو أنّ الأخطل أخذ يشتهر فى الشعر وهو شابٌّ على عهد معاوية (٤١/٦٦١ – ٦٠/٦٨٠) كما يظهر أيضاً من ديوانه وأنّه مات فى خلافة الوليد بن عبد الملك الذى تولّى الأمر من سنة ٨٦/٧٠٥ إلى سنة ٩٦/٧١٥ . وكان نصرانيًّا كمُعْظَم بنى تغلب[٣] وهم قبيلة عظيمة

---

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبى .

(٢) قال الأب صالحانى فى مقالته التى سماها الأخطل ومصقلة بن هبيرة (فى مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٣٣ – ٨٤٣) إن الأخطل ولد فى سنة ٨/٦٢٩–٦٣٠ بالتقريب ومات سنة ٩١/٧١٠ تقريباً وفى هذه المقالة أيضاً بحث نقدى فى فن الأخطل .

(٣) وهم من الذين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites)

من ربيعة سكنت فى القرن الأوّل قسماً كبيرًا من برّيّة الجزيرة أعنى القسم المحدود بمدار المَوْصِل وسِنْجار شمالاً ونهر دِجْلة شرقاً ومدار تَكْرِيت وعانة ونهر الفُرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهى برّيّة متّسعة جدًّا يقطعها نهر الثَّرْثار . ولكن لولا ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى من تمسّكه بدينه ومن احترامه وخضوعه التامّ لرؤساء ديانته[1] ولولا الأبياتُ الثلاثة التى قالها إنكارًا لدُعاء عبد الملك إيّاه إلى الإسلام[2] ثمّ لولا ما قال فيه جرير معرّضاً به[3] هاجياً له لتشكّكنا فيه بعد مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصرانىّ . فإنه مزج أحياناً الديانتين فقال[4] :

إنّى وربِّ النصارى عند عيدِهِم ... والمسلمين إذا ما ضمّها الجُمَعُ
وربِّ كلِّ حَبيسٍ فوق صَومَعَة ... يُمْسِى ولا هَمُّهُ الدنيا ولا الطَّمَعُ
لقد مدَحْتُ قُرَيْشاً واستعَنْتُ بهِمْ ... إذ ما أنامٌ إذا ما صُحْبَتِى هَجَعُوا

وقال يهجو بنى أسد[5] :

فأمّا تَمَنِّيكُمْ قُرَيشاً فإنّها ... مصابيحُ يَرْمِيها بعينيه ناظِرُ
فما أنتم منها ولكنّكم لها ... عَبِيدُ العَصَا مادام للزّيْتِ عاصِرُ
فما خُتِمَتْ أكتافُكمْ لنُبُوَّةٍ ... وأستاهُكمْ قد أنكرَتْها المنابرُ

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ — ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [— ١٩٢٥] .

(٣) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٣٤ ، ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ٨٠ و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ — ٢٩٢ و ٤١٤ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٤) ديوان ص ٧١ — ٧٢ من الطبعة المذكورة .

(٥) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشى الأب صالحانى ص ٥٠٠ . أما الشطر الثانى من البيت الثانى فراجع بيت جرير :

يا خزر تغلب إن اللؤم حالفكم ... ما دام فى ماردين الزيت يعتصر

فى ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

وقال أيضاً[1] .

إنّى حلَفْتُ بربّ الراقصات وما … أضحَى بمكّة من حُجْبٍ وأستارِ

وبالهَدِىّ إذا احمرّتْ مَدارِعُها … فى يوم ذَبْحٍ وتشريقٍ وتَنْحارِ

وما بزَمْزَمَ من شُمْطٍ مُحلَّقةٍ … وما بيَثْرِبَ من عُونٍ وأبكارِ

لأَلْجَأتْنى قُرَيْشٌ خائفاً وَجِلاً … ووَلَّتْنِى قريشٌ بعد إقْتارِ

وقال أيضاً [2] :

وقد حلَفْتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ … بالله ربِّ سُتور البيتِ ذِى الحُجُبِ

وقال فى الوليد بن عبد الملك [3] :

خليفةُ الله يُسْتَسْقَى بسُنَّتِهِ … الغَيْثُ من عند مُولِى العِلْمِ مُنْتَخِبِ

وقال حالفاً [4] :

حلَفْتُ بمَنْ تُسَاقُ له الهَدايا … ومَنْ حَلَّتْ بكعبتِهِ النُّذورُ

ولعلّ لسانَ حال هذه الأبيات فى شعر الأخطل قولُ القاضى عبد الوهّاب ابن علىّ البغدادىّ فى مدينة بغداد[5] :

ظَلِلْتُ حَيْرانَ أمشى فى أَزِقّتها … كأنّنى مصحفٌ فى بيت زنديقِ

ولكنّها وإن كانت من أغرب الغرائب بادئَ نظر تُعْقَل إذا تذكّرنا ما شرحتُهُ فى إحدى الصحف السابقة من قلّة العواطف الدينيّة عند أهل الوبر

---

(١) ديوان ص ١١٩ — هدى ما أهدى إلى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدى — مدارع قوائم — أشمط الذى شعر رأسه أبيض وأسود — العون جمع العوان وهى المرأة النصف فى سنها والتى كان لها زوج .

(٢) ديوان ص ١٨٤ .

(٣) ديوان ص ١٨٥ — بسنته بوجهه وطرائقه — مولى العلم معطيه — منتخب يعنى الله .

(٤) ديوان ص ٢٠٤ .

(٥) المتوفى سنة ٤٣٧ / ١٠٤٥ — البيت مروى فى وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤١١ من طبعة غوتنجن أو ٣٧٣ من الطبعات المصرية وفى فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .

ثمّ إذا افتكرنا فى ورود مثل تلك العبارات والأيْمان فى شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهَج مناهجهم ويحذوَ حَذْوَهم ثمّ إذا لاحظنا أنّ جميع تلك الأبيات الإسلاميّة المذكورة وردت فى قصائد فى مدح بنى أميّة. ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عدىّ بن زيد العِبادىّ النصرانىّ الذى عاش فى عهد الجاهليّة حسبما مرّ ذكره قد سبق الأخطل فى مَزْج ديانتين حيث قال[1] :

سعى الأعداءُ لا يألون شرّاً عليكَ وربِّ مكّةَ والصليب

ويروى أبو الحسن علىّ بن محمّد المدائنى المتوفّى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أنّ بنى بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت فى شىء رضيت بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدَمون إليه[2]. فمن هذا القبيل أيضاً قصّة الأخطل مع عِكْرمة بن رِبْعِىّ الفيّاض فى مسجد الكوفة رواها صاحب الأغانى عن نفس المدائنىّ[3]، وليس ذلك بغريب فى ذلك العصر لأنّ من أدمن الفكر فى النصوص والشواهد القديمة عرف أنّ المساجد لم تُخَصّص أوّلاً بالأمور الدينيّة بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأندية يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسيّة وغيرها من الأمور الدنيويّة فلم يُمْنَع النصارى عن المرور والوقوف بها[4] . أمّا تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلّق بالدين فابتدأ فى أيّام بنى العبّاس وهو أيضاً زمان حصْر الخطبة على المنبر فى أمور الدين[5].

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٨٧ .

(٤) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia ler*, P. 8 n., 15 n., 58 n., 205 n., 372, 435-436

(٥) راجع GOLDZIHER, *Der Chatib bei den alten Arabern* (*Wiener Zeitschr. der Kunde des Morgenlandes* VI, 1892) P. 99-101; C.H. BECKER, *Die Kanzel im kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldeke gewidmet, Giessen 1906) p.331-351.

أما اتّصال الأخطل بخلفاء بنى أمية وأمرائهم فأشهر من أن أحتاج إلى وصفه فى هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتّصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القدماء وأميالهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام فى القرن الأوّل . قد تشبّب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الأنصارى أو بالأحرى أظهر أن يتشبب برمْلَة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعرًا مرويًّا فى كتاب الأغانى [1] كاد يهتِك به عِرْضَها والمرجّح أنّه فعل ذلك لبُغْضه للأمويّين . فغضِب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جُعَيْل التغْلَبىّ أن يهجو الأنصار كلّهم فأبى خوفاً منهم ودلّ على الأخطل . فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات المشهورة[2] . وإنّ فى ذلك لنظرًا لأنّكم لو سمِعتم هذا الخبر مجرّدًا عن أسماء أصحابه لظننتم أنّه من روايات عرب الجاهليّة لما فيه من استعمال الهجاء مدافعةً عن العِرْض بل من عمّ قوم الخصْم قاطبةً بالهجاء والإقذاع . وفى ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجو بها الأنصار والسبب فى ذلك سياسىّ لأن الأنصار سوى نفر قليلين تحزّبوا لعلى بن أبى طالب وقاتلوا معاوية فى يوم صفّين ثمّ لم يزالوا مُبْغِضِين بنى أميّة إلى أواخر القرن الأوّل .

إنّ الأقطاب التى يدور عليها ديوانه هى مدح الخلفاء والأمراء من بنى أميّة وهجاء أعدائهم من العَلَويّين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزُّبيْر والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيّين وذكر الخمر وما فى شربها من اللذّات . أمّا المراثى فلا يوجد منها فى ديوانه إلاّ قطعة واحدة وهى أربعة

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة العثمانية ألغيت الأبيات فى نسخ الديوان المطبوع غير المرسلة إلى أوربا مع ورودها فى الأغانى ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ وفى كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية فى مقالته *Le chantre des Omiades* (*Journal Asiatique*, sér. IX, t. IV, 1894) P. 195.

أبيات يرثي بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب[1] . ومن مدائحه الشهيرة القصيدة التي مطلعها[2] :

خَفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكَروا ‏ ‏ ‏ وأزعجَتْهم نَوًى في صَرْفِها غِيَرُ

وهي أفخر ما قيل من الشعر باللغة العربيّة .

من المشهور أنَّ الأخطل كان معاقرًا للخمر كأنّه رأى أنّها تجوِّد قريحة الشاعر فقال مرّة للمتوكّل اللَّيْثيّ الشاعر : «لو نبَحَت الخمرُ في جوفك كنتَ أشعر الناس» . وفي ديوانه ما نصّه[3] : «قال له عبد الملك وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين إذا شربتُها فالموت أهوَنُ عليَّ من شِسْع نعلي . فقال له قل فيه شعرًا وإلاّ ضربتُ عنقك» . فقال[4] .

إذا ما نديمي عَلَّني ثم علَّني ‏ ‏ ‏ ثلاثَ زُجاجاتٍ لهن هَديرُ

جعلتُ أجُرُّ الذَّيل منّي كأنّني ‏ ‏ ‏ عليكَ أميرَ المؤمنين أميرُ

أمّا على ظنّي فالمرجّح أنّه لم يتعاطَ الخمريّات لمحض حبّه للخمر وأنَّ غرضه في نعوت الحميّا وأوصافها كان أيضاً الاقتداء بكثير من شعراء الجاهلية

---

(١) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لامنس في مقالته المذكورة سابقاً ص ١٣٩ — ١٤٠ وأول من نبه إلى ذلك هو الأب ا . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٢) ديوان ص ٩٨ — ١١٢ . ‏ ‏ ‏ (٣) ديوان ص ١٥٤ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الأغاني ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ — ٢٣ وفيه زياد (يعني زياد ابن أبيه المتوفى سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلا من نديمي وزهواً بدلا من مني وخرجت بدلا من جعلت و ص ٥ سطر ٨ — ٩ بروايتي خرجت وزهواً — ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن وحماسة أبي تمام ص ٢٦٦ — ٢٦٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

أما جر ذيل المطرف فهو دليل على الغضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ من الأبيات والأحاديث النبوية [وغير ذلك مما أورده الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠ حاشية ١] .

البارعين كما اقتدى بهم فى سائر أفانين شعره . ولعلّه إلى ذلك أشار بقوله فى أوّل إحدى خمريّاته[1] :

شربنا فمتْنا ميتةً جاهليّةً مضى أهلُها لم يعرفوا ما محمّدُ

وعلى منوال القدماء النوابغ لم يأْتِ بالنسيب إلّا فى أوائل القصائد غير أنّه فى نسيبه سلكَ أحياناً مَسلكًا غير المألوف فى قصائد الجاهليّة البارعين فبدلاً من أطلال قوم معشوقته ذكر فيه الفتيات ذوات شكل ودلال مثل قوله فى قصيدة هجا بها جريرًا وافتخر على قيْس[2] :

وتغوّلَتْ لِتَرُوعَنا جِنّيّةٌ والغانياتُ يُرينَكَ الأهْوَالَا
يمدُدْنَ من هَفَواتِهِنّ إلى الصِّبَى سبباً يصِدْنَ به الغُواةَ طُوالَا
ما إنْ رأيتُ كمَكْرِهِنّ إذا جرى فينا ولا كحبالِهِنّ حِبالا
المُهْدِياتُ لمن هَوِينَ مَسَبّةً والمُحْسِناتُ لمن قَلَيْنَ مَقالَا
يَرْعَيْنَ عَهْدَكَ مارأَيْنَكَ شاهِدًا وإذا مَذِلْتَ يَصِرْنَ عنك مِذالَا ...

ثم من الحريّ بالاعتبار قول عمر بن شَبّة المتوفى سنة $\frac{٢٦٢}{٨٧٦}$: كان ممّا يقدّم به الأخطل أنه كان أخبثهم هِجاء فى عفاف من الفحش . وقال الأخطل ما هجوت أحدًا قط بما تستحى العذراء أن تُنْشِده أباها »[3] . وهذا القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف الأخطل فى عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصرَيْه الشهيرَيْن جرير والفرزدق والذين ملوءا هجاءهم ما يستنكِف ذو أدب من إنشاده وتنبو عنه الآذان .

---

(١) ديوان ص ٣٢١ .
(٢) ديوان ص ٤٢ — ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ — ١٠٠ فى القصيدة التى قالها يمدح بنى أمية .
(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٧٨ من طبعة بولاق .

قد سبق تلميح إلى نقائض الأخطل وجرير وكان سبب اضطرام نار العداوة بينهما مناضلة الأوّل عن الفرزدق لمّا أخذ جرير يهجوه . والفَرَزْدَق واسمه همّام بن غالب كان من بنى دارم حى من تميم أقامت بنواحى البصرة بعد الفتح الإسلاميّ فوُلد فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب المتوفّى سنة ٢٣/٦٤٤ أمّا سنة مماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤[1] . وكان كأكثر أهل البادية رحّالاً ينتقل من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل؛ فنجده تارة بالبصرة وتارة بالكوفة ومرّة بالمدينة ومرة فى أرض البلقاء من الشام وافداً على خلفاء بنى أمية مثل الوليد وسليمان ابنَيْ عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جاءنا من أخباره وأشعاره العديدة أنّه كان على جيد شعره دنىء النفس فمدح من نال منه الجوائز وهجا من لم يشذُف منه ما رجا فربّما بعد الثناء الوافر على أحد الكبار فى قصيدة أخذ يشتِمُه شَتْمًا قبيحاً فى قصيدة أُخرى . فأطرأ مَرّةً عمر بن هُبَيْرة الفَزاريّ والى العراق بعد موت الحجّاج بن يوسف وعدّ مفاخر قومه ثم بدّل المدح سَبًّا فقال فيه وفى بنى فزارة شعراً بَشِعاً[2] وهجا

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٥٥ من الطبعات المصرية وقال صاحب كتاب الأغانى (ج ١٩ ص ٦) فى رواية عن أبى زيد النحوى : «وتوفى الفرزدق فى سنة عشر ومائة فى خلافة هشام (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) وجرير والحسن وابن سيرين فى ستة أشهر . ويحكي ذلك عن جماعة منهم الغلابى عن ابن عائشة عن أبيه » وقال فى نفس الجزء (ص ٥٠) «وقال أبو زيد مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير فى سنة عشر ومائة . . . وهذا غلط من أبى زيد وابن شبة لأن الفرزدق مات بعد يوم كاظمة وكان ذلك فى سنة اثنتى عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره فى مواضع من قصائده ويقوى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : حدثنى ابن النطاح عن المدائنى عن أبى اليقظان وأبى هام المجاشعي أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة ومائة » ثم قال فى ص ٤٦ : «وقال ابن زكرياء الغلابى عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير فى سنة عشرة (كذا) ومائة ومات جرير بعده بستة أشهر ومات فى هذه السنة الحسن البصرى وابن سيرين » وفى ص ٤٨ : «قال أبو عبيدة ومات الفرزدق فى سنة عشر ومائة » . ويقال فى كل الروايات إن جريراً توفى بعد خصمه .

(٢) فى المدح : ديوان ص ١٧٨ — ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بعناية Boucher الذى نقل أيضاً القصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ — ٢٨٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد هذه القصيدة فى طبعة مصر ١٢٩٣ — فى الهجاء : ديوان ص ١٧٩ — ١٨١ من طبعة باريس [أو ص ٢٨٢ — ٢٨٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد فى طبعة مصر ١٢٩٣ . وروى التبريزى فى شرحه على—

فى بضع قصائد آل المهلّب بن أبى صُفْرة الأزدىّ من أشهر بيوتات البصرة وقال مثلاً[1]،

وَجَدْنا الأَزْدَ من بَصَلٍ وثُومٍ — وأَدْنَى الناس من دَنَسٍ وعارِ

صَراريونٌ ينضِحُ فى لِحاهمْ — نفِىٌّ الماءِ من خَشَبٍ وقارِ

مع ما يليها من الكلام القَذِر الذى يستقْبَح إيراده هنا . ولكن لم يمنعه هذا وهجاءٌ آخر مثلُهُ عن الثناء على آل المهلّب حين تغيّرت منزلته عندهم فقال مثلاً[2] :

لأَمْدَحَنَّ بنى المهلب مِدْحةً — غرَّاءَ ظاهرةً على الأشعار

مثلَ النجوم أمامَها قمرٌ لها — يجلو الدُّجَى ويُضىءُ ليلَ السارى

ورِثوا الطِّعانَ عن المهلّب والقِرَى — وخلائقاً كتدفُّق الأنهـــارِ

كلُّ المكارم عن يديه تقسّموا — إذْ مات رِزْقُ أراملِ الأمصارِ

كان المهلّب للعراق سَكِينةً — وحَيَا الربيعِ ومَعْقِلَ الفُرّارِ

وكان علويّاً فلمّا حج هشام بن عبد الملك فى أيّام أبيه والتقى فى الطواف زين العابدين على بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وقال هشام لا أعرفه

— حماسة أبى تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أو ج ١ ص ٢٠٥ من طبعة بولاق) يتبين من هذه القصيدة التى تحتوى على ٣٧ بيتاً .

(١) ديوان ص ٨٥ — ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ — ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٢٥٢ — ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen Gesellschaft*, 59, 1905, P. 595-600) et SCHWARZ, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten*(*Zeitsch. d. deutschen morgenlaend. Gesell*, 74, 1919 P. 80-85). — الصرارى الملاح — أما الأزد فهم ما كنوا على شاطىء البحر فى المان .

(٢) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة ليدن ١٩٠١ بعناية Hell [ص ٣٧٤ — ٣٧٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا ترى هذه القصيدة فى الطبعتين الأخريين . ويجمع J. Hell كل القصائد التى يمدح الفرزدق فيها آل مهلب أو يهجوهم فى المقالة المسماة *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* المطبوعة فى المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlaendische Gesellschaft* ج ٩٥ ص ٥٨٩ — ٦٢١ و ج ٦٠ ص ١ — ٤٨ . [وقد أعنى P. Schwarz بتصحيح هذه المقالة فى المجلة نفسها ج ٧٣ سنة ١٩١٩ ص ٨٠ — ١٢٦] .

مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، قال الفرزدق وهو كبير السنّ قصيدة غراء مدح بها زين العابدين وأوّلها[1] :

هذا الذى تعرف البطحاءُ وطأته ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

هذا ابن خير عِبَاد الله كلّهمُ ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العَلَمُ

هذا ابن فاطمة إن كنتَ جاهلَهُ ... بجَدّهِ أنبياءُ الله قد خُتِمُوا

وليس قولُكَ مَنْ هذا بضائره ... العُرْبُ تعرف مَنْ أنكرتَ والعَجَمُ

ومنها :

إذا رأتْهُ قريش قال قائلها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكرمُ

يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابتِهِ ... فما يكلَّم إلا حين يبْتَسِمُ

فغضِب هشام وحبس الفرزدق بين مكّة والمدينة . بيد أنّ ميله هذا إلى العلويّين وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة فى مدح الأمويّين ووصفهم أحياناً فيها بعبارات دينية أصبحت كأنّها ضالّة فى أثناء مثل تلك القصائد المنسوجة على أساليب عرب الجاهليّة . فقال فى سليمان

---

(١) ديوان ص ١٩٨ — ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ — ٨٤٩ من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة فى طبعة باريس فانظر أيضاً كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٠ — ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو ٧٥٥ من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وترتيبها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى الحزين الليثى (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذى « قالها فى على بن الحسين بن على بن أبى طالب » فى حماسة أبى تمام ص ٧١٠ — ٧١١ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٨٢ — ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات) وكتاب الأغانى ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغانى فى نفس هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها للفرزدق ويروى ٧ أبيات فقال التبريزى فى شرحه على الحماسة : « ويقال إنها للفرزدق » .

وروى بيتان منها فى كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٧ من الطبعة الليدنية) هكذا : « كقول القائل » وقيل فى بعض النسخ : « فى بعض بنى أمية » والأبيات مروية أيضاً لداود بن سلم أو خالد ابن يزيد فى قثم بن العباس أو على بن الحسين (كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٧٨ — ٧٩) وروى الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها « الشاعر فى بعض بنى مروان » .

ابن عبد الملك (٩٦/٧١٧ - ٩٩/٧٢٠)[1] :

وبالمسجد الأقصى الإمامُ الذى اهتَدَى به من قلوب المُمْتَرين ضلالُها
به كشف اللهُ البَلاءَ وأشرقَتْ له الأرضُ والآفاقُ نَحْسٌ هلالُها

ومنها :

وَجَدْنا بنى مروان أوتادَ دِيننا كما الأرضُ أوتادٌ عليها جِبالُها
وأنتمْ لهذا الدين كالقبلة التى بها أن يضِلَّ الناسُ يُهْدَى ضلالُها

وقال يمدح هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ - ١٢٥/٧٤٣)[2] :

وما تركَتْ كفَّا هشامٍ مدينةً بها عِوَجٌ فى الدين إلاّ تَقَوَّمَا
يُؤَدِّى إليه الخَرْجَ مَنْ كان مشركاً ويرْضَى به مَنْ كان لله مُسْلِمَا

وقال فى يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٠ - ١٠٥/٧٢٤)[3] :

ورِثْت ابنَ حرب وابن مروانَ والذى به نَصَرَ اللهُ النبيَّ مُحَمَّدَا
ترى الوحشَ يَسْتَحْيِينَهُ إذ عرَفْنَهُ له فوق أركانِ الجرائمِ سُجَّدَا

ومنها :

ولو صاحَبَتْهُ الأنبِيَاءُ ذوو النُّهَى رأَوْهُ مع المُلْكِ العظيمِ المسوَّدَا

وقال يمدح هشام بن عبد الملك[4] :

رأيتُ بنى مرْوانَ يرْفَعُ مُلْكَهمْ ملوكٌ شَبابٌ كالأُسُودِ وشِيبُها

---

(١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ سطر ٩ — ١٠ من طبعة باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة فى طبعة ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ — ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة فى طبعة ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] السودان منبر النبى وعصاه .

بهِمْ جمع الله الصلاة فأصبحَتْ قد اجتمعتْ بعد اختلافٍ شعوبُها
ومَنْ ورث العُودين والخاتَم الذى له الملكُ والأرضُ الفضاءُ رحيبُها

أمّا سائر مدائحه لبنى أمية فجارٍ فى قالب المدح الجاهلىّ الخالص وربّما اجترأ الفرزدق بهجاء نفس الخلفاء مثل قوله حين أعطى معاويةُ الحُتاتَ بن يزيد المجاشعىّ من أصدقاء الشاعر أربعين ألف درهم فلم يخرج الحُتات من دمشق حتّى مات فردّ المال إلى بيت المال فقال الفرزدق[1] :

أتأكلُ ميراثَ الحُتاتِ ظُلامةً وميراث حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ
أبوك وعمى يا معاوِى أوْرَثا تُراثاً فَيَحْتازُ التُّراثَ أقاربُهْ
فلو كان هذا الدينُ فى جاهليّة عَرَفتَ مَن المَوْلى القليلُ حلائبُهْ
ولو كان هذا الأمرُ فى غير مُلْكِكُمْ لأبْدَيْتُهُ أو غَصّ بالماء شاربُهْ
وكم من أبٍ لى يا معاوِىَ لم يَكُنْ أبوك الذى من عبد شمسٍ يُقاربُهْ

إنّ هذا الكلام السفيه غريب جدّاً من رجل جعل شعره مَكْسَباً وطمِع فى هدايا الملوك والأكابر ولكنّه على ذلك معقول إذا تأملنا أحوال المُلْك والمسلمين المنتقلين إلى أراضى الشام والعراق بعد الفتوح . كان مُعْظم العرب المسلمين فى تلك الأنحاء من أهل القبائل فلم يزالوا هناك على ما كانوا اعتادوه منذ الزمان القديم من العوائد والأخلاق والأفكار والآراء سوى الدينيّة فما برِح ينبِض عنهم عِرْقُ العَصَبيّة فما فتئُوا مولَعين بالحرّيّة والاستقلال التامّ قليلى الطاعة غيرَ منقادين لا يفهمون وجوب قوّة شديدة وحيدة وأمر

---

[1] (١) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ – ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩ من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٩٧ من طبعة ليدن . ويروى فى ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذى تولى الأمر وهو ابن أربع وثلاثين سنة ولذلك قال الشاعر إنه « غلام » .

متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أمم مختلفة ولدفاع سطَوات العدوّ عنها . إنّهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة فى جملة الأمّة الإسلاميّة كمنزلة السيد البدوىّ فى قومه أعنى أنّ أمير المومنين على رأيهم إنّما كان رجلاً وكّلتْهُ الجماعة به بالسؤدد وتولّى مصالحها فلا يطاع إلّا بما رضيَت الجماعة به . فلو أراد الخليفة إلزامهم مثل ما ألزم أهل الحضر المتمدّنين لما بلغ مَرامَهُ بل أثار الفتن والعِصْيان وعرّض المملكة على خطر عظيم . وفطَن بذلك معاوية لما جُبِل له من البراعة والحيلة فى أمور السياسة فتحمل من أعرابه ما لم يتحمّلْه من غيرهم كما يتّضح من عدة أخبار متفرّقة فى كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربّه وتاريخ الطبرىّ وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب كأنّ حكمة سيرته القول المنسوب إلى علىّ بن أبى طالب : «حلمك على السفيه يُكْثِر أنصارك عليه»[1] . ولكنّ حلمه ذلك الذى وُصِف به فى القصائد والكتب لم يكن عنده الشفقةَ والرحمة بل إنّما كان العقلَ وقهر الغضب كلّما صلح له قهرهُ فلهذا السبب لم يكن يحنَق إن خاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عمّى مكان يا أمير المؤمنين لمصاهرة معاوية فى قبائل قيس وكلب ولا غضِب إذا ردّ كلامه بما يُحْمَل على قوانين أدب أهل البادية وإن لم يُحْمَل على مقتضى أدب المتمدنين . وكان معاوية يقول : «إنّى لا أحمِلُ السيْفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تَكن إلّا كلمةٌ يَشْتَفِى بها مشتَفٍ جعلتُها تحت قَدَمى ودَبْرَ أذُنى»[2] . والحقّ يقال إنّ هذا النوع من الحلم كان له أوثقَ الوسائل وأنفعها لاستمالة أهل القبائل وقيادتِهم والنجاح

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

فيما لم ينجح فيه قبله علىّ بن أبى طالب[١] . فاقتدت به كثير من الخلفاء والأمراء الأمويّين فقال عبد الله بن الزّبير الشاعر فى بشر بن مروان[٢] :

وطَدْتَ لنا دِينَ النبىّ محمدٍ ... بحِلْمك إذ هرّتْ سَفاهاً كلابُها

وقال أيضًا[٣] :

أقام لنا الدينَ القويمَ بحلْمهِ ... ورأىٍ له فضلٌ على كلّ قائلِ

فبإذًا يحْتَمَل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقاً ويُحْتَمَل أيضاً قول الأخطل لمّا شكا إلى عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ – ٨٦/٧٠٥) إغارةَ سُلَيْم على تغلب يوم البشر[٤] :

لقد أوقع الجَحّافُ بالبِشْر وَقْعةً ... إلى الله منها المُشْتكَى والمعوَّلُ

فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذِمّة ... وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يُوصَّلُ ..

فإنْ لا تُغيِّرْها قريشٌ بمُلْكِها ... يكُنْ عن قريشٍ مُسْتَمَازٌ ومَزْحَلُ

فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله فى قصائد شعراء هذا الصنف أبياتٌ دينيّة أدرجها فى قصيدة مدح بها الوليد ابن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ – ٩٦/٧١٥) وذكر هَدْمَه بِيعة النصارى بدمشق وجعْلَهُ إيّاها مسجداً[٥] :

فَرّقْت بين النصارى فى كنائسهمْ ... والعابدين مع الأسْحَار والعَتَمِ

وهمْ معاً فى مصلّاهم وأوْجُهُهمْ ... شتّى إذا سجَدوا لله والصَّنَمِ

وكيف يجتمع الناقوسُ يضربُهُ ... أهلُ الصليبِ مع القُرّاء لم تَنَمِ

(١) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*, chap. V, P. 66-108.

(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٥ .

(٤) ديوان الأخطل ص ١٠ – ١١ ، الجحاف شاعر بنى سليم ورئيسهم – يرجع الضمير فى يغيرها إلى حال محذوف – استماز انتقل من مكان إلى مكان .

(٥) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨ من طبعة مصر ١٣٠٤] – الملك المهدى هو سليمان (عم) فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) ٧٨ – ٧٩ .

فُهِمْتَ تحويلها عنهمْ كما فَهِما ... إذْ يحكُمانِ لهم فى الحرْث والغنَم

داوُدُ والمَلِكُ المَهْدِىُّ إذْ حَكَمَا ... أولادَها واجتزازَ الصُّوفِ بالجَلَم

فهّمك اللهُ تحويلًا لبيعتِهِمْ ... عن مسجدٍ فيه يُتلى طيّبُ الكَلِم

وخلافاً للأخطل قد تعاطى الفرزدق الرِّثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذَله جرير[1] لحبّه لشرب الخمر ولكنّه لم يقلْ فيها إلّا شعرًا قليلاً جدًّا أعنى ثلاثة أبيات وردت فى ديوانه[2] وتُشْبِه خمريّات أبى نواس ثمّ أربعة أبيات رويت فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة[3] وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادىّ[4] . أمّا الغزل فله فيه قصيدة طويلة[5] ومقطّعتان[6] غير أنّها جميعها فى غاية الخَلاعة والفسق لا سيّما المقطّعتان الشبيهتان بمجون أبى نواس . فختم القصيدة قائلاً[7] :

فيا ربُّ إن تغفِرْ لنا ليلة النَّقَا ... فكلُّ ذنوبى أنْتَ يارَبُّ غافِرُهْ

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من طبعة ١٣٥٤] والنقائض ص ٥٤٣ سطر ١٥ من طبعة ليدن .

(٢) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وإجّانةٍ رَيّا الشروبِ كأنّها ... إذا اغتمست فيها الزُّجاجةُ كوكبُ

مختّمةٍ من عهد كسرى بن هُرْمز ... بكرنا عليها والفراريج تَنْعَبُ

سبقت بها يومَ القيامة إذ دنا ... وما للصِّبا بعد القيامة مطّلَبُ

(٣) ص ٢٩٤ من طبعة ليدن .

(٤) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من طبعة بولاق .

(٥) ديوان ص ٩٩ — ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ — ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ٢٥٥ — ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٦) ديوان ص ٢٢٩ — ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ — ٣٠٩ و ٨٩٤ — ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٧) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

وربّما افتخر بقبيلته وهى تميم فجعلها فوق سائر الناس حتّى قال[1] :

وأفضَلُ منْ يمشى على الأَرض حيُّنا ... وما ضَمِنَتْ فى الذاهبين قبورُها ...
ولو أنَّ أرض المسلمين يحُوطُها ... سِوانا من الأَحياء ضاعت ثغورُها
لنا الجنّ قد دانت وكلُّ قبيلةٍ ... يَدينُ مُصَلّوها لنا وكفورُها

وأراد أيضاً الفخر بنفسه فحيث إنّه كان من أجبن الناس لم يقدر على تخليد ذكر مآثره فى الحرب فاكتفى بوصف ذبحه الغنم للقِرَى كأنّه واصف قتالاً شديدًا وملحماً هائلاً مُرْعِبًا[2] . وكان الفرزدق من أهجى الشعراء فكاد الهجاء يملأُ نصف ديوانه وهو هجاء بَشِع قبيح كلُّه شتمٌ سافل وتعيير وابتهار فى الأَخوات والأمّهات وقذفٌ للمُحْصَنات الغافلات توافق بذاءةُ ألفاظه دَناءةَ معانيه . ولعلّه تاب إلى الله أحياناً وهو مُسِنٌّ فى سوْء هجائه فيروى فى ديوانه أنّ رجلاً من موالى باهلة يقال له حُمَام أعطى الفرزدق نحيًا من سَمْن بشرط أن يهَبَ له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا إبليس فى قصيدة كأنّه[3] مُلْهِم ما قد مرّ من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

ألمْ تَرَنى عاهَدتُ ربّى وإنّنى ... لَبيْن رِتاجٍ قائمٌ ومَقامِ
على قَسَمٍ لا أشتِمُ الدّهْرَ مسْلِمًا ... ولا خارجًا مِنْ فِىَّ سوْءُ كلام
ألمْ تَرَنى والشعْرَ أصبح بيْنَنا ... دُرُوْءٌ من الإِسلام ذاتُ حَوام ...

(١) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة الباريسية [أو ص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٠٤] ولا تروى القصيدة فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أو ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٠٤] .

(٣) ديوان ص ١٠٩ —١١١ من طبعة باريس أو ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٩ — ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٠٤] ويروى البيت الأول والثانى والثالث فى ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة مصر ١٣١٢) وفى شرح اليزيدى على النقائض ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التى قال الشاعر فيها هذه القصيدة فما يحكى فيها فى الديوان مختلف عما يحكى فى النقائض . — الرتاج الباب العظيم وهنا باب الكعبة ومقام إبراهيم — دروء جمع دره وهو نادر يندر من الجبل — حوام جميع حامية ، ونحى زق السمن .

ومنها :

لعمرى لنِعْمَ النَّحْىُ كان لقومهِ عَشِيَّةَ غَبَّ البيْعُ نحْىُ حُمامِ
بتوبة عبدٍ قد أناب فــؤادُهُ وما كان يُعْطِى الناسَ غير ظَلامِ
أطعْتُك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلمّا انتهى شَيْبى وتَمَّ تمامى
فررتُ إلى ربّى وأيقنتُ أنّنى مُلاقٍ لأيامِ المَنونِ حِمامِى...

ومنها :

ألا طال ما قد بِتُّ يُوضِعُ ناقتى أبو الجنّ إبليسُ بغير خِطامِ
يظَلُّ يُمنِّينى على الرَّحْل فاركاً يكون ورَائِى مَرّةً وأمامِى
يبشّرنى أن لَنْ أموتَ وأنّه سيُخْلِدُنى فى جنّةٍ وسلامِ

ولكن لا شكّ أنّ إبليس عاد يزور الشاعر بعد مدّة قليلة لأنّه لم يزل يهجو الناس إلى مماته .

قال يونس بن حبيب النحوىّ المتوفّى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : «لولا شعر الفرزدق لذهب ثُلْث لغه العرب»[١] . والحقّ يقال إنّ شعره أوفر ألفاظاً من شعر الأخطل[٢] . إلّا أنّ الفرزدق كان أيضاً أكثر الشعراء تنحُّلاً فسرَق أبيات السابقين والمعاصرين بدون حياءٍ بل اضطرّ أحياناً بعض الشعراء إلى ترك شيءٍ من شعرهم له[٣] كأنّه أحقّ به .

لا يُتصوّر الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصرهما وخصمهما

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٨.

(٢) راجع J. HELL, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deuschen morgenlandischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590,2.

(٣) انظر كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١١٦ وج ١٩ ص ٢٢ — ٢٣ (فيه أربعة أبيات لذى الرمة) وج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمردل) وج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق وجميل) .

الشهير أعنى جريراً . وهؤلاء الثلاثة كلّهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق فى أيّام بنى أميّة . وجَرير بن عَطِيَّة بن الخَطَفَى من بنى كُلَيْب حىّ من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة[1] وبها مات وقُبِرَ ولكنّه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجّاج بن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه . وَاخْتُلِفَ فى تاريخ مماته فقيل إنّه توفّى سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقيل أيضاً إنّه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة[2] . ومن المُثْبَت[3] أنّه قد صاغ أشعاره الأولى فى مدّة خلافة معاوية بن أبى سفيان ($\frac{٤١}{٦٦١}$ – $\frac{٦٠}{٦٨٠}$) فنى قصيدة نسجها فى هذه المدّة وصف نفسه كأنّه قد أدرك آخر الشباب[4] :

لقد خبَّرتْنى النفسُ أنّى مُزايِلٌ … شَبابى ووَصْلَ المُنْفِساتِ الأوانِسِ

وموضوع جميع ديوانه ثلاثة : الهجاء والمديح والرِّثاء . والرثاء يسيرٌ وكلّ مقطّعة منه لا تشتمل إلاّ على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة[5] . والمديح فى الحجّاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٦ : « ونسبت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها من اليمامة وقبر جرير باليمامة وبها مات » .

(٢) كتاب وفيات الأعيان عدد ١٢٩ من طبعة غوتنجن أو ١٢٧ من الطبعات المصرية وكتاب الأغانى ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وانظر أيضاً ما قلته فى تاريخ موت الفرزدق ص١٥٨ حاشية ١ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص١٧ حاشية ١.

(٤) النقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر١٣١٣ [أو ص ٢٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] – المنفس كل شىء له قدر وخطر وقال شارح النقائض إن المنفسات هى المظنيات الأقدار .

(٥) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ – ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١ – ١٥٢ و ١٦٩ – ١٧٠ وج ٢ ص ٢١ – ٢٢ و ٣٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [وورويت فى طبعة مصر ١٣٥٤ اثنتان وعشرون مرثية فانظر ص ه من الفهرست] .

أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلا[1] :

دعا الحجّاجُ مثلَ دعاء نوحٍ فأسْمَعَ ذا المعارجِ فاستجابا...
ولو لم يرْضَ ربُّك لم يُنَزِّلْ مع النصر الملائكةَ الغِضابا
إذا سعَر الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجّاجَ أثْقَبَها شهابا
ترى نصرَ الإمام عليك حقًّا إذا لبِسوا بدينهم ارتيابا...
عفاريتُ العراق شُفِيتَ منهمْ فأمسوا خاضعين لك الرقابا

وأعاد تشبيه الحجّاج بأحد الأنبياء المنذِرين فى قصيدة أخرى قال فيها[2] :

رأى الحجّاجُ عافيةً ونصرًا على رغم المنافق والحَسودِ
دعا أهلَ العراق دعاءَ هودٍ وقد ضلُّوا ضلالةَ قوم هودِ
كأنّ المُرْجِفين وهمْ نَشاوى نصارى يلعَبون غداة عيد
وظنّوا فى اللقاء لهمْ رواحاً وكانوا يصعَقون من الوعيد

ومدح عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ - ٨٦/٧٠٥) ومَنْ خلَفه من خلفاء بنى أمية إلى هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ - ١٢٥/٧٤٣) فأدرج فى تلك المدائح أحياناً عباراتٍ دينية وإشارات قرآنيةً مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال فى عمر بن عبد العزيز[3] :

خليفةَ الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا فى دار منتظر
أنت المبارك والمهدىُّ سيرتُهُ تَعْصِى الهوىوتقومُالليلَ بالسُّوَر
أصبحْتَ للمنبَر المعمور مجلسُهُ زيْناًوزينَ قِباب المُلْك والحَجرِ
نال الخلافةَ إذ كانت له قَدَرًا كما أتى ربَّهُ موسى على قَدَر

---

(١) ديوان ج ١ ص ٩ من طبعة مصر١٣١٣ [أوص ١٦ من طبعة ١٣٥٤] .
(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤] .
(٣) ديوان ج ١ ص ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤] .

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك[1] :

فأنت لِربِّ العالَمين خليفةٌ ولىٌّ لعهد الله بالحق عارفُ
هداك الذى يهدى الخلائقَ للتُّقَى وأُعطِيتَ نصرًا لم تَنَلْهُ الخلائف
وأدَّتْ إليك الهندُ ما فى حصونها ومن أرض صِينِسْتانَ تُجبَى الطرائفُ
وأرضَ هرقْل قد قهرْتَ وداهــرًا وَتَسْعَى لكم من آل كسرى النواصفُ
وذلك من فضل الذى جُمِعَتْ لَهُ صفوفُ المصلِّى والهدِىُّ العواكف

وفى قصيدة أخرى يمدح الوليد بن عبد الملك أيضاً قال[2] معرّضاً بهدم كنيسة النصارى بدمشق الذى تقدّم قول الفرزدق فيها :

ولقد سموْتَ إلى النصارى سَمْوةً رجَفَتْ لوقعتها جبالُ الدَّيْلَمِ
إنَّ الكنيسة كان هدْمُ بِنَائِها نصرًا فكان هزيمةً للأخرمِ
فأراك ربُّك إذْ كسرْتَ صليبهم نورَ الهدى وعلِمْتَ ما لم تعلمِ

ولكن أكثر مدائحه لا تنفكُّ أن تجرى مجرى شعر الجاهلية فى مدح سادة القبائل والأشراف . وممّا نتعجب منه فى نظم شاعر مثل جرير هو نوع الافتخار الوارد فى إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم السالفين فقال وهو افتخار إسلامىّ محضٌ فريد فى ديوانه المصوغ فى قالب القدماء[3] :

---

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ – ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٨٤ – ٢٨٥ من طبعة ١٣٥٤] ونجد مثل هذه العبارات الدينية فى قصائد قالها فى الخلفاء وأمرائهم (راجع ديوان ج ١ ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣ و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] — أخرم الذى شق وترة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثانى فليراجع مايحكى المسعودى فى الباب السادس والتسعين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١ – ٣٨٢ من طبعة باريس) فى هدم البيعة والأخرم .

(٣) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو النقائض عدد ١٠٤ بيت ٢٧ – ٣٤ ج ٢ ص ٩٩٤ – ٩٩٥ من طبعة ليدن .

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مطهَّرَا

ومنّا سليمانُ النبيُّ الذى دعا فأُعْطِىَ تبياناً ومُلْكاً مسخَّرَا

وموسى وعيسى والذى خرّ ساجدًا فأنبت زرعاً دمعُ عينيه أخضرا

ويعقوبُ منّا زاده اللهُ حكمةً وكان ابنُ يعقوب أميناً مصوَّرا

فيجمعنا والغُرَّ أبناءَ سادةٍ أبٌ لا نبالى بعده من تعذّرا

أبونا خليل الله والله ربُّنا رضينا بما أعطى الإلهُ وقدَّرا

بَنَى قبلةَ اللهِ التى يُهْتَدَى بها فأوْرَثَنا عزًّا ومُلْكًا معمَّرا

وشتّانَ ما بين هذا القول وبين الافتخار المعتاد فى سائر أشعار جرير المقتفى أثر الأقدمين مثل أبياته فى الأخطل[1] :

إنّ الذى حرَم المكارمَ تغلباً جعل النبوّةَ والخلافةَ فينا ...

مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكمْ يا خُزْرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا

هذا ابنُ عمّى فى دمشقَ خليفةٌ لو شئتُ ساقكُمُ إلىَّ قَطِينا

وكمثل الأخطل لم يصُغْ جرير الشعر فى الغزل أبدًا لبعده عن أساليب أهل القبائل فيروى فى كتاب الأغانى[2] أنّه قال فى شعر عمر بن أبى ربيعة : شعرٌ تِهامىّ إذا أنجد وجد البرد. وسمع مرّة بعض الأبيات لعمر بن أبى ربيعة فأعجبتْهُ فقال : ما زال هذا القرشىّ يَهْذِى حتّى قال الشعر . وهذا يوافق ما أوضحت فى إحدى الصفحات السابقة من الفرق بين شعر المدن الحجازيّة وشعر أهل الوبر فى القرن الأوّل للهجرة . — أمّا النسب فى أوائل القصائد فعاطاه جرير فى الأغلب على منوال أشعار الجاهليّة وذكر الأطلال والدِّمَن

---

(١) ديوان ج٢ ص ١٥١ من طبعة مصر١٣١٣ [أوص ٥٧٨ — ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤] وانظر أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٢٦ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ٣٨ و ٧٢ من طبعة بولاق وراجع العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣٣ سطر ٢ — ٤ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تحريف — تهامى يعنى مكيا ومن المشهور أن مكة فى التهامة ، وهذى تكلم بغير معقول لمرض أو غيره .

والأَسَى والعاذلات ولكنَّه ربّما عدَل عنه كأنَّه مقتد ببعض قصائد الأخطل فجاء بذكر الغوانى الفاتنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل[1] :

إنَّ الغوانِىَ قد قطعن مودّتى … بعد الهوى ومنعن صَفْو المشربِ
وإذا وعدنك نائلاً أخلفنه … وجعلن ذلك مثل بَرْق الخُلَّبِ
يُبْدِين من خَلَل الحِجال سوالفاً … بيضاً تُزيَّن بالجُمان المذهَّبِ
أعْناقَ عاطيةِ الغصون جوازئٌ … يبحثن بالأُدْمى عروقَ الحُلَّبِ

ولعلّ ثُلُثَىْ شعر جرير فى الهجاء وهو فى الأغلب هجاء لاذع جدًّا لا تخلو إحدى مقطّعاته أو قصائده عن قذْف النساء بالفواحش وعن الكلام السافل البذىء المستقبَح مثل الوارد فى أهاجى الفرزدق . قال ابن رشيق القيروانى فى كتاب العمدة[2] : «وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح لاتّساع الظنّ فى التعريض وشدة تعلُّق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفسُ علماً وقبلَتْه يقيناً فى أوّل وَهْلة فكان كلّ يوم فى نقصان لِنسْيان أو ملل» . ولكن لم يكن هذا رأىَ شعراء الصنف الذى نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق : «وجميع الشعراء يرون قِصَر الهجاء أجْوَدَ وترْكَ الفحْش فيه أصْوَب إلّا جريرًا فإنه قال لبنيه إذا مدحتم فلا تُطيلوا الممادحة وإذا هجوتم فخالِفوا» . ومن المشهور

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٨ – ١٩ من طبعة ١٣٥٤] – الخلب السحاب لا مطر فيه كأنه يخدع الشائم ويقال لمن يعد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب) خلل جمع خلة وهى الثقبة – حجال جمع حجلة وهى ستر العروس فى جوف البيت وفى الصحاح : «بيت يزين بالثياب والأسرّة والستور» – سوالف جمع سالفة وهى صفحة العنق وقيل ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان – الجوازئ الوحش بأسره لاستغنائها بالكلإ عن كثرة الماء – الأدمى موضع فى أواسط جزيرة العرب – حلب نبت ينبت فى القيظ بالقيعان وشطآن الأودية ويلزق بالأرض حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفى البيت الثالث قرأت «بالجمان» بدلا من «بالجمال» كما فى الديوان – فانظر نسيباً ثانياً فى ديوانه ج ١ ص ١١٢ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) كتاب العمدة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أنَّ جريرًا لم ينفكَّ يهجو غيره من الشعراء وعشائرهم طولَ عمره فقال الأصمعيّ [1] : «كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرًا فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدًا واحدًا ومنهم من كان ينفُخه [2] فيرى به وثبت له الفرزدق والأخطل» . فذكر بضع أخصامه من الشعراء فى قصيدة قال فيها [3] :

خزِىَ الفرزدقُ والأُخَيْطِلُ قبله ... والبارقُّ وراكبُ القَصْواء

ولأَعْوَرَىْ نَبْهانَ كأْسُ مُرَّةٌ ... ولتَيْمِ بَرْزَةَ قد قضيْتُ قضائى

ولقد تركتُ أباك يا ابن مسحّب ... حَطِمَ القوائم دامِىَ السِّيساء

والمستنير أجيرُ بَرْزَةَ عائذًا ... أمسى بألأمِ مَنْزِلِ الأحياء

وبنو البَعِيث ذكرتُ حُمْرة أمّهم ... فشفيْتُ نفسى من بنى الحمراء

وإذا تأملنا حكاية ابتداء التحام التهاجى بين جرير والفرزدق خلناها من روايات زمان الجاهلية . فهى أنَّ الأهاجى كانت تدور بين جرير والبَعِيث من بنى مجاشع رهط الفرزدق فلمّا أحسّت بنو مجاشع بغَلَبة جرير على شاعرهم وبلغهم فُحْش جرير بنسائهم اضطرّوا الفرزدق إلى الدخول بينهما ففعل كارهاً فاكتفى أوّلًا بالدفاع عن عشيرته بدون ذكر جرير ولا شَتْم بنى كُلَيْب فأجابه جرير وصاوله وعشيرتَه صَوْلةً شديدةً فالتهب نيران

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) [وفى طبعة دار الكتب المصرية ج ٨ ص ٨ ينفحه بالحاء المهملة بدلا من ينفخه بالخاء المعجمة وهو على الأصح] .

(٣) ديوان ج ١ ص ٦ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١١ من طبعة ١٣٥٤] . — البارق هو سراقة ابن مرداس البارق — القصواء ناقة للمرار بن منقذ من بنى العدوية (انظر كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤٦) — أعور نبهان اسمه نعيم بن شريك وقيل حريث بن عناب وقيل سحمة بن نعيم وقيل سحيم بن شريك (انظر النقائض ج ١ ص ٣١ — ٣٢ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٦ سطر ٦ ولسان العرب ج ١٧ ص ٢١٥) — تيم برزة يعنى عمر بن لجأ التيمى وبرزة اسم أمه (انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٧٤ سطر ٦) — المستنير بن سبرة العنبرى — البعيث المجاشعى ويقال له ابن حمراء العجان (انظر نقائض عدد ٣٢ بيت ٢٩ و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مثلا) .

شرّ العداوة بين الشاعرين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرَج أنّ ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية ٦٤/٦٨٣ بقليل وقد مضى لكليهما عُنفُوان الشَّباب[1] . أمّا مدّة هذا التهاجى بينهما فأطْوَلُ من أربعين سنةً لأنّنا نعثر فى إحدى قصائد الفرزدق فيه على ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذى ابتدأ يتولّى الأمر سنة ١٠٥/٧٢٤ [2].

من المشهور أنّ نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبى عُبَيْدة مَعْمَر بن المثنّى التيْميّ المتوفّى سنة ٢٠٧ ثمّ انكبّ على شرحها غيره من علماء اللغة حتّى وصلت إلينا بشرح أبى عبد الله محمّد بن العبّاس اليزيدىّ المتوفّى سنة ٣٠٠ روايةً عن الحسن بن الحسين السُّكَّرىّ المتوفّى سنة ٢٧٥ عن أبى جعفر محمّد بن حبيب المتوفّى سنة ٢٤٥[3] . فلا أحد يجهل أنّ النقيضة فى اصطلاح علماء اللغة والأدب هى قصيدة ينسجُها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفَظ بَحْرَ ورَوِيَّ القصيدة التى يخالفها ويعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخم يتضمّن ١١٣ قصيدةً منها ٦٢ لجرير و ٣٨ للفرزدق و٦ للبَعِيث المجاشعىّ و ٥ لغسّان بن ذُهَيْل وواحدة لعُقْبة بن مُلَيْص وواحدة لنُعَيْم بن شَرِيك ، وذلك ما عدا الأشعار العديدة المرويّة فى الشرح الوافى الوافر الآتى بقِصَص الحوادث وأيّام العرب الواردِ ذكرُها فى متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد فى ديوانَى الشاعرَيْن . وأهمّيتها تتجاوز حدود علم الآداب لأنّ الشاعرَ فى مثلها دفاعاً عنه وعشيرتهِ وهُجوماً على أخصامه «يضطرّ إلى

(١) انظر ماقاله الأستاذ Bevan فى مقدمته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ — ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ — ١٣ . وأدخلت بعض النقائض فى ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ فراجع ماقاله Bevan فى ص ١٩—٢٠ من مقدمته [وأدخل محمد إسماعيل عبد الله الصاوى كل نقائض جرير والفرزدق الشاعرين فى ديوانيهما اللذين اعتنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

تعداد مساوئ أعدائه وذكر الأيّام التى توالت بين قومه وقبائل الذين يهجوهم موضّحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعْضُع . فمثل هذه القصائد هى كتاريخ منها نعلَم أحوالهم ونطّلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وفرسانهم المذكورين ونتحقّق الأزمنة والأمكنة التى عاشوا فيها . فكم من الأماكن والبلدان والجبال والوديان والمياه والقُرَى ورد ذكرها فى تلك القصائد وكم من الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم تُعْلِنهم لنا النقائض »[1] .

وفى مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينيّة نسخة خطّيّة من نقائض الأخطل وجرير جمعها وشرحها شرحاً صغيراً أبو تمّام صاحب الحماسة المتوفّى على القول المرجّح سنة ٢٢٨[2]. ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجرير لايتضمّن هذا الكتاب إلّا قصائدَ مثبَتةً فى ديوانى الشاعرين لم يتّضح أنّها من النقائض إذا راجعنا كلَّ ديوان على حِدَة . — وممّا يجدُر ذكره أنّ جريراً فى نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشاراتٍ إسلاميّةً كأنّه من أتقى الناس وسبَّ دين النصارى فقال مثلاً[3] :

لَعَنَ الإلهُ مَنِ الصليبُ إلٰهُهُ والللابسين برانسَ الرُّهْبانِ

---

(١) قاله الأب أنطون صالحانى فى مجلة المشرق السنة الثالثة عشرة ١٩١٠ ص ٩٧ :

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, *über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel* (*Orientalische Studien Th. Noeldeke...gewidmet*, Giessen 1906, P. 985-392) والأب صالحانى فى مقالته المسماة بنقائض جرير والأخطل فى المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ — ١٠٧ [وطبعت نقائض جرير والأخطل عن نسخة الأستانة الوحيدة فى بيروت سنة ١٩٢٢] .

(٣) ديوان ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . أما مارسرجس المذكور فى البيت الأخير فهو قديس أكرمه بنو تغلب انظر ديوان جرير طبعة ١٣١٣ ج ١ ص ١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (حج بنى تغلب لمار سرجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استنصر بنو تغلب بمار سرجس وابنه) ثم ج ٢ ص ٢٩ سطر ١٠ (استنصر التغلبيون بمار سرجس) و ص ٥٦ السطر الأخير (دعا الأخطل مار سرجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة فى طبعة ١٣٥٤ ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٣ و ص ٤٥١ سطر ٢] . وراجع أيضاً بيت الأخطل فى ديوانه ص ٣٠٩ :

والدابحين إذا تقارب فِصْحُهمْ شُهْبَ الجلود خسيسةَ الأثمانِ
من كلّ ساجى الطَّرْف أعصل نَابُهُ فى كل قائمة له ظِلْفانِ
تَغشى الملائكةُ الكرامُ وفاتَنا والتَّغْلَبِىُّ جِنَــازةُ الشَّيْطانِ
يُعْطى كتابَ حسابهِ بشِمالهِ وكتابُنـــا بأكُفّنا الإيمانِ
أيصدّقون بمار سِرْجِسَ وابنهِ ويكذّبون محمّدَ الفُرْقانِ

وغير مرّة عيّب الفرزدق لما كان بينه وبين الأخطل من الصداقة فجعله من الكفار على أنّه مسلم [1] :

إنّ الفرزدق حين يدخُلُ مسجدًا رجْسٌ فليس طُهورهُ بطُهورِ
إنّ الفرزدق لا يبــالى مَحْرَمًا ودمَ الهَدِىّ بأذْرُعٍ ونُحورِ
إنّ الفرزدق فى جُلاجل كُرَّجٍ بعد الأُخَيْطل ضُرّةٌ لجرير
رهطُ الفرزدق من نصارى تغلب أو يدّعوا كَذِباً دَعاوةَ زورِ
حُجّوا الصليبَ وقرِّبوا قُرْباتكمْ وخُــذوا نصيبَكُم من الخنزير

ومن هذا الضرب أيضاً [2] :

ألا قبّح اللهُ الفرزدقَ كلّما أهلّ مُصَلٌّ للصلاة وكبّرا
فلا يقْرَبَنَّ المرْوتَيْن ولا الصفا ولا مسجد الله الحرامَ المطهّرا
فإنّك لو تُعْطِى الفرزدق درهماً على دينِ نصرانيّةٍ لَتَنَصّرا

— لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسما ناقعا
فيسب جرير دين النصارى أيضاً فى أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و ١١٦ و ١١٧ و ١٣٤ و ١٣٥ وج ٢ ص ٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٩١ و ٢٩٣ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة فى قصائد يهجو فيها الأخطل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٩٣ — ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤]

وقوله [١] :

وقد لحِق الفرزدقُ بالنصارى ليَنْصُرهمْ وليس به انتصارُ
ويسجُد للصليب مع النصارى وأفلَجَ سَهْمُنا فلنا الخيارُ

ولكن واضح أنَّ مثل هذا الكلام عند جرير تعصُّب قوىٌّ فى الحقيقة لا تعصُّب دينىّ .

اختلفت العلماءُ فى تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفى أيُّهم المتقدّم وأغزرهم بحرًا وأرقُّهم شعرًا وأهتكهم لعدوّهِ ، فلو أردت إيراد جميع أقوالهم لأحتَجْتُ إلى إفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على نتيجة لا تنازُع فى صحتها [٢] . والذى يجتمع على رأيى من مراجعة دواوينهم ونقائضهم أنَّ الأخطل فاق معاصرَيْهِ فى التصرُّف فى النسيب الخالى عن التكلُّف الصادر عن القلب ثمّ فى فخر المدائح وفى العَفاف عن الفُحْش . وهو انفرد بتعاطى الخمريات لأنّ ما للفرزدق من هذا الضرب إنّما شىء قليل جدًّا كاد لا يُذْكَر ، وله الفضل أيضاً فى وصف المناظر الطبيعيّة يصوّرها بغاية الإتقان والقوّة فى التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارئ أن يشاهدها فلم يُدْرِك الفرزدق ولا جرير براعته فى ذلك [٣]. والفرزدق فاق سائر الثلاثة فى وفرة المراثى وجودتها ورشاقتها ثمّ فى التصرُّف فى اللغة لكنّه أخبثُهُمْ فيما يمُجُّه الذوق السليم من الكلام القَذِع وأوقحهم تنحُّلَ أبياتِ غيره ؛ أمّا هجاء الفرزدق وجرير فقيل إنّ أهاجى جرير كلّها تدور على أربعة أشياء هى

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٣٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية الغريبة عن تشاجر الناس فى عسكر المهلب بن أبى صفرة (حين كان يقاتل الأزارقة بفارس) فى مسألة أجرير أشعر أم الفرزدق (كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥ من طبعة بولاق).

(٣) انظر فى الديوان ص ١٥ مثلا وصف الأتن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وألحاظها إلى الغيضة حيث تخشى الصياد متواريا يترصدها وفى ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف الحمير الوحشية وفى ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور فى الليل وقتاله للضراء .

القَيْن[١] والزناء وضرب الرومىّ بالسيف[٢] والنَّفْى من المسجد[٣] ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غير منصِف قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجَزَرىّ وإن بالغ قليلاً فى مدافعته عن جرير[٤].

ومن الشعراء المُجيدين من هذا الصنف الثالث غَيْلان بن عُقْبة الشهير بذى الرُّمّة الذى حُكِم له فى الشعر بمنزلة لا تنحطّ عن منزلة الثلاثة المتقدمين إلّا بشىء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جدًّا أعنى أنّه كان من قبائل أواسط جزيرة العرب وكان يأتى الحضر فيُقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ وشبّب فى شعره بمَيَّة وخَرْقاء . أمّا موته فقال صاحب كتاب الأغانى[٥] إنّ ذا الرمّة توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك ($\frac{١٠٥}{٧٢٤}$ – $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلكان[٦] إنّه مات سنة ١١٧ . ودُفن برمال حُزْوَى فى وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبرى وصغرى وكلتاهما غيرُ مطبوعتين[٧] والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطّعة وعشر منها أراجيز .

---

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفى النقائض عدد ٣٣ بيت ٤٩ القين العراق هو البعيث المجاشعى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٨٥ – ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رومياً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق فى حماسة البحترى ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ — ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقائض ص ٤١٣ من طبعة ليدن ومفتاح العلوم للسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٤٩٠ — ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ — ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبعات المصرية .

(٧) { طبعت رواية الديوان الكبرى فى مدينة Cambridge سنة ١٩١٩ بعناية C.H.M. Macartney وطبع أيضاً الديوان فى بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير يموت) .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوىّ[1] المتوفّى سنة ١٥٤ : «إنّ الشعر فُتح بامرئ القيس وخُتم بذى الرُّمّة» ويُنْسَب أيضاً إلى أبى عمرو بن العلاء هذا القول[2] : «إنّما شعره نُقَط عروس تضمحلّ عمّا قليل وأبعار ظِباء لها شَمّ فى أول شَمّها ثمّ تعود إلى أرواح الأبعار»[3] . ولعلّكم تسألون كيف يجتمع هذان القولان مع ما فيهما من التناقض الظاهر . فأقول : الواضح على ظنّى أنّ أبا عمرو بقوله الأوّل إنّما أراد الشعر على منوال قصائد الأعراب فى أيّام الجاهليّة فإن كان هذا مراده أصاب قوله لأنّ ذا الرّمة آخر النوابغ الذين تمسّكوا بأساليب القريض القديم لغة ومعنى وموضوعاً . فلو قرأ مثلاً أحدٌ قصيدته الشهيرة التى مطلعها[4] :

ما بالُ عينِكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ كأنّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ

وفراءَ غَرْفِيَّةٍ أثأى خــوارزها مشلشل ضيعته بينها الكُتَبُ

ولم يعرف اسم قائلها لخالها من نسج فحول الجاهليّه . فبين شعر ذى الرمّة وبين شعر الأخطل والفرزدق وجرير فرق لا يُنْكَر ، فإنّ هؤلاء الثلاثةَ متوسّطون بين مسلك القدماء المشهور وطريقة الذين عاشوا بعد ابتداء الدولة العبّاسيّة ، وعلى أنّهمْ من أهل القبائل أخذوا من عواطف أهل الحضر شيئاً فأتَوْا أحياناً بمعانٍ لم يسبِق إليها شعراء الجاهليّة ووصفوا ما لم يصفْهُ القدماء لعدم معرفتهم به ، وعدلوا عن أنواع التوحّش فى كثير من

---

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٥١) والوفيات لابن خلكان فى الموضع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١١٥ (مرتين) وفى الوفيات لابن خلكان فى الموضع المذكور .

(٣) قال صاحب خزانة الأدب ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق : «قال المبرد معنى قوله نقط عروس أنها تبقى أول يوم ثم تذهب وبعر الظباء إذا شممته من ساعته وجدت فيه كرائحة المسك فإذا غب ذهب ذلك منه . . . وقال الأصمعى إن شعر ذى الرمة حلو أول ما تسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن» .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٧ — ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

أبياتهم وليّنوا كلامهم وإن كانت مُعْظَمُ أشعارهم تدور على المدار القديم . أما ذو الرمّة فلم يزل بدويًّا محضًا فأفكاره وأمياله وأنواع وصفهِ ومواقع كلامهِ جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهليّة لا غير فتعثرون في شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ. وتجدون فيه أحياناً التراكيب الصعبة الفهْم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله[1] :

كأنَّا على أولادِ أَحْقَبَ لاحَها ورَمْيُ السّفا أكْفالَها بسَهامِ
دَبُورٌ ذَوَتْ عنها التناهي وأَلْحَقَتْ بها يَوْم ذَبّاتُ السَّبيبِ صيام

وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء حسبما يأتي بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع . وكل قصيدة له لا تخلو عن الوقوف على المنزل الداثر والرسم العافي وعن ذكر الأسى على ذهاب القوم بمشوقة الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر الشاق الطويل في الرمال والكُثْبان والمفاوز الهائلة مع الإطناب في وصف المَهامِهِ والليل المُرْعب وعزيف الجن[2] في البوادي والحمير الوحشية والصيد والناقة والأنساع والأزِمّة وهلمَّ جرًّا ؛ فبعد ذلك يبتدئ الشاعر بالمديح أو الهجاء . وخلاصة القول أنّه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلاّ في النادر

---

(١) البيتان مرويان في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٥١١ من طبعة بن أويج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق – أما معناهما فكأن الشاعر قال : « كأننا على أولاد أحقب لاحها دبور ذوت عنها التناهي وربى السفا أكفالها بسهام وألحقت بها يوم صيام ذبات السبيب» – لاحه غيره – ذوى ذبل – تناه جمع التنهية من الوادي حيث ينتهي إليه الماء من حروفه – سفا شوك البهمى والبهمى نبت يشبه الشعير – سهام حر السموم – أكفال جمع كفل وهو الردف أو العجز – سبيب شعر الذنب والعرف – ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب في شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke في كتابه *Zur Grammatik der classischen Arabisch*, Wien 1896, P. 86-87

(٢) جمع الجاحظ في كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٥) أبياتاً قالها ذو الرمة في عزيف الجن وانظر أيضاً GOLDZIHER, *Adhandlungen Zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I.P. 211.

حين قال مثلاً فى آخر أرجوزة [1] :

فقلت لا والمُبْدِئِ المُعيدِ   اللهِ أَهْلِ الحمد والتحميدِ

ما دون وقتِ الأَجَلِ المعدودِ   موعودِ ربٍّ صادقِ الوعودِ

هلْ أَغْدُوَنْ فى عِيشةٍ رغيدِ   واللهُ أَدْنَى لى من الوريدِ

والموتُ يَلْقَى أَنْفُسَ الشُّهودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمّة وصناعته وأفكاره لم يصدّق صحة البيتين المرويين لذى الرمّة فى كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ. خطأً [2] :

تَعْصِى الإلٰهَ وأنت تُظْهِرُ حُبَّهُ   هذا مُحَالٌ فى القياس بديعُ

لو كان حُبُّك صادقاً لأَطَعْتَهُ   إنَّ المُحِبَّ لمن يُحِبُّ مُطيعُ

ولذى الرّمة الحظّ الأوفر فى التشبيه الجيّد فاق فيه أكثر الشعراء وإن كان ربما يُطيله بإفراط . وكان مثل الفرزدق كثير أخْذ الأبيات من غيره فوفرة سرقاته مشهورة [3].

ثمّ من شعراء هذا الصنف الثالث عُبَيْد بن حُصَيْن (وقيل عُبَيْد بن معاوية) من بنى نُمَيْر لُقب بالراعى أو راعى الإبل لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إيّاها . كان فى الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده وأهل بيته سادة وأشراف بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاه جرير . وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان

---

(١) كتاب مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز بعناية R. Geyer عدد ٢٣، بيت ٧٩ — ٨٥ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ .

(٢) فى باب محاسن الزهد ص ١٨٣ من طبعة ليدن ١٨٩٨ .

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٨ — ٣٤٠ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٦٥/٦٨٥ – ٨٦/٧٠٥) [١] ما وصل إلينا من شعره إلا قليل متفرّق فى كتاب الأغانى وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى وحماسة أبى تمّام وحماسة البُحْتُرىّ وغيرها [٢] . ومن المشهور أنّ غير بيت له سرقهُ لجودته بعض الشعراء لا سيّما الطِّرِمّاح [٣] .

ومن معاصرى الفرزدق وجرير أيضاً مُرَّة بن مَحْكان السَّعْدى سيّد بنى رُبَيْع قتله صاحب شُرَط مُصْعَب بن الزُّبَيْر ، افتخر فى أشعاره بالتضييف والجود فمن قوله [٤] :

أَلا فَاسْقِيَانِى قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلِمٍ بَعِيدٍ عن الأَحْبابِ مَنْ هو نازِلُهْ
رأَيْتُ الفتى يَبْلى ويَتْلَفُ مالهُ وتَنْكِحُ أزواجاً سِواه حلائلُهْ
ذَرِينى أُنَعَّمْ فى الحياة مَعِيشتى فآكُلُ مالى دون مَنْ هو آكِلُهْ

ومنهم العُدَيْل بن الفَرْخ العِجْلىّ الذى هجا الحجّاج بن يوسف ففرّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثمّ طلب منه العفو بأبياته المشهورة [٥] :

فلو كنتُ فى سَلْمَى أَجاً وشِعابِها لكان الحجّاج علىَّ دَليلُ

---

(١) القصيدة مروية فى جمهرة أشعار العرب ص ١٧٢ – ١٧٦ من طبعة بولاق وفى ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ – ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٣ وروى صاحب خزانة الأدب (ج ١ ص ٥٠٢ – ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً – أما الأبيات المروية فى الجمهرة فهى ٨٥ .

(٢) راجع حماسة أبى تمام ص ٦٦٠ – ٦٦٢ و ٦٦٣ – ٦٦٤ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٣٥ – ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ – ٢٤٧ من طبعة ليدن .

(٤) حماسة البحترى ص ٣٤٤ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت . وأبيات مروية له فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ٩ – ١١ وفى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣١ – ٤٣٢ من طبعة ليدن وحماسة أبى تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٥٩–٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) رويت له أبيات فى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٣ وحماسة أبى تمام ص ٣٤٧–٣٥١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٢٦–١٣٠ من طبعة بولاق – والفرخ بفتح أوله وسكون الثانى راجع ماقاله الأستاذ De Goeje فى حاشية I من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء .

خليلُ أميرِ المؤمنين وسيفُهُ ... لكلّ إمامٍ مصطفًى وخليلُ

بَنَى قبّةَ الإسلام حتّى كأنّما ... هَدَى الناسَ من بعد الضلالِ رسولُ

ومنهم العُجَيْر السَّلُولِيّ الذى مدح عبد الملك بن مروان واعله أدرك خلافة هشام بن عبد الملك ($\frac{١٠٥}{٧٢٤}$ — $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$) وكان من المشهورين بالإسراف [١]. — ومنهم عَقِيل بن عُلَّفة المُرّى [٢] من أشراف قومه فكانت قريش ترغَب فى مصاهرته فتزوّج يزيد بن عبد الملك ابنته الجَرْباء . — ومنهم البعيث المجاشعى الذى كان خصماً من خصوم جرير وخطيباً بليغاً [٣] — ومنهم الصلتان العبدى [٤] واسمه قثم بن خبيئة الذى اجتمع إليه فى الحكم بين جرير والفرزدق — ومنهم عمر بن لجأ [٥] وهو من خصوم جرير أيضاً وكان راجزًا مقصدًا . — ومنهم يَعْلى الأَحْوَل بن مسلم اليَشْكُرِىّ الأزدىّ الذى

---

(١) كتاب الأغانى ج ١١ ص ١٥٢ — ١٥٩ وحماسة أبى تمام ص ٤١٦ — ٤١٧ و ٧٠٦ — ٧٠٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ و ج ٤ ص ٧٩—٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاحظ ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٣١٣ [أو ج ١ ص١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفى الحشية أبيات أخرى للشاعر] أو أمالى القالى ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو ج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ — ١٣٥ من طبعة ليدن ١٩١٦] .

(٢) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٨٥ — ٩٣ من طبعة بولاق وحماسة أبى تمام ص ١٩٦ — ١٩٨ و ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥١٠ منطبعة بن أو ج ١ ص ٢٠٩ و ج ٣ ص ٢٣—٣٤ و ٨٦ منطبعة بولاق (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة ليدن) .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣١٣ من طبعة ليدن وأبيات مروية له فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٦٢ و ١٦٩ و ج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣—١٣٢٥ فراجع كتاب البيان لنفس الجاحظ ج٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ — ٣١٦ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢—١٠٣ و ج ٢١ ص ٤١ ورويت أربعة أبيات من مرثيته للمغيرة المهلب فى أمالى المرتضى (ج ٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ فى المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٣٢٥ (راجع J. KRENKOW, *The Elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab* (*Islamica*, II, 1927, P. 344-354)

(٥) كتاب العمدة لابن رشيق ج١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ — ٤٢٩ من طبعة ليدن (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣١ — ١٣٢ من طبعة ليدن) .

كانت عيشته تُشْبِه عيشة الشَّنْفَرَى وتأبّط شَرًّا لأنّه «كان لصًّا فاتكاً خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزْد وخُلعاءها فيغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة» فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة فى خلافة مروان بن الحكم (٦٤/٦٨٣ - ٦٥/٦٨٥)[١]. — ومنهم عُوَيْفُ القَوَافى الفَزَارىّ من ساكنى الكوفة وبيته من بيوتات العرب المقدَّمة، تعاطى الهجاء والمديح والرثاء فى أيّام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بنى أميّة حتّى أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩/٧١٧ - ١٠١/٧٢٠)[٢].

إن سرَحْتم أنظاركم فى كتاب حماسة البُحْتُرىّ عثرتّم على ثلاثة أبواب[٣] مترجمة بهذه التراجم: الباب الحادى والسبعون والمائة فيما قيل فى مَطْل الديون وكَسْرها على الغرماء. الباب الثانى والسبعون والمائة فيما قيل فى اليمين وامتناعهم منها بدءًا ليغُرّوا غرماءهم بذلك ثمّ مسامحتهم بها وتسهيلها عليهم عند المطالبة وتصميمهم عليها. الباب الثالث والسبعون والمائة فيما قيل فيمن تنجّح باليمين وبَذَلها لغريمه من غير تمنُّع. — وأكثر الشعراء المرويّة أبياتُهُم فى هذه الأبواب الثلاثة غير مذكورين فى سائر المصادر ولكن يتّضح من الإشارات الإسلامية الواردة فى عدّة أشعار ومن ذكر الكوفة وفُرْس العراق

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١٠٥ — ١١٨ وحماسة أبى تمام ص ١٢٧ — ١٢٨و٢٦٣ و٦٧٢ من طبعة بن أبيج ١ ص ١٣٩—١٤٠ وج ٢ ص ٤٤ وج ٤ ص ٤٨ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ص ٢٦ و ١٦٠ و ٣٧٨ من طبعة ليدن أو ص ١٤ و ١٠٨ و ٢٦٣ (عدد ٢٨ و ٥٠٠ و ١٤١٥) من طبعة بيروت (وكتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٨٨ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) حماسة البحترى ص ٣٧٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦١ — ٢٦٨ عدد ١٤١٠ — ١٤٣٤ من طبعة بيروت فراجع LAMMNS, *La république marchande de la Mecque* (Bulletin de l'Institut d'Egypte, V série t. IV, 1911, P. 38-40,). [LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'hégire*, Beyrouth 1924, P. 145 sqq.]

ومن الأسماء الإسلاميّة أنّهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأنّ قسْماً منهم أدرك أواخر القرن الأوّل أو تجاوزها وعلى كلّ حال هم بأسرهم من أهل البادية فيليق بهم جعْلُهم فى هذا الصنف الثالث من الشعر . وأبياتهم حريّة بالاعتبار لما فيها من الدلالة على بعض الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة فى جزيرة العرب وما يليها من العراق فى القرن الأوّل . «يَا أَيُّهَا ٱلذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا ٱلرِّبوا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً »[1] : هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد فى القرآن الشريف . ولكنّ أولئك التجّار من أهل الحضر الذين اعتادوا الرِّبْحَ العظيم بقرْض المال فى زمان الجاهليّة لم يرضَوْا بالامتناع عمّا كان يعود عليهم بالفائدة الماليّة العظمى فأتَوْا بالحِيَل الحصول على ما قد حرمه دين الإسلام فعند البيع لا سيما بالدَّيْن صاروا يغُشّون أهل البادية مراراً لما وجدوا فيهم من الاحتياج إلى المال ومن السذاجة والجهل . وبما أنّ الخِداع كثيراً ما يدعو الخداع صار أهل البدو يُبْغِضونهم ويحاولونهم ويردُّون الغِشَّ بالغِش مفتخرين بعملهم هذا لا سيَّما إن كان ربُّ المال من غير أولاد العرب . وكلّ ذلك موصوف فى الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجّار المختدَعين هَدَفاً لضَحِك السامعين[2] .

٤ ـ فلنخُض الآن فى الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع فى أيّام الدولة الأمويّة أعنى الأراجيز . إنّ هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر الصنف الثالث من حيث اللغة والموضوع والمعانى والمبدأ والخروج والاستطراد والنهاية فإنما الفرق بينهما فى القالب الذى صِيغَا فيه وهو بحر الرجز المشطور

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٠ .

(٢) ومن ألطف هذه الأشعار ما قاله رديفى بن عبس الفقمى مرتجزاً ، فراجع حماسة البحترى ص ٢٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

لأشعار الصنف الرابع وسائر الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن تعترضوا عليّ سائلين أهذا الفرق المحدود فى جنس العروض يستلزم إثبات صنفين على اتّفاقهما فى أغلب الأمور . فأقول إنّ الذى حملنى على مثل هذا التمييز ثلاثة أشياء : ١ً إن أراجيز هذا الصنف الرابع نوع خاصّ لم يسبُق إليه شعراء الجاهليّة ولا استعمله شعراء الدولة العبّاسيّة . ٢ً إنّ أكثر الذين تعاطوْا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ً إنّ اتّخاذ الرجز أثّر فى صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصّة لا يُوجبها أحد الأعاريض الباقية المشتمل كلُّ بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أنّ أغلب علماء صناعة الشعر ميّزوا الرجز والشعر (أو القريض) تمييزًا تامًّا وذلك ابتداءً من لغويّى القرن الثانى مثل أبى عمرو بن العلاء المتوفّى سنة ١٥٤ وتلامذته حسبما يتّضح من عدّة نصوص قديمة[١] . ففى كتاب النوادر المشهور فرّق دائمًا أبوزيد الأنصاريّ المتوفّى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز . ثمّ لا أحد يجهَل أنّ نوابغ الشعراء فى زمان الجاهليّة قلما استعملوا الرجز كأنّه ليس أهلاً لمنزلتهم ففى ديوان امرئ القيس لا نعثر إلّا على أربع مقطّعات صغيرة منه أعنى اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور[٢] . وأكثر من امرى القيس ارتجازًا لبيد ابن ربيعة من الذين أدركوا الإسلام تُنْسَب إليه خمس عشرة مقطّعة فى

(١) راجع النصوص المروية فى J. GOLDZIHER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie*, I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان للجاحظ ج٢ ص١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أو ج٣ ص٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجلى الرجز والقريض فى بيت مروى فى لسان العرب 2 ٩ ص ٨٤ .

(٢) عدد ٤٤ و ٦ (رجز غير مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بعناية Ahlwardt.

الرجز المشطور[١] تدور على المفاخرة والحكمة والمعاتبة والمديح والرثاء وتشتمل إحداها وهى أطولها على ستة عشر بيتاً .

أمّا دواوين النابغة الذبيانىّ[٢] وزهير بن أبى سُلْمَى وعنترة بن شدّاد وطرفة بن العبد[٣] وعلقمة الفحل فلا شئ فيها من الرجز . وعلى كلّ حال لم يكن الارتجاز فى زمان الجاهليّة إلّا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً فى الهجاء أو فى الحرب وعند اللقاء . أمّا فى القرن الأوّل للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر فى ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغيُّر أشار ابن رشيق القيروانىّ فى كتاب العمدة حين قال[٤] : «قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتّى كان العَجّاجُ أوّلَ من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركّاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ؛ فكان فى الرُّجّاز كامرئ القيس فى الشعراء . وقال غيره أوّل من طوّل الرجز الأغلب العِجْلىّ وهو قديم وزعم

---

(١) راجع *Die Gedichte des* Lebid ... *aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben* von C. Brockelmann' Leiden 1891 عدد ٢٦ و ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات عدد ١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٣١ و ٣٢ .

(٢) وفى كتاب الأغانى ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بولاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات فى بحر الرجز المشطور قالها مرتجلا مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً فى عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع فى المجموعة المسماة *The Divans of the six ancient Arabic poets* بعناية Ahlwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Diwân des Ru'bah* Wien 1910, P. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد .

(٣) أما طرفة فتنسب إليه أيضاً أبيات فى بحر الرجز المشطور قالها وهو صبى ولعله استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخى مهلهل مثلا) فراجع شعراء النصرانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة فى المجموعة المذكورة فى الحاشية السابقة .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروى فى المزهر للسيوطى نوع ٤٩ ج٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥.

الجُمَحيّ[1] وغيره أنّه أوّل من رجز ولا أظنّ ذلك صحيحاً لأنّه إنما كان على عهد رسول الله (صلعم) ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك » .

ولكن لا شكّ فى وقوع سهْو فى آخر كلام ابن رشيق لأنّه من الواضح أنّ الجمحىّ إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز فى نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحىّ جهل ما هو متداول عند كلّ العلماء أنّ الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهليّة . وقول الجمحىّ صواب تؤيّده عدّة نصوص منها شهادة العجّاج من أشهر شعراء الأراجيز الذى قال مفتخرًا[2] :

وإنْ يكُنْ أمْسَى شَبابى قد حَسَرْ وفَترَتْ مِنّى البَوانِى وفَتَرْ ...

إنّى أنا الأغلبُ أضْحَى قد نُشِرْ

يعنى أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشَم العجْلىّ عاش فى الجاهليّة مدّة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر فى سجاح لمّا تزوّجت مُسَيْلِمة الكذّاب . قال صاحب كتاب الأغانى : «كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبى وقّاص فنزلها واستشهد فى واقعة نَهَاوَنْد[3] فقبره هناك فى قبور الشهداء ويقال إنّه أوّل من رجز الأراجيز الطوال من العرب . . قال ابن حبيب[4] كانت العرب تقول الرجز فى الحرب والحِداد والمفاخرة وما جرى

---

(١) يعنى محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ . (انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن).

(٢) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثانى المشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان بعناية Ahlwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المفردات ، فالبيت الثانى مروى فى لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروى فى كتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) فى سنة ٢١ هجرية فراجع J.WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichtel des Islams* (*Skizzen und Vorarbeiten*, Band VI, Berlin 1899) P. 108 n. 2; L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, IV, P. 474-505.

(٤) يعنى أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمى المتوفى فى ذى الحجة سنة ٢٤٥ .

هذا المجرى فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أوّل من قصّد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته » . وقال ابن قتيبة [١] : «وهو أوّل من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفى الحقيقة كلّ ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جدًّا منظوم فى الرجز . فالواضح أنّ الذى ابتدعه الأغلب الأُرجوزة أعنى القصيدة المصوغة فى بحر الرجز المشطور وهى غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب .

والمحتمل أنّ نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدّةً ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلّا فى منتصف القرن الأوّل أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور فى هذا النوع من النظم لمّح على المحتمل العجّاج فى أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كلّ حال ما عثرتُ على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشماخ بن ضرار [٢] فيما قبل خلافة يزيد بن معاوية . أمّا بعد منتصف القرن الأوّل فكثيرون اتّخذوا بحر الرجز لسبك القصائد مع قطع النظر عن

---

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة ليدن . انظر أيضاً ما قيل فيه فى كتاب الأغانى ج ١٨ ص١٦٤-١٦٧ وكتاب المعمرين للسجستانى ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ من طبعة بولاق وأسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ وفحولة الشعراء للأصمعى (فى مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft* ج ٦٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦ —٤٩٧ .

(٢) وقال أيضاً قصائد غير مرتجز . أما أراجيزه فهى مروية فى ديوانه المطبوع فى مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ — ٢٨ و ١٧٨ — ١٧٩ من طبعة ليدن وفى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) بعناية R. Geyer] عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ وقال الشماخ كلها إما هاجياً وإما مرتجلا فى السفر فتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموجودة فى القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر ما مضى من الزمان ووصف الناقة وذكر الرحلة والطرد والافتخار — . قال ابن قتيبة (ص ٢٧) إن الشماخ ارتجل مرة بالرجز « ثم قطع به الروى وتعذر عليه فتركه وسمع بغيره على أثره» فظن الأستاذ Geyer (P. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها فى عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى فى رجز منسوب إلى بعض الأعراب فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ .

الذين ارتجزوا قليلاً فى الهجاء مثل الأخطل[1] والفرزدق والبعيث[2] فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أراجيز . وبعض الذين اتّبعوا مسلك الأغلب تعاطوْا القصيدة والأرجوزة مع غلبة الأوّل على الثانية عندهم وهم جرير[3] وذو الرُّمّة[4] وعمر بن لَجَأ[5] السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشَّمَرْدَل بن شُرَيْك اليربوعى[6] من معاصرى الفرزدق كان ذا كَلَف بالصيد فقال فى الصقر والكلب والقَنْص أراجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأراجيز على القصائد ومنهم حُمَيْد بن مالك بن ربعى التميمىّ المعروف بحُمَيْد الأرْقَط[7] معاصر الحجّاج بن يوسف (المتوفّى سنة $\frac{٩٥}{٧١٤}$) ومنهم

---

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ — ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ (وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير فى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٢٥ — ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ — ٤ وراجع أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ٥٥ — ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٣ (وفيها مديح) .

(٤) جمع R. Geyer ماعثر عليه من رجز ذى الرمة فى كتابه المذكور عدد ١٥ — ٢٤ فالأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهى مقطعات وبعضها مروية فى أراجيز العرب ص ٥ — ١٠ و ٣٩ — ٤٨ و ٦٢ — ٧٠ و ٩٧ — ٩٨ و ١٣٨ — ١٣٩ (أى خمسة أعداد) .

(٥) قال الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « ممن جمع الرجز والقصيد » وقال ابن رشيق فى كتاب العمدة ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً ومقصداً » .

(٦) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٢ ص ١١٧ — ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن — وتروى له فى الأغانى ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفى ص ١٢٢ — ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذئباً « قد لازم مرعى غنم الشمردل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة فرصده ليلة حتّى جاء لعادته ثمّ رماه بسهم فقتله » .

(٧) انظر خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أو ج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١) وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وفحولة الشعراء للأصمعى (فى المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ . — تروى له أراجيز فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحماسة أبى تمام ص ٧٩٥ — ٧٩٦ من طبعة بن أو ج ٤ ص ١٦١ — ١٦٢ من طبعة بولاق .

أبو النَّجْم العِجْلِيّ (١) واسمه الفضل بن قُدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويُجيد القصيد والأرجوزة ويُراجز العجّاج وهو القائل فى نفسه (٢) :

إنّى وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ شيْطانهُ أُنْثى وشيطانى ذَكَرْ

فما رآنى شاعرٌ إلّا ٱسْتَتَرْ فِعْلَ نجومِ الليل عايَنَّ القَمَرْ

وعاش فى أيّام عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ – ٨٦/٧٠٥) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ – ١٢٥/٧٤٣) واستعمل الرجز فى المديح والهجاء ووصف الصيد والفُهود وغير ذلك فيعَدُّ من الشعراء النوابغ .

أما بعض الشعراء فتركوا سائر الأعاريض كلِّيًّا ولم يصوغوا القصيدة إلاّ بقالب الرجز . ولعلّ أول من فعل ذلك أبو الشَّعْثاء عبد الله بن رؤبة بن لبيد من بنى سعد تميم الشهير بالعَجَّاج الذى وُلد على المحتمل فى أوائل خلافة عثمان بن عفّان (٢٣/٦٤٤ – ٣٥/٦٥٦) (٣) وأدرك خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ – ٩٩/٧١٧) (٤) . ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه

---

(١) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ – ٣٨٦ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ وج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغانى ج ٩ ص ٧٧ – ٨٣ وج ١٨ ص ١٤١ وفحولة الشعراء للأصمعى ص ٤٩٩ و ٥٠٣ . (وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ١٤٨ و ١٤٩ – ١٥٠ من طبعة ليدن) . تروى بعض أراجيزه فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام وفى كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ و ج ٣ ص ١٤٩ و ج ٤ ص ٤ و ٩٠ و ١٠٢ إلخ و ج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفى شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٨٥ – ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ – ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروى أيضاً فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .

(٣) قال الأصمعى (فحولة الشعراء فى المجلة المذكورة ج ٦٥ ص ٤٩٩) إنه مولود قبل الإسلام .

(٤) لا نكاد نجد فى تصانيف العرب أخبار حياة العجاج وكل ما آتى به عنه Ahlwardt فى ص ١٣ – ١٧ من مقدمة كتابه الذى سيأتى ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجاج فى الجزء الثانى من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان (*Sammlungen altarabischer Dichter*. II) =

مع ما يتعلّق بذلك على عادة القدماء من النسيب وذكر مخاوف الفيافى ومشاق قطع المهامه ووصف المعشوقة الجميلة والناقة والحمار الوحشىّ والليل العمّ الهائل ولذّة الشباب وما أشبه ذلك . ورُبَّ نسيب له فى شكاية الغوانى ذوات الدلال قليلات الوفاء مائلاتٍ عمّن شاب رأسهُ مثل بعض النسيب الوارد فى قصائد الأخطل وغيره من معاصريه فمن هذا القبيل أكثر أرجوزته التى مطلعها[1] :

إنَّ الغوانى قد غَنِين عَنِّى وقُلْنَ لى عَلَيْكَ بالتَّغنِّى
عنَّا فقُلْتُ للغَوانى إنِّى عَلى الغِنى وَأنا كالمُظَنّ
لمَّا لَبَسْنَ الحَقَّ بالتَّجَنِّى غَنِينَ وَٱسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا مِنِّى
غُرانِقاً ذا بَشَرٍ مُكْتَنٍّ يرضَى وَيُرْضِيهِنَّ بالتَّمَنِّى
إذْ شابَ رَأسى ورَأَيْنَ أنِّى حَنَّى قَنَاتِى الكِبَرُ المُحنِّى
والدهْرُ حَتى صِرْتُ مثْلَ الشَّنِّ أطْرَ الثقافِ خُرُصَ المُقَنِّى
وصِرْتُ مِثْلَ البازِلِ القِسْوَنِّ وَقُلْنَ لِى أفنَاكَ طُولُ السِّنِّ
وبُرْهَةٌ من دَهْرِكَ المُفَنِّى مَعَ الهَوَى وَقلَّةِ التَّوَنِّى

ذكر أيضاً فى أرجوزة الزمان الذى كان فيه مُتْرَفاً بالديار ويشرَب الخمر طول الليلِ بعد غروب الشمس فقال[2] :

كأنَّ ذا فَدَّامةٍ مُنَطَّفَا قَطَّفَ من أعنابِهِ ما قَطَّفَا

طبع ببرلين سنة ١٩٠٢ (وأشير إليه بديوان العجاج) وانظر أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ١٠–٢١ و ٤٨ — ٥٤ و ٧١ — ٧٩ و ٨٥ – ٩٦ و ١٠٩ — ١١٣ و ١١٤ — ١٢١ و ١٥٧ — ١٥٨ و ١٧٤—١٨٤ و M. BITTNER, *Das erste Gedicht aus Dīwān des arabischen Dichters al-ʿAggāg*, Wien 1896 (cf. NOELDEKE, ZDMG, 50, 1896, P. 529-528); R. GEYER, *Beiträger zur Kenntnis altarabischer Dichter*. 3. al- *ʿAjjāj und al-Zafayān* (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 23, 1909, 74-101).

ومقطعات له مروية فى مشارف الأقاويز (GEYER, *Altarabische Diiamben*) عدد ٢ — ١ .

(١) ديوان العجاج عدد ٣٩ بيت ١ — ١٥ وانظر أيضاً عدد ١٠ .

(٢) ديوان العجاج عدد ٣٥ من الأبيات المفردات بيت ١٥ — ٢٢ وأراجيز العرب ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة مصر ١٣١٣ وبعض هذه الأبيات مروية فى كتاب الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١١ من طبعة مصر ١٣٢١ — ١٣٢٥ .

فشَنَّ فى الإبريق منها نُزَقَا ... مِنْ رَصَفٍ نَازَعَ سَيْلًا رَصَفَا

حتى تَنَاهَى فى صهاريج الصَّفَا ... فَعَمَّها حَوْلَيْن ثمَّ ٱسْتَوْدَفَا

صهباء خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفَا ... خالَطَ مِنْ سَلْمَى خَيَاشِيمَ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتدى بعبارات دينيّة ثمّ تخرج إلى ذكر متاعب الشاعر ويأسه من العمر الطويل و منها [١] :

الحَمْدُ لله الّذِى ٱسْتَقَلَّتِ ... بِإِذْنِهِ السَّماءُ وَٱطْمَأَنَّتِ

بإِذْنِهِ الأَرْضُ وَما تَعَتَّتِ ... وَحَى لَها القَرارَ فَٱسْتَقَرَّتِ

وَشَدَّهَا بالرَّاسِياتِ الثُّبَّتِ ... رَبُّ البِلادِ والعِبادِ القُنَّتِ

والجاعِلُ الغَيْثَ غِياثَ المُسْنِتِ ... والجامِعُ النَّاس لِيَوْم المَوْقِتِ

بَعْدَ المَماتِ وَهُوَ مُحْيِي المَوْتِ ... يَوْمَ تَرَى النُّفُوسُ مَا أَعَدَّتِ

من نُزُلٍ إذا الأُمُورُ غَبَّتِ ... مِنْ سَعْيِ دُنْيا طالَ ما قَدْ مُدَّتِ

حتّى ٱنقَضَى قَضَاؤها فَأَدَّتِ ... إلى الإِلهِ خَلْقَهُ إذْ طَمَّتِ

وفى أرجوزة ثانية [٢] أيضاً مطلع دينىّ صاغه العجّاج ليخرج بعده إلى مدح عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر الذى قاتل الحَرُوريّين وانتصر عليهم وقتل رئيسهم أبا فُدَيْك سنة $\frac{٧٣}{٦٩٣}$. ولكن فى سائر أراجيزه إنّما اقتدى بالأفكار والمعانى المتعارفة عند شعراء الجاهليّة من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء فيما وصل إلينا من شعره مع أنّه يفتخر بحدّ لسانه الذى أسكت به أخصامه وأفحمهم [٣] :

إنّى إذا ما عُصْبَةٌ أَنْتَابُها ... ظالمةٌ قد سَرَّنى سِبابُها

(١) ديوان العجاج عدد ٣ بيت ١ — ١٣ وكتاب خزانة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) ديوان العجاج عدد ١١ بيت ١ — ١٦ .

(٣) ديوان العجاج عدد ٢ بيت ١٥ — ٢١ .

أَصْدُقُها الشَّتْم ولا أهابُها   حتى تُرى جَاحِرةً كِلابُها
إذا القوافى حُسِرَتْ أثوابُها   وَجَدْتَها مفتَّحاً أبوابُها
مُقْبِلةً بِسَيْلِها شِعابُها

فقال ابن قتيبة [١] : «قيل للعجّاج إنّك لا تُحْسِن الهجاء فقال إنّ لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظْلِم وأحساباً تمنعنا من أن نُظْلَم وهل رأيتَ بانياً لا يُحسِن أن يهدم» . — والرِّثاء أيضاً لا أثر له فى ديوانه كأنّه عسَر عليه فاستنكف منه . — وبعض أراجيز العجّاج طويلة جدًّا تُدْرِك إحداها [٢] عدد مائتى بيت وتشتمل أخرى [٣] على ٢٢٩ بيتاً ، والعجّاج متين العبارة جيّد الألفاظ كثير التصرُّف فى الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدّمين . أمّا عيوب شعره فنلمّح إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه رؤبة .

تقدّم أنّ الكتب العربيّة المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجّاج سوى النوادر التى لا طائلَ فيها فهذه أيضاً حالة رؤبة بن العجّاج الذى وُصفت حياتُهُ فى كتاب الأغانى بهذه الألفاظ القليلة [٤] : «نزل البصرة وهو من مخضرمى الدولتَيْن مدح بنى أميّة وبنى العبّاس ومات فى أيّام المنصور» . ويُخْبِرنا صاحب الأغانى فى موضع آخر [٥] عَرَضيًّا بأنّ رؤبة حجّ مع سليمان ابن عبد الملك وشعرائه منهم الفرزدق (وذلك سنة $\frac{٩٧}{٧١٦}$) . وقال ابن خلّكان [٦]

---

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة ليدن وكتاب الأمالى القالى ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٢) عدد ٤٠ من ديوان العجاج .   (٣) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٤) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٤ .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً نقائض جرير والفرزدق ص٣٨٣ — ٣٨٤ من طبعة ليدن .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبعات المصرية وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ — ٣٨٠ من طبعة ليدن .

إنّ رؤبة توفى سنة ١٤٥/٧٦٢ وهو مُسِنّ . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أنّ كتاب الفهرست [1] يفيدنا أنّ حمّاد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألّف كتاب أخبار رؤبة . ولكن من اطّلع على ديوان أراجيزه [2] التقط منه فوائد شتّى يتوصّل بها إلى معرفة حقيقة حال الشاعر [3]. فيتّضح من نظمه أنّه كان مدّة من أهل الوبر مثل أبيه العجّاج وأخذ يجول فى البلاد ويسافر إلى النواحى القاصية حتّى قصد أكابر الناس والأُمراء فى خراسان وكرمان ليمدحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأنّ الشعر كان له ولعياله الكثير مَكْسَبًا . فلمّا انكدرت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية لانتهاء دولة بنى أميّة ١٣٢/٧٥٠ فكَسَدَتْ أسواق الشعر فى جملة من الأنحاء اختار الإقامة بالبصرة ليسْهُل عليه (وهو كبير السنّ) الوفد على أهل العقد والحلّ ونيْلُ ما كان يرجو منهم من المال .

ويذكُر أحياناً ما قد مرّ عليه من الزمان السعيد والترف [4] :

فقدْ أَرَانى أَرْحَلُ المراحِلاَ ... فى الوفْد أو ذا حاجةٍ مُناضِلاَ

أو زِيرَ بِيضٍ تَرْفُلُ المَرَافِلاَ ... أَنْضَغُ مِسْواكى وأَغْدُو هازِلا

مختبِطاً ولاعِبًا مُهازِلا ... وَأَتَّقِى الفَحْشاء والتَّآطِلا

---

(١) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليبسك ١٨٧١ — ١٨٧٢ .

(٢) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ بعناية Ahlwardt (*sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرمز إليه بديوان رؤبة) وأراجيز العرب ص ٢٢ — ٣٨ و ٥٦ — ٦٢ و ٧٩ — ٨٥ و ٩٨ — ١٠٩ و ١٢٢ — ١٣٤ و ١٣٤ — ١٣٨ و ١٣٩ — ١٥٥ و ١٥٩ — ١٧٢ و ١٨٥ — ١٨٨ ومقطعات له مروية فى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٣ — ١٤ (٩٦٩ بيتا) وراجع أيضاً R.GEYER, *Beiträge zum Diwân des Ru'bah.* (*Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften*, philos. hist. Klasse, 163 Band, 3. Abh. 1910) وفيه ٥٨ أرجوزة .

(٣) راجع مقدمة ديوان رؤبة ص ٢٣ — ٣٣ .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ٩٧ — ١٠٢ .

ويشكو ثِقَلَ قتَبِ الدَّيْن ولوْمَ زوجاتهِ لذلك [1] :

وحَمَلَ الدَّيْنُ عَلَيَّ البَرْكا   وجرَّ أرْحاءِ دَهَكْنَ دهْكَا
أهْلَكَنى ألاَّ يزالَ يَلْكَا   صاحبُ دَيْنٍ لا يَنِى مِحَكَّا
أعْرُكُهُ عنى فيأْبَى العَرْكا   سَوْقَ الأجيرِ المُتْعِبِ الأَفَكَّا

وإنَّما يعلِّق الرجاءَ بمن اشتهر نَدَى يديه فإليه يلتجئُ الشاعر [2] :

ويعترى مَنْ يطْلبُ الوسائلا   وجْهَ الكريمِ والجَوادَ الباذِلا
ويُبْغِضُون الصَّمْعَرِىَّ الباخِلا   فقُلْتُ إذْ عالَجْتُ دَيناً شاغِلا
لا بُدَّ من قَوْلى وكنتُ قائلا   يَمُّمْ سُلَيْمَانَ تَجدْهُ واصِلا
أعـانَ منهُ حَسباً ونائلا   محتسِبَ الأَجْرِ كريماً فاعِلا

فكثيرًا ما يشكو إلى الأكابر مصائبَ الدهر وشدّة الفَقْر [3] :

إليك أشكو عَضَّ دَهْرٍ مِكْسَرِ   أبْقَى خُدودًا كالحَرِيق المِشْرَرِ
أرْسِلَ فاستَمْلَى بأمرٍ مُنْكَرِ   يَلْوى وحَشْرًا قبل يوم المَحْشرِ
طرَّح من تفريقهِ المبذِّرِ   مَوْتَى وأحْياءً بشَرٍّ مُوقَرِ
يشكون فَقْرًا ليس بالتفقُّرِ

فيطلب من الكرماء الهدايا الجزيلة فقال مثلاً فى أرجوزة مدح بها نصر ابن سيَّار والى خراسان والسُّغْد [4] :

يا نصرُ أدْرِكْنِى بغيْثٍ يُجْدِى   يرحَضُ آثارَ السنين الجُرْدِ

---

(١) ديوان رؤبة عدد ٤٤ بيت ٢٣ – ٢٨ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ١٠٥ – ١١٢ . وسليمان بن على هو عم الخليفة السفاح .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ – ٢٣٠ – خدود جمع خد وهو الحفرة المستطيلة فى الأرض فيراجع بيتا رؤبة فى ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ – ٨٨ أو أراجيز العرب ص ١٠٤ يقول الشاعر فيهما إن الناقة :

أبْقَت أخاديدَ وأبْقَتْ حلَقا   بصحْصحانٍ مُطْرِقٍ وفلَقا

(٤) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٦ – ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

إنْ بَلَّ أرضى لم يُصِبْنى وَحْدى قد كنتُ فى الوَعْدِ وعند العَهْدِ

والخير يأتى منك قبْل الكدِّ

ثم قال[1] :

وما تَزالُ مِدَحى من نَجْدِ تأتيك فاذكرْ صِلَتى ورِفْدِى

عندك خَيْرٌ يُبْتَغى وعِنْدى أبْقَى وأمْضَى من سيوف الهندِ

أدركتُ مَنْ قَبْلى فمَنْ ذا بَعْدِى ينسُج نَسْجى أو يقُدُّ قَدِّى

فلا عجب أن يكون معظمُ ديوانه فى مديح الخلفاء والأُمراء والأكابر الموصوفين بالجود إلاّ أنَّ المدح الحقيقىَّ فى أراجيزه قصير جدًّا مشتمل على أبيات قليلة لأنَّ باقى الأرجوزة جارٍ مجرى كلِّ القصائد القديمة دائرٌ على ذكر الدِّمَن ومخاوف السفر والشيب ووصف البرارى والسراب والمناهل والقوس والسهام والصيد والناقة وهلمَّ جرًّا فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه. ومن مدائحه أرجوزة محتوية على ٢٧٢ بيتاً أنشدها بحضرة مروان بن محمّد آخر خلفاء بنى أمية ($\frac{١٣٧}{٧٤٤}$ – $\frac{١٣٣}{٧٥٠}$) ومبدؤها[2] :

أرَّقَنى طارقُ هَمٍّ أرَقَا ورَكْضُ غِرْبانٍ غَدَوْنَ نُغَّقَا

ومدارها هذا : يبتدئ روْبة بذكر رسوم الأطلال فى موضع سكنتْهُ زوجتهُ أرْوَى فى الزمان الماضى وهو فى رَيْعان الشَّباب ثمّ يشكو إلمامَ الشيب برأسه وينصرّف فى وصف فيافٍ متّسعةٍ طامسةِ الأعلام هائلة قطعتْها العَيْساءُ فى لُجّ الليل وهو راكبها كأنّه راكبٌ زَوْرَقاً أو نَعامةٌ أو حمارًا وحشيًّا . وبعد ذلك يذكر تشبّبه بنساء قومه غايةِ الجَمال ويفخَر بحماسة قبيلتهِ وعلى

(١) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٣٧ – ٤٢ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ – ١٠٩ وفى هذا الكتاب ١٨٣ بيتاً فقط .

وجه الاستطراد ينظِم ٤٠ بيتاً فى تفضيل شعره على أقوال خصومه من الشعراء فينتهى إلى نحو ثلاثة أرباع من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة وظَفَرِهِ على أصحاب الفِتَن فى الشام والعراق بعون الله فيلعَن الثائرين ويُثْنى على جُود مروان . ثمّ يرجع إلى الافتخار بقبيلته تميم ويهدّد ربيعة لميلها إلى الدعوة العبّاسيّة التى عنده كُفْرٌ فيختم الشعر بتصريح صدق وفائه وإخلاصه لمروان .

ولكن لم يمنعْهُ هذه الأرجوزة عن إطراء بنى العبّاس لمّا تولّوا الخلافة وتأليف أرجوزةٍ تحتوى على ٤٠٠ بيت[1] فى مدح السفّاح ختمها بطلب الهدايا بل فى أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور (١٣٦/٧٥٤ – ١٥٨/٧٧٥) لم يستحِ من أن يسُبّ الدولة الأمويّة[2] التى قد أثنى عليها فى أيّامها السعيدة[3] :

فترِكُوا مستسْلِمين جُنَّحَا وحَوْتَكاتٍ ونساءٌ نُوَّحَا
ومُهْلَكينَ فى الجحيمِ كُلَّحَا وعادَ مُلْكُ اللهِ مُلْكاً مُرْدَحَا

واحتذى رؤبة مِثال أبيه العجّاج فى إغفال تعاطى الرثاء والهجاء فقال[4] :

إنّى امرؤٌ للناس غيرُ سَبَّابْ للقُرْبِ الأدْنى ولا للأجْنَابْ
أجتنبُ العيْبَ اتّقاء الأعْيابْ والقوْلُ يُلْقَى بعضُهُ فى الأتْبابْ
ماضيهِ أمْضَى من حِدادِ النُّشَّابْ والقولُ يَنْمِى بَعْدَ غِبِّ الإغْبابْ

وممّا يستحقّ الذكر قوله فى القَدَر بَيّن فى أرجوزة مدح بها مسلمة بن عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ١٢٠/٧٣٧ أو ١٢١/٧٣٩) بعد أن أخمد نيران الفتنة

---

(١) ديوان رؤبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ — ١٥٥ .
(٢) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٣٧ — ٤٩ .
(٣) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٤٧ — ٥٠ .
(٤) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٢٩ — ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠ — ١٦١ .

نحو سنة ١٠٢ وقتل يزيد بن المهلّب من رؤساء الثائرين . فقال[١] :

فلقتُ والمُمْلِي حفيظُ الكُتّابْ والقَدَرِيُّون بقولٍ مُرْتابْ

والقَدَرِيُّون بحَبْلٍ جَذّابْ بقَدَرٍ فى حَلَقاتِ الأسْبابْ

يَنْزِعْنَهُمْ مِنْ شاهدٍ وغُيّابْ جَذْبَ المُعَلِّينَ دِلاءَ الأكْرابْ

سيَعْرِفونَ الحقَّ عند المِيجابْ دَعْهُمْ سَيَلْقَوْنَ أعَدَّ الحُسّابْ

والأَمْرُ يُقْضَى فى الشَّقا للخُيّابْ

ولرؤبة حِكَم جسيلة نسجها فى أرجوزة لها ٣٧ بيتاً فى معاتبة ابنهِ عبد الله[٢] منها :

وَاصْدُقْ إذا قلتَ قولًا وَاقْصِدِ فليس مَنْ جارَ كَهادٍ يَهْتَدِى

إنَّ السعيدَ عامِلٌ لِلأسْعَدِ والرُّشْدُ فاعْلَمْهُ طريقُ الأرْشَدِ

وزادُ تَقْوَى أفْضَلُ التَّزَوُّدِ

وحِكَم أخرى كثيرة وردت متفرّقة فى أراجيزه . ثم من الجدير بالذكر ورودُ عبارات فى شعره تدلُّ على ابتداء رَواج الأقوال بعلم أحكام النجوم عند العرب فى أوائل عهد الدولة العبّاسيّة[٣] فقال ملمِّحًا إلى انقراض الأمويّين[٤] :

مروانُ لمَّا أن تَهاوَتْ أنْجُمُهْ وخانَهُ فى حُكْمِهِ مُنَجِّمُهْ

كان رؤبة يقدِّر شعره قدرًا عظيماً فلو أردنا جمْعَ كلّ ما قاله مدحاً

---

(١) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٤٣ — ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة فى كتاب أراجيز العرب .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٢٠ بيت ٣٠ — ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة الألمانية فى ص ٣١ — ٣٢ من مقدمته .

(٣) قال رؤبة (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح ١٣٢/٧٥٠ — ١٣٦/٧٥٤ «فاز بنجم سَعْدِه مُنَجِّمُهْ» (وفى الديوان «بنجمىّ») .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٩٢ من الأبيات المفردات بيت ١٧ — ١٨ وكتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٦ .

لصنعته فى أراجيزه لا ضطُرِرنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فهاكم بعض الأمثلة من ذلك[1] :

قلتُ والأقوالُ ممّا يَنْبَرِى ما أنا بالفانى ولا المُغَمَّرِ
أنسِج نَسْجَ الصَّنَعِ المُحَبَّرِ كَيْفَ ترانى أَنْتَحى فى الدَّفتَرِ
على قضيبِ الذاهباتِ الشُّبَّرِ لا ينظُرُ النحوىُّ فيها نَظَرِى
وإن لوى لَحْيَيْه بالتحَكُّرِ وهو ذَهِىُّ العِـلْمِ والتَّعَبُّرِ
حتى استقامَتْ بى على التيسُّرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمّد الثَّقَفِىّ الذى توفّى سنة ٩٥ وهى مهمّة لما فيها من أقدم التعريض فى الشعر بعلم النحو . — وممّا قال فى مدح أبياته[2] :

قلتُ ولا يبلُغُ وَصفى واصفُ لأَمْدَحَنّ والعَروفُ عارفُ
بمستجِدّاتٍ لها طرائفُ لها سيرٌ ولها مَواقِفُ
أَسَّسَها صَنَعٌ بهنّ قائف

وقال أيضاً[3] :

ما كان تَحْبِيرُ البانى البرّادْ يرجو وإن داخَلَ كلَّ وصّادْ
نَسْجى ونَسْجى مُجْرَهِدُّ الجُدّادْ

إنّ من تأمّل أشعار العجّاج ورؤبة تعجّب من جَودة صناعتهما ومهارتهما فى صَوْغ الأراجيز الطولى على روىٍّ صعب سالمةً من الإقواء والإكفاء والإيطاء . فقد لاحَظ مثلاً يونس بن حبيب[4] أنّ العجّاج قال أرجوزته التى مطلعها

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ — ١٤٢ .
(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ — ٢٠ .
(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ — ٢٨ .
(٤) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٩ .

«قد جَبَرَ الدِّينَ الإلٰهُ فجَبَرْ» وهى ٢٢٩ بيتاً موقوفةَ القوافى ولو أُطلِقَتْ قوافيها كانت كلّها منصوبةً وكذلك عامّة أراجيزهما . ولهما التوسُّع العجيب فى اللغة لا سيّما لرؤبة ، فأصاب من قال فيه إنه كان بصيرًا باللغة قيّماً بحُوشِيّها وغريبها [1]. فلكثرة الألفاظ الغريبة الموجودة فى أبياتهما احتجّت بها أهل اللغة كثيرًا وإن كانوا أحياناً لا يفهَمون معناها بالضبط فغلطوا فى تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من العرب فى أبيات رؤبة [2] :

لمّا ازْدَرَتْ نَقْدِى وقلّتْ إبْلِى ... تَألَّقَتْ واتَّصَلَتْ بعُكْلِ
خِطْبِى وهَزَّتْ رأسَها تَسْتَبْلِى ... تسألُنى من السِّنين كَمْ لى
فقُلْتُ لو عُمِّرْتُ سِنَّ الحِسْلِ ... أو عُمْرَ نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ
والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كطِين الوَحْلِ ... صرتُ رهينَ هَرَمٍ أو قَتْلِ

قال الجاحظ فى كتاب الحَيَوان [3] : «وهذا الشعر يدُلّ على طول عمر الحِسْل لأنّه لم يكن ليقول «أو عُمْرَ نوح زمن الفطحل» والصخر مبتَلّ

---

(١) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبعات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن أحمد العباسى ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٦ بيت ٩ — ١٦ (فراجع ما قاله فيها Ahlwardt فى مقدمته ص ١٣ — ١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ — ١٢٣ والأبيات مروية فى لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢ و ج ١٤ ص ٤٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٦٤ وصحاح الجوهرى ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ (تنسب فيه إلى العجاج) ومجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ (فى المثل : كان ذلك زمن الفطحل) والمزهر للسيوطى (فى النوع الخمسين) ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب فى أحوال العرب للآلوسى ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ وحياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكامل للمبرد ص ٢٤٨ من طبعة ليبسك وثمار القلوب للثعالبى ص ٥١٥ — ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ فى المواضع التى سيأتى ذكرها فى الحواشى التالية .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ — ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولا يذكر اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و ٨) .

كطين الوحل» إلا وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابيّ عن بعض الأعراب أنّ سنّ الضبّ واحدة أبدًا وعلى حال واحدة أبدًا فكأنّه قال لا أفعلها ما دام سنها كذلك لا تنقص ولا تزيد . وقال زيد بن كثيرة سنّ الحسل ثلاثة أعوام وزعم أنّ قوله مَثَلاً لا أفعله سنّ الحسل غلط . ولكن الضبّ طويل العمر إذا لم يعرِض له أمرٌ وسنّ الحسل مثل سنّ القَلوص ثلاث سنين حتّى يلقَح . ولو كانت سنّ الحسل على حالة واحدة لعرَف الأعراب الفتيّ من الزكيّ وقد يكون الضبّ أعظم من الضبّ وليس بأكبر منه سنًّا » . وقال الجاحظ في موضع آخر [1] :

«وقد يمكن أنْ يكون الحِسْل لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبدًا على أمر واحد ويكون قول العجّاج [2] في طول عمره حقًّا ويدلّ على أنّ أسنانه على ما ذكروا قولُ الفَزَاريّ :

وجدناكُم رَأباً بنى أمّ فرْقة كأسنانِ حِسلٍ لا وفاءٌ ولا غَدَرْ

يقولون لا زيادة ولا نقصان » . — وقال في موضع ثالث [3] : «ومن أمثالهم لا آتيك سِنّ الحِسْل وقال العجّاج : ثُمّتَ [4] لا آتيه سِنّ الحسل . كأنّه قال حتّى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً». وفي كتاب لسان العرب [5] ما نصّهُ : «وقولهم في المثل لا آتيك سنّ الحِسْل أي أبدًا لأنّ سِنّها لا تسقُط أبدًا حتى تموت [6] وأنشد ابن بَرّيّ ثُمّتَ لا

---

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) في الطبعة العجاج — ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤبة التي ذكرناها آنفاً أو أنه يشير إلى بيت العجاج المروى في ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ . (٤) في الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً في صحاح الجوهري ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

أرْسِلُهَا سِنَّ الحِسْلِ » . — وقال أحد الحديثين وهو السيّد محمّد توفيق البَكريّ الصِّدِّيقيّ شارحاً أبيات رؤبة [1] : « الحسل ولد الضبّ تنفلق عنه البيْضة وقد خرجت سنّة فلو بقى دهرًا لم يتغيّر عمّا هو عليه . يقول فلو عمرت لا أتغيّر كان آخر حالى الموت » .

ولكنَّ هذه التفاسير جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإنَّ من قال بطول عمر الضبّ ومن قال بعدم تغيُّر أسنانه إنّما استخرج قوله على وجه الحَدْس والتخمين من نفس بيت رؤبة والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغَرابة استعمال لفظ الحسل فى مثل هذا التشبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغيُّر إذْ كان الحِسْل اسم الضبّ حين يخرج من بيضته أعنى وقتَ ولادته [2] — فشَرْح الأبيات الحقيقىُّ هذا [3] لا يخرج الحسل من بيضته إلاَّ بعد ما ثقَب قِشْرتَها بسنٍّ بارزة من فمه تسقُط منه بعد المولد . فقال رؤبة لو عُمّرتُ ما خرج الحسل من بيضته بواسطة تلك السنّ الخاصّة يعنى ما كان فى الدنيا ضبّ أى دائماً . فقوله من باب قول الشاعر [4] :

عليك سلامُ اللهِ ما هَبَّتِ الصَّبَا وما قرقر القِمْرىُّ فى وَرَق السِّدْرِ

أو من باب قول العرب : « لا أفْعَلُهُ السَّمَر والقَمَر » [5] أى ما كان سَمَرٌ والقمرُ أى أبدًا .

---

(١) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٢) قال أبو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) فى النوادر فى اللغة ص ٩٢ من طبعة بيروت ١٨٩٤ « يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حسل ثم يكون خِداقاً ثم يكون مطبخاً ثم يكون ضباً مدركاً » كذا أيضاً فى كتاب المخصص لابن سيدة ج ٨ ص ٩٦ من طبعة بولاق ١٣١٣ — ١٣٢١ .

(٣) راجع مقدمة Ahlwardt لديوان رؤبة ص ١٤ — ١٥ .

(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبى الطيب محمد بن إسحاق الوشاء ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٤ .

(٥) كتاب الأمالى للقالى ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ .

أمّا قول روبة : أو عُمْرَ نُوحٍ زمن الفِطَحْلِ * والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ ، فهو أيضاً ممّا لم يتوصّل إلى شرحه علماءُ اللغة . قال أبو نَصْر الجوْهريّ المتوفّى فى أواخر القرن الرابع فى كتاب الصِّحاح [1] : « الفِطَحْلُ على وزن الهِزَبْر زَمَنٌ لم يُخْلَق الناسُ فيه بعْدُ . قال الجَرْمِيّ [2] سألتُ أبا عُبَيْدة [3] عنه فقال الأعراب تقول إنّه زمن كانت الحجارة فيه رَطْبة . وأنشد للعجّاج [كذا] : وقد أتانا زَمَنَ الفِطحْلِ * والصَّخْر مُبْتَلٌّ كَطِين الوَحْلِ » . — وفى لسان العرب [4] ما نصهُ : الفِطَحْلُ على وزن الهِزَبْر دهرٌ لم يُخْلَقِ الناس فيه بَعْدُ وزَمَنُ الفِطَحْل زمن نوح النبيّ على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام . وسئل روْبة عن قوله زمن الفِطَحْل فقال أيّام كانت الحجارة فيه رِطاباً . وروى أنَّ روْبة بن العجّاج نزل ماءً من المياه فأراد أن يتزوّج امرأة فقالت له المرأة ما سِنُّكَ ما مالُكَ ما كذا فأنشأ يقول : [الأبيات] . وقال بعضُهم * زَمَن الفِطَحْل إذ السِّلام [5] رِطَاب * وقال أبو حنيفة [6] يقال أتَيْتُكَ عامَ الفِطَحْل والهِدَمْلَةِ [7] يعنى زمن الخِصْب والريف . . .

---

(١) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

(٢) وهو أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمى المتوفى $\frac{٢٢٥}{٨٤٠}$ فانظر G.FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, Leipzig 1862, p. 81-82.

(٣) يعنى أبا عبيدة معمر بن المثنى من النحويين البصريين واختلف فى تعيين سنة مماته بين ٢٠٨ و ٢١٣ .

(٤) لسان العرب ج ١٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٥) سلام جمع سلمة أى الحجر .

(٦) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة $\frac{٢٨٢}{٨٩٥}$.

(٧) قال الجوهرى فى الصحاح : « الهدملة الرملة الكثيرة الشجر » وقيل فى لسان العرب ج ١٤ ص ٢١٧ : « والهدملة الدهر الذى لا يوقف عليه لطول التقادم ويضرب مثلا للذى فات يقول بعضهم لبعض كان هذا أيام الهدملة قال كثير :

كَأنْ لم يدَمِّنْها أَنِيسٌ ولم يكنْ ... لها بعد أَيَّام الهدمْلةِ عامِرُ

وراجع أيضاً كتاب معجم ما استعجم للبكرى ص ٨٢٨ من طبعة غوتنجن ١٨٧٦ .

والفِطَحْلُ السَّيْل وجَمَلٌ فِطَحْل ضَخْم مثل السَّبَحْل قاله الفَرَّاء »[١] . — وفى كتاب مَجْمَع الأَمثال الميدانىّ[٢] المتوفَّى سنة ٥١٨ : كَانَ ذلك زَمَنَ الفِطَحْل. قالوا هو زمن لم يُخْلَق الناس . قال الجَرْمىّ سأَلتُ أبا عبيدة عنه فقال: الأَعراب تقول ذلك زمنٌ كانت الحجارة فيه رَطْبَة وأَنشد العجّاج [كذا] : وقد أَتانا زمن الفطحل ه والصخر مُبْتَلٌ كطين الوَحْلِ . قلتُ روى غيرهُ لرؤبة : [الأَبيات] »[٣] . — وعلى هذه الصفة أَيضاً شرح البيتَ السيّدُ محمّد توفيق البَكْرى حيث قال[٤] : «والفطحل قال الأَصمعىّ إذا قيل للأَعراب ما أَراد بالفطحل قالوا زمن السلام رطاب يريد زمن الحجارة حين كانت رَطْبة » .

فالواضح أنّ علماء اللغة لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلاّ فى بيت رؤبة والمثلِ المشتقّ منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلّفوا شرحَها من نفس البيت على وجه التخمين . فلا عجب فى عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيدًا جدًّا مأخوذًا من اعتقادات المَنْدائيّة وهم فرقة دينيّة خاصّة قديمة الأَصل سكنت أصحابها بطائح العراق لا سيّما نواحى البصرة فى عهد بنى أُميّة ،يسمَّوْن الآن عند العامّة بالصُّبّة . وهم أخذوا كثيرًا من آرائهم من مذاهب gnostiques[٥] فزعموا أنّ أصل جميع الأَشياء بيرا ربًّا أىَ اللجّة العظيمة الذى شاركه أَيَرْزِيفا رَبًّا أى الأَثير المُضىء العظيم ومَانَا رَبًّا أى

(١) أبو زكرياء يحيى بن زياد المتوفى $\frac{٢٠٧}{٨٢٣-٨٢٢}$ من النحويين الكوفيين فليراجع
FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, s. 129-196.

(٢) كتاب مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ والظاهر أن القطعة الأولى كلها منقولة من صحاح الجوهرى .

(٣) فراجع أيضاً كتاب المزهر للسيوطى فى النوع الخمسين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٤) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٥) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

الروح العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثالوث إلاهيّة . ومانا رَبّا هو المسمّى أيضاً نفس العالَم أو ملِك النور (مَلْكَا دَنْهُورَا) ولُقّب بالحياة الأولى (هَيّى قَدْمَايِ) لأنّ الأشياء أخذت تصدُر عنه وذلك على وجه الفيض وهو يسكن عالَمًا نورانيًّا (آلْمَا دَنْهُورَا) . فأوّل من فاض منه الحياة الثانية (هَيّى تِنْيَانَى) أو يوشامين ثمّ معرفة الحياة (مَنْدَادْهَيّى المنسوب إليه اسم المنداثيّة) الذى يظهر فى العالم المَرْئىّ أى الأسفل بعدّة تجسّدات أقدمها الإخْوَة الثلاثة هِيبِلْ وشِيتِلْ وأَنُوش[1] . أمّا الحياة الثانية أو يوشامين فصدر عنه الحياة الثالثة (هَيّىتْلِيتَايِ) المسمّى أيضاً أباثور فلم يكن تحته أصلاً إلّا فراغ جسيم فى قعره ماءٌ أسود . وأراد أباثور مُشارَفة تلك الأعماق فرأى فى الماء صورته فانقلبت هذه الصورة صورة ابنه غير الموجود إلى ذلك الوقت وكانت صورة خادعة كاذبة أوّلاً ثمّ تصلّبت فأصبحت ابنَهُ بِتَاهِيلْ وهو أوّل من كان له من طبيعة المادّة . ومراعاةً لِطِلْبة أبيه خلق بِتاهيل الأرض ثمّ آدم وحوّاء لكنّه لم يتمكن من إعطاء الجسد المخلوق نفسًا تُحييه فأرسل الحياة الأولى (أى مانا رَبّا) هيبل وشيتل وأنوش لينفُخوا فى الجسدين روحاً منه . أمّا بِتاهيل فحُرِمَ سُلْطَتَهُ على البشر وحُكم عليه بالنفى عن عالم النور والبقاء فى موضع تحته مصفّداً بالسلاسل إلى يوم الدين . — فالواضح أنّ رؤبة عند إقامته الطويلة بالسواد والبصرة سمع شيئاً من هذه الاعتقادات المنداثيّة وعرّب بتاهيل بالفِطَحْل (وهو فى العربيّة الضّخْم من الإبل)[2] حسبما هو

---

(١) والواضح أن هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من هابيل وشيث وأخنوخ .

(٢) ونجد عند المؤلفين المعاصرين لنا الفطاحل بمعنى كبار العلماء وقال إبراهيم اليازجى لسائل (فى مجلة الضياء ج ٣ ص ٢٠٨) : « وأما استعمال الفطاحل » بالمعنى الذى ذكرتموه فهو من مواضعات العامة ولا شىء منه فى كتب اللغة » . واستحسن الشيخ بعيث الخضرى هذا الاستعمال وقال (فى مجلة المشرق ج ٤ — ١٩٠١ — ص ٣٣٣ — ٣٣٤) : « هو من مواضعات الفصحاء والبلغاء قد استعملوه بهذا المعنى من باب —

الغالب فى التعريب من تشبيه الألفاظ الأعجميّة بالألفاظ والأوزان العربية
وزعم رؤبة أنّ بتاهيل أو الفطحل اسم رجل عاش فى الزمان القديم وعاصر نوحاً فذكر فى البيت لرغبته المعروفة فى استعمال الكلمات والأسماء الغريبة . أمّا الشُّرّاح وعلماء اللغة فحاروا فى تفسيره لعدم معرفة لهم بديانة المندائيّة ولم يُدْرِكوا أنّه اسم عَلَمٌ فاستنتجوا من القرائن خطأً أنّ معناه دهرٌ لم يُخْلَق الناس فيه بعدُ وكانت الحجارة فيه رَطْبة فقيّدوا فى القواميس معنًى لا يوجد حقيقة فى اللغة .

وهذا الغلط من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لمّا أرادوا شرح لفظ الأندرين الوارد فى المطلع المعزوّ إلى معلّقة عَمرو بن كلثوم [1] . فإنهم لجهلهم أنّ أَنْدَرين [2] موضع بالشام عن جنوبيّ حلب على طَرَف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ اسم جنس لا اسم عَلَم فقال الخليل فى كتاب العين [3] « الأَنْدَرىّ ويُجْمَع الأندرين يقال هم الفِتْيان يجتمعون من مواضع شتّى » . ثم قال صاحب لسان العرب [4] : «والأَنْدَرُونَ فِتْيان من مواضع شتّى يجتمعون للشُّرْب قال عمرو بن كلثوم : ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرِينَا » . فجاء فى القاموس تعريف اللفظ على هذه الصفة : «والأندرون

= الحجاز لأن من معانى الفطحل الضخم من الإبل فنقلوه إلى معنى العظيم أو الكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك فى كثير من الألفاظ ومن ذلك الكبش . . . والوعل . . . والسنور . . والفحل . . . والقنعاس ؛ فإن معناه فى الأصل معنى الفطحل بتمامه . . . والقرم » .

(١) وهو مطلع منحول لها فراجع ما قاله TH. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaqât*, I, Wien 1899 P. 13-15.

(٢) وأندرين (كذا وبدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron راجع معجم ما استعجم للبكرى ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ – ٣٧٤ من طبعة ليبسك وشرح التبريزى على القصائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلكتة ١٨٩٤ و Noeldeke ص ٣٢ – ٣٣ من الكتاب المذكور فى الحاشية المتقدمة .

(٣) المروى فى كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ من طبعة ليبسك .

(٤) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ – ٥٤ من طبعة بولاق .

فتيان شتّى يجتمعون للشرب » [1]. فأخذه من القاموس بطرس البستانىّ فى محيط المحيط[2] وسعيد الخورى الشرتونىّ فى كتاب أقرب الموارد[3] فهما فرقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا : « "الأندرون" فتيان شتى يجتمعون للشرب و "أندرين" قرية » فتخمين خاطئٌ صار لفظاً مقيداً فى كتب اللغة .

أمّا البيت «والصخرُ مبتَلٌّ كطين الوَحْلِ » فإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدّة وعليه تدلّ الأبيات المنسوبة إلى أميّة بن أبى الصّلْت [4] :

وإذْ هم لا لَبوسَ لهمْ تقيهمْ   وإذ صُمُّ السّلامِ لهمْ رِطابُ
عشيَّةَ أُرْسِلَ الطوفانُ يجرى   وفاض الماءُ ليس له جِرابُ

وقال الجاحظ فى كتاب الحيوان [5] : «وأنشدنى عبد الرحمن بن كَيْسان :

فكان رطيباً يومَ ذلك صخْرُها   وكان خضيداً طَلْحُها وسيالُها

«فزعم كما ترى أنّ الصخور كانت ليّنة وأنّ الأشجار الطلح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها. وزعم بعض المفسّرين وأصحاب الأخبار أن

---

(١) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢ .

(٢) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ — ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ — ١٨٧٠ .

(٣) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٤) يروى البيتان وغيرهما فى كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى ج ٣ ص ٢٥ من طبعة باريس ١٨٩٩ — (١٩١٩) وفيها : « وإذ صخر السلام » وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وفى بلوغ الأرب للألوسى ج ٣ ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ (وكل الأبيات مروية فى ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة ليبسك ١٩١١ أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢) فراجع أيضاً ثمار القلوب للثعالبى ص ٥١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

(٥) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ — ٦٩ .

الشوك إنما اعتراها فى صبيحة اليوم الذى زعمت النصارى فيه أنّ المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدّثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواته والحاملين عنه أنّ الصخور كانت ليّنة وأنّ قدَمَىْ إبراهيم عليه السلام أثّرتا فى تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس فى ذلك الزمان إلّا أنّ الله تعالى توفى تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاها وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم والحجّة إنّما هى فى إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس، ليس أنّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة يابسة فأثّر فيها ».

فبعد هذا الاستطراد الطويل نرجع إلى سياق الكلام على رؤبة .— لا شكّ أنّ فرط قصد الغريب من الألفاظ فى أشعار العجّاج ورؤبة سبّب استعجامها الشديد على القارئ فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويّين القدماء لبقى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها ألغاز لا يمكننا التوصّل إلى حلّ معانيها . — ثمّ من خصائص صناعة العجّاج ورؤبة شدّة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيّما التجنيس المحقّق أو المستوفى الذى اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع[1] والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانَسة محلّ عال فى علم البيان ولكنّ الإفراط فى استعمالها (والأمثلة منها ألوفٌ فى أراجيز ذينك الشاعرين)[2] يُسْتَثْقَل فيضُرّ جُودة الشعر . — ومن خصائصها

(١) إنى أستفيد من الاصطلاحات المستعملة فى كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) انظر الأمثلة المروية فى مقدمتى Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٨ — ٥٠ وديوان رؤبة ص ٩٣ — ٩٧ .

أيضاً وفرة إدارج فِقَر وحِكَم فى سياق الكلام [١] فيضطرب أحياناً المعنى ويستغلِق على القارئْ . وقد سبق مثال ذلك فى الأبيات المرويّة (ص ١٧٨ — ١٧٩) ومن هذا القبيل قول روبة بعد وصف حماسة قومه [٢] :

عَبْلِ المَداويسِ مُنِيفِ الشُّنْخابْ أَحْزَمَ تَخشاهُ قُهوبُ الأَقْهابْ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشْيَتِهِ بالأَذْنابْ وَالْجَزْلُ أَبْغَى مِنْ قُماش الأَحْطابْ
والهمُّ لا يُقْضَى كَسلُ الأَوْصابْ أَرْجو انتِسابى بقُروبِ الأَقْرابْ
ورُوَيْتى قَبْلَ اعْتياقِ الأَعْطاب وَجْهَ أَميرِ المؤمنينَ الأَوّابْ

ومن هذا الباب قول روبة [٣] :

إنَّ لِرَيْعَانِ الشَّبابِ غَيْهَقَا كأَنَّ بِى مِنْ أَلْقِ جِنٌ أَوْلَقَا
ولا أُحِبُّ الخُلقَ المُمَذَّقا وَالغِرُّ مَغْرُورٌ وَإِنْ تَلَهْوَقَا
وَشَرُّ آلافِ الصِّبا مَنْ آنَقا بَلْ أَبْصَرْتَ شَيْخاً وَنَى وَأَشْفَقا
واضْطَرَبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَّقا وَالدَّهْرُ إِنْ لَمْ يُبْلِ طولاً عَوَّقَا

وحبُّ الغريب حمل روبة أحياناً على الإسهاب المَمَلّ فى الوصف والتشبيه مثل قوله فى ذكر الطلال [٤] :

كأَنَّهُ بَعْدَ رِيَاحٍ تَدْهَمُهْ وَمُرْثَعِنّاتِ الدُّجونِ تَثِمُهْ
إِنْجيلُ أَحْبارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهْ ما خَطَّ فيهِ بالمِدادِ قَلَمُهْ
إذا تَهَجَّى قارِئٌ يُهَيْنِمُهْ أَخْرَجَ أَسماءَ البَيانِ مُعْجَمُهْ

---

(١) راجع مقدمتى Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٦ — ٤٧ وديوان روبة ص ٩١ — ٩٢ .
(٢) ديوان روبة عدد ٢ بيت ١٧٧ — ١٨٤ من طبعة برلين وأراجيز العرب ص ١٧٠ .
(٣) ديوان روبة عدد ٤١ بيت ١٧ — ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٤) ديوان روبة عدد ٥٥ بيت ١٣ — ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ —

ارثعنّ المطر كثُر — وحيْتُ الكتاب أى كتبتُه .

وحَلَقُ النَّرْقين أوْ مُوَشَّمُهْ يُبْدِى لِعَيْنَىْ عابرٍ تَفَهُّمُهْ
ما فيه لَوْلا أنّهُ يُتَرْجِمهْ

وربّما غيّر رؤبة وزن الألفاظ لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعىُّ انتقاداً مدقّقاً مرويّاً فى كتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبة[1]. — هذه عيوب شعر روبة وهى على كلّ حال أقلّ من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دُكَيْن الراجز وهو دُكَيْن بن رَجاء من بنى فُقَيْم الذى لم نقف على تعيين عصره إلّا بما رواه ابن قتيبة[2] وصاحب الأغانى[3] من مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت تولّيه المدينة أعنى قبل سنة ٩٩/٧١٧. ولم يصل إلينا من أراجيزه إلّا أبيات قليلة جدًّا[4]. — ومن شعراء الأراجيز أبو نُخَيْلة الحِمّانىّ الراجز[5] الذى تنافر العجّاج فى الشعر وأقام مدّةً بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) بأرجوزة ذُكر بعض

---

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ — ٣٨٠ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٧ — ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ من طبعة ١٣٠٥.

(٤) ويروى بعض أبياته فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١١٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ج ٢ ص ٤٨٨ و ج ٣ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ من طبعة بولاق — (قال ياقوت فى إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ ما نصه : « دكين بن سعيد الدارى التيمى الراجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتبها على ابن قتيبة فى طبقات الشعراء فجعلهما واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذى كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً بالمدينة . . . مات دكين سنة ١٠٩ » . أما دكين بن رجاء الفقيمى فقال ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ — ٢٠٠) إنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ . — وفى كتاب العقد فى الموضع المذكور ينسب مديح عمر بن عبد العزيز إلى دكين بن رجاء الفقيمى كما فى كتاب الشعر لابن قتيبة أما صاحب كتاب الأغانى فقال إن مديح عمر بن عبد العزيز لدكين الراجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبته).

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٣٩ — ١٥٢ من طبعة بولاق وكتاب الإبانة لأبى سعيد محمد بن أحمد العميدى ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ الطبع.

أبياته فى كتاب الأغانى(١) وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادىّ(٢) ، فلمّا انتقلت الخلافة من بنى أميّة إلى بنى العبّاس سنة ١٣٢/٧٥٠ نقلها إلى السفّاح فبقيت فى ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العبّاسىّ . ومات بعد بيعة المنصور أعنى بعد سنة ١٣٦/٧٥٤ . وشعره ليّن الألفاظ. مجرّد عن الغريب مصوغ فى بحر الرجز المشطور إلّا شيء قليل جدًّا ورد على غير قالب الأرجوزة . — ومنهم أبو مِرْقال عَطاء بن أُسَيْد السعدىّ المعروف بالزَّفَيَان الذى لم يرد ذكره فى أكثر كتب الأدب والتراجم مع أنّ مؤلّفى كتب اللغة ربّما احتجّوا بأبياته لا سيّما صاحب تاج العروس الذى روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه . وسنة ١٩٠٣م جمع المستشرق الألمانىّ أهْلوَرْدت(٣) هذه الأبيات المفردة المتفرّقة ونشرها مع عشر مقطّعات من أراجيزه موجودة فى نسخة خطّيّة محفوظة فى المكتبة الخديويّة . ولم نعرف من أخباره إلّا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعنى أنّه كان فى قيْد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبى فُدَيْك بهَجَر من أعمال البحرَيْن . وشعره غير مُفْرِط فى استعمال الغريب مجرّدٌ عمّا ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعنى وصفَ الغرام وتوجّعَ الفراق والنساء والشباب والنوق والحمير الوحشيّة والفيافى والصيد وجميع ذلك تمهيدًا للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرْجَى منه الجوائز . — ومنهم أيضاً عُقْبة بن رؤبة بن العجّاج على ما يُستَنْتَج من حكاية مرويّة فى كتاب الشعراء لابن قتيبة(٤) ومن كتاب الأغانى(٥) .

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٤١ .

(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) الجزء الثانى من مجموع أشعار العرب المذكور وهذا الجزء مشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان فراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter: 3 al-'Ajjāj und al-Zafayān* (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 23. Band, 1909) P. 100-101.

(٤) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

إن رؤبة بن العجّاج آخِر التوابع الذين قالوا الأراجيز الحقيقيّة أعنى القصائد الجارى مضمونها على الأسلوب القديم مع أنّها مصوغة فى بحر الرجز المشطور . وبعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً وخُتم بأبى العباس محمّد بن ذُؤَيْب الفُقَيْمىّ المعروف بالعمانىّ [1] الذى نظم بالرجز أكثر قصائده [2] . وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد ١٢٦/٧٤٤ والخليفتين الأخيرين من الدولة الأمويّة ثمّ السفّاح والمنصور والمهدىّ وهارون الرشيد (١٧٠/٧٨٦ – ١٩٣/٨٠٩) .

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقيّة وجدنا أنّ شعراء القرن الأوّل وأوائل الثانى حصروا استعمال الرجز المشطور فى المقطّعات الدائرة على مواضيع خاصّة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأعاريض . فنراهم يرتجزون فى وصف أحوال شخصيّة ارتجالا [3] أو فى الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفى المُلَح والحكايات لا سيّما المُضْحِكة . ومن هذا الباب

---

(١) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ — ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٧ ص ٧٨ — ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز فى ج ٢ ص ٦١ و ج ٦ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٢ (١ و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) وكتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق .

(٢) إن الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ سطر ٢٣ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ فى خلافة المهدى) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبى النجم وحميد الأرقط والعمانى . — ولكن من جملة أشعاره التى نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها فى مدح عقبة بن سلم (ولا « بن مسلم » كما فى الأغانى ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغانى (وانظر أيضاً البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة ١٣١٢ (أو ج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١)) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤبة قد أنكر فى حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحسان الأراجيز.

(٣) أو بلا ارتجال كالأبيات (٢٠ رجزاً) التى نسجها أبو عمارة عمر بن مسلم بن أبى طرالة الهذلى داعياً الله أن يأذن له فى الاشتراك فى غزو أبى لطيف . راجع : J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten*, Berlin 1884, No. 237.

الأخير رجز رُدَيْنىّ بن عَبْس القَفْعَسِىّ[١] فى ذكر طريقة تخلّصه من دفع ما كان عليه من الدَّيْن لتاجر فارسىّ بالكوفة ومنه أيضاً قصّة العُذَافِر بن الرَّبّان الكِنانىّ[٢] فى تنجّحه لخيانة غُرَمائه بيمين «كمثْل سيْلٍ جاء من رأس جَبَلٍ» . ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التى قالها مسعود بن كبير الجَرْمىّ فى حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النَّخّاس[٣] أو مخاطبةُ الأعرابىّ والضَّبُع التى أكلت شاءه[٤] أو قوْلُ الرجل الذى سُرِق له الدّلْو[٥] وهلمَّ جرًّا . وقد سبق (ص ١٩٠) ذِكْر ما قاله الشَّمَرْدَل بن شُرَيْك اليربوعىّ بعد منتصف القرن الأوّل من الأرجاز العديدة اللطيفة فى الصَّقْر والكلب والصيد فتُرْوَى لعَوْف بن ذِرْوَة تسعة أبيات من الرجز فى وصف الجراد[٦] ولعبد الله بن كُراع من شعراء النصف الأوّل من القرن الأوّل أرجاز فى وصف الضَّبُع[٧] ولأُحَيْحة بن الجُلاح الأَوْسىّ أشعارٌ من بحر الرجز فى الكلاب[٨] ولبعض[٩] الأعراب من القرن الأوّل أرجاز فى

---

(١) حماسة البحترى ص٣٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحترى ص ٣٨٤ — ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولم أجد ذكره فى كتاب الأدب ولكنه إسلامى بغير ارتياب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والراوى هو أبو زياد الكلابى من معاصرى إسحاق الموصلى المتوفى سنة ٢٣٥ .

(٥) حماسة أبى تمام ص ٨٠٠ — ٨٠١ من طبعة بن أو ج ٤ ص١٦٥ — ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ والنوادر فى اللغة لأبى زيد الأنصارى ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعى) وكتاب أراجيز العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة — ولا يذكر الشاعر فى كتاب الخزانة ولا فى كتاب الأغانى ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى الأصمعيات ولا فى حماسة أبى تمام ولا فى حماسة البحترى .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥٦ .

صفة الفيل واليربوع [١] وغيرها من الحيوان [٢] . ولا أحتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز فى الرثاء والهجاء .

ومن الحرىّ بالاعتبار أنّ شعراء الدولة العبّاسيّة لا سيّما فى القرن الثانى والثالث والرابع اتّبعوا هذا المنهج فى حصر استعمال الرجز المشطور فى مواضيع خاصة معيّنة فكثُرتْ عندهم الأُرجاز فى الطّرْديّات وهىَ وصف القَنْص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والبيزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريض فى هذا النوع من الشعر الذى تعاطاه كثير من النوابغ مثل الفضل ابن عبد الصّمَد الرّقَاشىّ [٣] من شعراء هرون الرشيد وأبى نُوَاس الحسن بن هانئ [٤] المتوفّىَ فى العشر السنين الأخيرة من القرن الثانى والناشئ الأكبر المتوفّى سنة ٢٩٣ وابن المعتزّ [٥] المتوفى سنة ٢٩٦/٩٠٨ وأبو فِراس الحَمْدانى [٦] المتوفّى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصّمَد بن المعذّل من شعراء القرن الثالث فى وصف العقرب المروىّ فى كتاب الكامل للمبرّد [٧] .

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) روى فى كتاب الحيوان ج ٢ ص ٨٢ رجز فى وصف السمك لابن أبى العنبر بن أبى نخيلة الراجز .

(٣) روى له الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) و ص ١٦١ – ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز فى وصف الفهد .

(٤) روى له فى كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ – ١٥ أراجيز فى الكلاب والطرد فراجع ديوانه فى باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (فى باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة فى W. AHLWARDT, *Ueber Poesie und Poetik der Araber*, Gotha 1856, P. 2-4.

(٧) الكامل فى اللغة للمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٤ – ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المعذل فى العصر العباسى فتوجد ترجمته فى الأغانى ج ١٢ ص ٥٧ – ٧٢ ويروى له فيه قصيد لا رجز – نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعى (المولود سنة ١٢٢/٧٣٩–٧٤٠ المتوفى ٢١٦/٨٣١–٨٣٢) وإسحاق بن إبراهيم الموصلى (المولود سنة ١٥٠/٧٦٧ والمتوفى ٢٣٥/٩٤٨) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٢٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبسك .

وسببُ حفظهم هذا العروض فى الطرديّات وصفات الحيوان ظاهر وهو أنّ هذا النوعَ من الشعر كان أصلهُ بدويًّا ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى عيشة سكّان المدن وأهل الحضر .

وربّما اتّخذوا بحر الرجز أيضاً فى نسج الرثاء[1] وذكر المُلَح واللطائف والحكايات فضلاً عمّا ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيّما المزدوج لتأليف المنظومات الطولى فى الأخبار التاريخيّة أو شرح الفنون والعلوم ولكنّهم فى الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف فى الارتجاز فى الهجاء ، ولا شكّ أنّ سبب هذا الاستثناء كان ما وقع فى الهيئة الاجتماعية العربيّة من التقلّب العظيم بعد انقراض دولة بنى أميّة حيث زال النظامُ القديم المبنىّ على قسمة الناس فى القبائل فلهذا الزوال وللتغيّر الداخل فى الأخلاق والأميال حُملت الشعراء ضروريًّا على سلوك طريقة جديدة فى الهجاء غيرِ الطريقة المسلوكة فى أيّام الجاهليّة وعند الأعراب لأنّ هجاء قبيلةِ العدوّ وأقارب الخصْم أضحى شيئاً لا أساسَ ولا معنى له .

كان الرجز فى القرن السابق للإسلام وفى القرن التالى لظهوره البحر العادىّ فى أشعار العامة من أهل البادية لسهولته ومناسبته لمقتضى الارتجال . فقدْرُ انتشاره عندهم ظاهر ظُهورَ الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز المنسوبة إلى الأعراب الواردة فى كتب الأدب واللغة جمًّا غفيرًا حتّى إنّ أبا زيد الأنصارىّ المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذى قد سبق (ص ١٨٦) أنّه ميّز فى كتاب النوادر فى اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال فى توطئة كتابه ما نصّه[2] : «ما كان فيه (أى فى "الكتاب" من شعر القصيد فهو

---

(١) ومن هذا الباب مرثية أبى نواس فى خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Chalef elahmar's Qasside*, Greifswald 1859, P. 414

(٢) كتاب النوادر فى اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

سَماعى من المفضَّل بن محمَّد الضَّبّىّ وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سَماعى من العرب » . فالمحتمل على ظنّى أنَّ الذين صاغوا القصائد فى ذلك العروض فقط واخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاصّ (وهم كما تقدّم كلّهم من أهل القبائل) إنما أرادوا الاجتهاد فى رفع شأن الشعر العامّىّ البدوىّ كأنَّ هذا الاجتهاد ردٌّ على أساليب الشعر المدنىّ فأداروا الأراجيز على مجرّد المواضيع المألوفة عند سكّان البرارى وملؤوها ألفاظاً غريبة خاصّةً لأهل البادية بعيدةً عن متعارَف أهل الحضر[1] .

أمّا أسباب فناء نوع الأراجيز الحقيقيّة وزوالِها فى أوائل الدولة العبّاسيّة فأظنّها من ضربين : صناعيّة وطبيعيّة والصناعيّة عُسْر حفظ روىّ واحد فى الأشعار الطولى ذات أبيات قصيرة جدًّا من مشطور الرجز ثمّ الملل الناشئ عن هذا الروىّ الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر ثمّ صعوبة حصر معنًى تامّ فى بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطرار إلى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وذلك يضُرّ وضرح المعنى ويسبب التعقيد . أما السبب الطبيعىّ فهو ما تقدّم أنَّ الأرجوزة الحقيقية إنّما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهبْ إليها أحد من الحضريّين وهى شعر بدوىّ محض لغةً وموضوعاً فاستنكف عنه شعراء الدولة العبّاسيّة لأنّهم بعداء عن عيشة الأعراب فمن المعروف أنَّ الإنسان فى الأغلب لا يتكلّف ما لا يكون معهودًا فى طبعه ولا موجودًا من خُلْقه .

٥ ــ قد قسمنا الشعر العربىّ فى أيّام بنى أُميّة تسعة أقسام أو أصناف وفرغنا من ذكر الأصناف الأربعة الأولى أعنى الغزل فى مدن الحجاز والنسيب والشعرَ الغرامىّ عند الأعراب والشعر على الأسلوب القديم المتداول عند فحول

(١) ولم يكن ذلك رجوعاً إلى الأسلوب القديم كما يخمن N. Rhodokanakis

الجاهليّة والأراجيز . فنبتدئ الآن الكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذى يتعلّق بالاغتراب والفتوح والحروب أى شعر الجنود فى خارج جزيرة العرب .

إنّ الحرب لم تزل تدور رحاها فى عهد الأمويّين سواء فى الثغور لتوسيع حدود المملكة الإسلاميّة غرباً وشرقاً وشمالاً أم فى داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية الأقوام العربيّة أو الفتن السياسيّة والدينيّة . لا أحد يجهل أن عرب البادية لم يألفوا أبدًا نظاماً اجتماعيًّا سياسيًّا غير القبائل المستقلّة فأقصى ما انتهوْا إليه إنّما كان تحالفَ جملة من القبائل مدّةً ما بصفة ألاّ يُفْسَد به استقلالُها فلم يتمكّن الدين الإسلامىُّ على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهدُ الخلفاء لا سيما عمر بن الخطّاب ومعاوية بن أبى سفيان من استئصال عَصَبيّتهم وإزالة ما جُبل لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرَح تغلب فيهم روحُ المنافرة والمشاجرة فنشِبت بين أقوامهم الحروبُ بل زاد استعارُها بعد منتصَف القرن الأوّل حين أخذ ينمو تضادُّ النزاريّين واليمنيّين الذى لا يقدّر تأثيره فى تاريخ الأمم الإسلاميّة وأحوال الخلافة فى المشرق وفى الأندلس . لا يخفى أنّ دوزى الهولانديّ[١] وكُلْدْزِيهر[٢] المَجَرىّ أفرغا كنانة جهدهما فى البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفيّة نموّه وشرّ نتائجه ولكن ليس هذا محلَّ الخوض فى هذا الموضوع الذى يُخَص بيانُهُ بأستاذ التاريخ الإسلامىّ . فيكفينى إيراد ما قاله المسعودىّ فى الباب

---

(١) راجع R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711 - 1110), Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lévi-Provençal. Leyde 1932, 3 vol.]

(٢) راجع I. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, Hall. a. S. 1888-1890, vol. I. P. 78-100 الذى يصحح بعض أقوال دوزى ويكذب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية .

الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب [١] : «افتخرت نِزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كلٌّ فريق بما له من المناقب وتحزّبت الناس وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمرُ مروان بن محمّد الجَعْدى [٢] وتعصّبُهُ لقومه من نزار على اليمن وانحرافُ اليمن عنه إلى الدعوة العبّاسيّة وتغلغلُ الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أميّة إلى بنى هاشم » .

فإن اعتبرتم أنّ مُعْظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل وأنّه منهم أيضاً كان أكثر المقاتلين فى الحروب الداخلية القومية ثمّ إن تذكّرتم ما سبق بيانه غير مرّة من بقاء الأعراب فى القرن الأوّل والثانى على أغلب ما كانوا عليه فى الجاهليّة من الأهواء والأميال والعوائد ما استغربتم وجود نوع من الشعر سمّيْته شعر الجنود لأنّه زها فى العسكر . إنّ مثل هذا الشعر فى أمّة غير العربيّة لم يكن إلّا شيئاً قليلاً جدًّا دنىّ القدر حقيرًا أما عند الأعراب فلم يكن الأمرُ كذلك لولوعهم المشهور بالشعر ومهارتهم به كأنّه من غريزة خاصّهم وعامّهم . فيدلّ بعض الأخبار دلالاً مبينًا على شدّة كَلَف الجنود بالشعر وتعظيمهم إيّاه . منها ما يُروَى فى كتاب الأغانى [٣] نقلاً عن أبى الحسن علىّ بن محمّد المدائنىّ من رواة القرن الثانى قال : «بيْنا المهلّب بن أبى صُفْرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة [٤] إذ سمع المهلّب فى عسكره جَلَبة وصياحاً فقال ما هذا ؟ قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك فى شىء فأذِن لهم فقالوا إنّا اختلفنا فى جرير والفرزدق فكلٌّ فريق منّا يزعم أنّ أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحُكْم الأمير . فقال كأنّكم

---

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٢) يعنى آخر الأمويين اللى تولى الأمر من سنة $\frac{١٢٧}{٧٤٤}$ إلى سنة $\frac{١٣٢}{٧٥٠}$.

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى فى الأغانى ج ٧ ص ٣٩ — ٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) وهم من الخوارج .

أردتم تعرّضونى لهذين الكلبين فيمزّقان جلدتى لا أحكُم بينهما ولكنى أدلّكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصُرون الشعر ويقولون فيه بالحقّ » . ففعلوا كما قال وسألوا فى الغد أزرقيًّا قد خرج دعاهم إلى المبارزة . — وفى تاريخ الطبرىّ [1] عثرتُ على خبرٍ آخرَ مهمٍّ لما نحن فيه وهو أن عَتَّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ قبل الوقعة التى حدثت بينه وبين شَبِيب الخارجىّ سنة ٧٧ سار فى الناس يحرّضهم على القتال . قال الطبرىّ عن أبى مِخْنَف لوط بن يحيى المتوفّى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : «وقف [عتّاب] علينا فقصّ علينا قَصَصاً كثيرًا كان ممّا حفِظتُ منه ثلاثُ كلمات قال : يا أهل الإسلام إنّ أعظم الناس نصيباً فى الجنّة الشهداءُ وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا ترون أنّه يقول : ﴿ٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ [2] فمَنْ حمد الله فِعْلَه فما أعظم درجتَهُ . وليس الله لأحد أمْقَتَ منه لأهل البَغْى ، ألا ترون أنّ عدوّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لا يرون إلاّ أنّ ذلك لهم قُرْبة عند الله فهم شِرار أهل الأرض وكِلاب أهل النار أيْن القُصّاص ؟ قال ذلك فلم يُجِبْهُ والله أحدٌ منّا فلمّا رأى ذلك قال أين من يروى شعر عنترة ؟ قال فلا واللهِ ما ردّ عليه إنسانٌ كلمة . فقال إنّا لله كأنّى بكم قد فررتم عن عتّاب بن ورقاء وتركتموه تسفى فى استه الريح » أراد أنّه يئس من الظَّفَر إذ لم يكن أحد يشجّع قلوب الناس ويحثّهم على القتال بقَصَص الروايات عن أيّام العرب المشهورة وبإنشاد قصائد عنترة فى الحماسة . فقيسوا على ذلك قدر الشعر الجيّد من قُوّاد الأعراب فى الحرب .

---

(١) تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٩٥٠ — ٩٥١ وبالاختصار فى تاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤١ من طبعة ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ (فى سنة ٧٧ هـ) .

(٢) القرآن سورة ٨ (الأنفال) : ٤٧ .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرّقة فى عدّة كتب لا سيّما تاريخ الطبرىّ وكتاب الأغانى وهى تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدوّ ورثاء القتلى وحزن الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد [١]. ومن الحرىّ بالاعتبار أنّ الهجاء قليل لأنّهم لم يتعاطوه فى الغالب إلّا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربيّة كأنّه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأيهم هذا متعلّق بأصل الهجاء ومنصبه عند قدماء العرب حسبما سنبينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العامّ فإنّ الهجاء لم يُعْقَلْ عندهم إلّا إذا رُدَّ عليه جوابٌ فمن الواضح أنّ هذا الردّ مستحيل إذا كان العدوّ من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارُهم شبيهةً بما ورد منها فى الحكايات المطوّلة عن أيّام العرب فى الجاهليّة فترون شعراء فريق يردُّون على شعراء خصمائهم بأبيات أخرى حسبما كان عادة الأعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك ما جرى من الأشعار بين زُفَر بن الحارث العامرىّ من أصحاب مُصْعَب بن الزُّبَيْر وبين جَوَّاس بن قَعْطَل وغيره حين وقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وهى مرويّة فى تاريخ الطبرىّ [٢] وكتاب الأغانى [٣] فلولا الأخبار المتعلّقةُ بها لحِرْنا فى الحكْم أهى من عهد الجاهليّة أم من زمان الإسلام . قال مثلًا زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة [٤] :

---

(١) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عند ما تكلمت عن شعر الأعراب الذين كانوا خارج أنحاء جزيرة العرب (١١٥ — ١١٧) .

(٢) كتاب تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ — ٤٨٦ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ — ١٢٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٠ — ١١٣ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (فى الباب الثالث والتسعين) وراجع أيضاً التنبيه للمسعودى ص ٣٠٩ — ٣١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٤ وتاريخ الطبرى ج٢ ص ٤٨٣ —

لَعَمْرِى لَقَدْ أَبْقَتْ وَقيعَةُ راهِط لِمَرْوَانَ صَدْعًا بَيِّنًا مُتَنائِيَا
فَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلى دِمنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزازاتُ النُّفوسِ كما هِيَا
أَرِينِي سِلاَحِي لاَ أَبا لَكَ إِنَّنِي أَرَى الحَرْبَ لا تَزْدادُ إِلا تَمادِيَا
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لاَ تَنلْها رِماحُنَا وَتَتْرُكُ قَتْلَى راهِط هِيَ مَاهِيَا
فلم تُرَ مِنِّى نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ فِرَارِى وَتَرْكِى صاحِبَىَّ وَرائِيا
عَشِيَّةَ أَعْدُو فِي الفَرِيقَيْنِ لاَ أَرَى مِن القَوْمِ إِلاَّ مَنْ عَلَىَّ وَلا ليا
أَيُذْهِب يَوْمٌ وَاحِدٌ إِن أَسَأْتُهُ بِصالح أيامِي وَحُسْنِ لَيالِيَا
أَبَعْدَ ابْنِ عَمْرٍو وَابنِ مَعْن تَتَابَعَا وَمَقْتَلِ هَمَّامٍ أُمَنِّى الأَمَانِيَا

وكلام الشعر من هذا النوع فى الأغلب بسيط. مثل قول عُوَيْج الطائى يمتدح كلباً وحُمَيْد بن بَحْدَل[1] :

لقد علم الأقوامُ وقْع ابن بَحْدَلٍ وأحرى عليهمْ إن بَقَى سيُعيدُها
يقودون أولاد الوجيه ولاحق من الريف شهرًا ما يَنِى مَنْ يقودُها
فهذا لهذا ثمّ إنّى لنَافِضٌ على الناس أقوالاً كثيرًا حدودُها
فلولا أميرُ المؤمنين لأصبحتْ قضاعة أرباباً وقيْسٌ عبيدُها

أو مثل قول سحبان وائل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قِتال المسلمين بخُجَنْدَة سنة ٩٤ ويمدح رئيسهم قُتَيْبَة بن مُسْلِم[2] :

فسَلِ الفوارسَ فى خُجَنْ دَةَ تحت مُرْهَفَةِ العوالى
هل كُنْتُ أجمعهم إذا هُزِموا وأقْدِم فى قتالى

—٤٨٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ — ١٢٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٢ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤ .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧ (فى سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من طبعة ليدن .

أم كنتُ أضربُ هامةَ الـ ... عاتى وأصبِرُ للعوالى
هذا وأنت قريعُ قيـ ... ـسٍ كلِّها ضَخْمُ النوالِ
وفضَلْتَ قيْسًا فى النَّدَى ... وأبوك فى الحِجَجِ الخَوَالى
ولقد تبيَّنَ عَدْلُ حُكْـ ... ـمِكَ فيهم فى كل مالِ
تَمَّتْ مُرُوءَتُكُم ونَا ... غَى عِزُّكُمْ غُلْبَ الجبالِ

لكنّه شعر صادر من تِلْقاء القلب بدون تكلُّف وتصنّع معبِّرٌ عما فى الصدر حقيقةً فكثيرًا ما يُعْجِبُنا وإن قلّ تنميقُهُ . وممن نسج القريض من هذا الصنف بعضُ الشعراء المُجيدين البارعين أيضاً فى سائر أنواع الشعر منهم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث المعروف بـأعْشَى هَمْدَان[١] وهو شاعر فصيح كوفىّ قيل إنّه « شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم »[٢] . وكان ممّن أغزاه الحجّاج بن يوسف بلاد الدَّيْلَم القريبة من شطّ بحر الخَزَر الجنوبىّ فأُسر وبقى أسيرًا فى أيدى الديلميّين مدّة ثمّ سار فى جيش أهل الكوفة إلى بلاد مُكْران[٣] وطال مقامهُ بها . وذكر فى قصائده ما لحقه من أسر الديلم وما شهد من الواقائع[٤] :

وأُغيرُ غاراتٍ وأشهدُ مشهدًا ... قلبُ الجبانِ به يَطير ويرجُفُ
وأرى مغانمَ لو أشاءُ حوَيْتها ... فيصُدُّنى عنها غِنًى وتعفُّفُ

وله قصيدة رائقة وصلت منها إلينا ٥٧ بيتاً يشكو بها ما قاساه من المشاقّ

---

(١) وهى قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .
(٢) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .
(٣) مكران ولاية فى جنوب بلاد الفرس على شاطئ خليج عمان .
(٤) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان فى ذيل ديوان أعشى ميمون الذى طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٣٢ بيت ٣٤ — ٣٥] .

والمرض فى مكران[1] ومبتدؤها :

طليتَ الصِّبا إذ علا المَكْبِرُ   وشاب القَذالُ وما تَقْصِرُ

وبان الشَّباب ولذَّاتُه   ومثلك فى الجهل لا يُعْذَرُ

ثمّ يذكر فيها العواذل ويشكو لومَهنّ فيقول :

كأنِّيَ لم أرْتَحِلْ جَسْرةً   ولم أجْفُها بعد ما تضمرُ

فأُجْشِمُها كلَّ ديمومة   ويعرفها البلدُ المُقْفِرُ

ولم أشْهَدِ البأسَ يوم الوَغَى   علىَّ المُفاضةُ والمِغْفَرُ

ولم أخْرُق الصفَّ حتّى تميـ   ـل دَرّاعة القوم والحُسَّرُ

وتحتِيَ جَرْداءُ خيْفَـانةٌ   من الخيل أو سابحٌ مُجْفَرُ

أطاعِنُ بالرمح حتّى اللَّبَا   نِ يجرى به العَلَقُ الأحمرُ

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العيش ونعيمه :

وإذْ أنا فى عُنْفوان الشبا   بِ يُعْجِبُنى اللهْوُ والسُّمَّرُ

أصيد الحِسانَ ويصطَدْنَنِى   وتعجبنى الكاعِبُ المُعْصِرُ

وبعد الإطناب فى الكلام عن تغزُّله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنّه كان من سكّان المدن يأخذ يشكو شرّ حاله فى العسكر فى البلاد البعيدة الّتى بُعث إليها كارهاً وذلك فى أبيات كثيرة .

وفى سنة ٨٣ لمّا خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج بن يوسف وحشَد معه أكثر الكوفيين كان أعشى همدان ممّن خرج معه وجعل يقول الشعر فى مدح ابن الأشعث ولا يزال يحُثّ أهل الكوفة بأشعاره على القتال حتّى أسر فقُتل صَبْرًا بأمر الحجّاج[2] . وله أيضاً شىء من الشعر يخرج

(١) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٤٩ — ١٥٠ (والديوان عدد ٢٠) .

(٢) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى فى الباب الخامس والتسعين ج ٥ ص ٣٥٥ — ٣٥٨ من طبعة باريس.

عن هذا الصنف ويدخل فى الصنف السادس لمداره على الاختلافات الدينيّة منه الأبيات المرويّة له فى كتاب الحيوان للجاحظ[1] يثلب فيها أصحاب المختار من أهل الشيعة .

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبيّ المشهور بالقُطاميّ[2] المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كمُعْظَم التغلبيّين ثمّ أسلم وقال أغلب شعره فى ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيما بين تغلب وقيس عيلان إلى أن أُسِر فى واقعة ماكسين فأُخذت إبلُهُ . فنجّاه زُفَر بن الحارث رئيس القَيْسيّين وخلّى سبيله وردّ عليه مائة ناقة فمدحه القطاميّ فى عدّة أشعار . وممّا يستحقّ الذكر فى شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من جزْم عين الفعل الثلاثيّ فى الماضى حتّى قال نشْبَتْ وتُرْكَتْ بَدَلاً من نَشِبَتْ وتُرِكَتْ[3] ولعلّ ذلك لغة تغلب لأنّه غير نادر أيضاً فى ديوان الأخطل .

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُرْوَى لكعب الأشْقَرِيّ[4] فى غزوات قتَيْبة ابن مسلم فى بلاد خوارزم[5] سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التى وصف فيها وقائع الجند مع المهلّب بن أبى صُفْرة فى بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد العجم[6] — فترون أنّ هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتّصل بما سمّيْناه شعر الفتوحات فى أيّام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة فى أيّام العرب فى الجاهليّة .

٦ — أمّا الصنف السادس من شعر الدولة الأمويّة وهو شعر الفتن السياسيّة

---

(١) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩.٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٢) راجع ترجمته فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١١٨ — ١٣١ وديوانه مطبوع بليدن سنة ١٩٠٢ بعناية J. Barth

(٣) انظر كامل المبرد ص ٥٣٧ من طبعة ليبسك .

(٤) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغانى فى ج ١٣ ص ٥٦ — ٦٤ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٦٣ — ٦٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠١٧ .

(٦) كتاب الأغانى ج ٣١ ص ٥٧ .

والدينيّة فهو من وجهٍ ليس ببعيد عن الصنف السابق بيانه لأنّ قسماً غير يسير منه يتعلّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . فحرْتُ مدّة في أىّ شيء أوْفَقُ : أَجَمْعُ الصنفين أم التفريق بينهما ؟ وفضلت التفريق اعتباراً لما آتٍ شرحه . إنّ الاتّصال بالغزوات والحروب ضرورىّ للشعر من النوع المتقدّم وليس ضرورياً للشعر من الصنف السادس . ثمّ الحروب التى يتعلّق بها الصنف السابق ضربان بالأخصّ : أحدهما الجهاد فى حدود المملكة الإسلاميّة أو خارجها والآخر غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض لأسباب خاصّة لها لا يمسّ أغلبها الأحزاب السياسيّة الحقيقيّة ولا المذاهب الدينيّة اللهمّ إلاّ عَرَضاً . أمّا الصنف السادس من الشعر فإذا ارتبط قوله بالحروب كانت هذه الحروب من جنس غيرِ الجنسين السابقين لأنّها إمّا حروبٌ دائرة بين حزبين سياسيّين أو حروب من النوع المسمّى عند الفقهاء بحروب المصالح لا سيّما فى قتال المرتدّين وأهل البَغْى[1] . ثم إنّ الصنف السادس يحتوى أيضاً على أشعار مدارها على مذاهب سياسيّة ودينية من دون تعلّق بأىّ جنس كان من الحروب .

قلت مذاهب سياسية ودينية لتكون العبارة عن فكرى أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكنّ حقيقة الأمر فى القرن الأوّل والثانى بعد خلافة عثمان بن عفّان أنّ كلّ حزب سياسىّ كان عند المسلمين مذهباً دينياً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين فى أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلاميّة؛ وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلاميّة بنظام الأمم الإفرنجيّة سواء فى الزمان القديم أم فى القرون الوسطى أم فى العصر الجديد . عند الأمم

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى فى الباب الخامس ص ٤٤ — ٥٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٨٩ — ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

الإفرنجية لا يتأسّس النظام الاجتماعى السياسىّ على العقائد وإن كانت العقائد تؤثّرّ فيه أحياناً كما تؤثّر فى الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة المُلْك بأمور الدين عندهم كعلاقتهِ بأخلاق الأمّة وتمدّنها أعنى على وجه طبيعىّ محض إذ لا يقوم مُلْكٌ من غير وجود أمّة ولا تُعْقَل أمّةٌ ليست لها آراء وأهواء وأميال وحاجات خاصّة . فإن كانت مثلاً جملة من البابوات فى الزمان السالف شملوا سلطة دينيّة وسلطة دنيويّة فى أيديهم كان هذا الجمع عَرَضيًّا لا جوهريًّا لأنهم كانوا أئمّة جميع النصارى الكاثوليك فى أمور العقائد ولم يكونوا ملوكاً إلّا على سكّان مملكتهم غير الواسعة ثمّ ما كان هذا المُلْك ممّا يستوجبه الدين النصرانىّ . وكذلك كانت القياصرة فى القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين فى العصر الجديد يقولون إنّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنّهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنِّهِ وأنّ سلطانهم حقٌّ لم يتوصّلوا إليه بالاغتصاب والتعدّى فلا تجوز للأمّة المعْصيةُ عليهم . — وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينيّة وبين أصول التشريع إلّا عرَضاً فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإنّما لهم أحكام سلطانيّة وقوانين أُثْبِتَتْ قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزّلة أو سنن أنبياء . فواضح أنّ مسألة اختيار الدولة وهيئةِ الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجرّدة عن العقائد والأحكام الدينية. وكذلك ما اشترق إليه فى القرون الوسطى من جمع كل النصارى فى مملكة واحدة يتولّى أمرَها قيصرٌ لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أمّا الإسلام القديم فلا فرقٌ بائن فيه بين تولّى أمور الدنيا وتولّى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردىّ[1]

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .

إن الإمامة أصل تستقرّ عليه قواعد الملّة وتنتظم به مصالح الأُمّة ثمّ[1] إنّها موضوعة لخلافة النبوّة فى حِراسة الدين وسياسة الدنيا . فمنصِب الخليفة أى الإمام دنيوىّ من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو دينىّ من حيث كونه ولايةَ الله على الأرض لحفظ الإسلام البِدعَ والفساد ولإبْقاء وحدةِ الأُمّة الإسلامية على مقتضى الشريعة . وبما أنّ الأحزاب السياسية فى عهد الأُمويين إنّما تشاجرت فيمن تكون الإمامة من حقِّهِ فكانت هذه المسألة فقط سببَ الحروب سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفِتَن أهل البدع ، ظاهر أننا لا نتمكّن من التفريق فيما بين الأشعار فى حروب الأحزاب السياسية والأشعار فى الاختلافات الدينية .

إنّ الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية أم لما يستفيده منه من أراد البحث العميق الدقيق المُنْصِف عن تاريخ المشرق الإسلامى فى ذلك العصر . لا يخفى عليكم أنّ القدماء الذين صنفوا الكتب فى الأخبار والسيَر قلّما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة فى الحوادث وإنّما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلّبات والوقائع والحروب والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية مثل آراء طبقات الناس وأهوائهم وأميالهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما ألف إلى الآن [يعنى إلى سنة ١٩١١] بالعربية من تواريخ بلاد الإسلام أقربَ إلى الأخبار البرقية المنشورة فى الجرائد منها إلى ما يُعْتَبَر الآن غايةَ التاريخ الحقيقىّ الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثمّ من آفات الكتب العربيّة فى التاريخ أنها

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

فى الغالب لم تستشق إلاَّ من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائق على غيره فبعد الاطّلاع عليها كثيرًا ما نُضحى كحَكَم سمع أحد الخصمَيْن فقط فلا يتمكَّن من الإنصاف فى الحُكْم . وغير مرّة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارك هذا الخلل . فإنها قامت فى عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن فى المجالس العموميّة وهى فى الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط. بل كانت صوتَ جميع الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنَّ العرب فى ذلك العصر الذى لم يُعْرَف فيه فنّ الطباعة بعدُ اتخذوا الشعر وسيلةً لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنَّ الشعر أسْيَر على ألسنة الناس وأوقع فى قلوبهم من الكلام المنثور العادىّ . فالراوى المرتحل من بلد إلى بلد يُنْشِد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المُشيعة آراء حزبها فى الجمهور . فكفى ذلك دلالة على أهمّيّة تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التامّ على حياة العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التى لا غنى عن حقّ معرفتها لمن عزم التنقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشكّ واللبْس فى تقدير عللها .

لمّا قُتِلَ عثمان بن عفّان يوم الأضحية من سنة ٣٥/٦٥٦ اضطربت الناس اضطرابًا شديدًا فذهب قوم غير يسير منهم إلى أنّ علىّ بن أبى طالب قد شارك القاتل فأنكروا بَيْعته ومنهم أعنى من العثمانية حسّان بن ثابت الأنصارى شاعر النبىّ سابقاً الذى رثا عثمان فقال فى مرثيته الأبيات الشهيرة[1]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن — أما البيت الأول فهو ناقص فى طبعات الديوان ولكنه موجود فى كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفى بيان الجاحظ ج ١ ص ٩٠ سطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفى كتاب التنبيه للمسعودى ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفى خزانة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفى تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية فى NŒLDEKE., *Delectus veterum carminum arabicorum* ص ٧٧ . — أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة الفتح) : ٢٩ .

ضَحَّوْا بأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تسبيحاً وقُرْآنَا

بَلْ لَيْتَ شِعْرِى ولَيْتَ الطَّيْرَ يُخْبِرُنى ... ما كانَ شأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَّانَا

لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكاً فى دِيارِكُمُ ... اللهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمانا

وَقد رَضِيتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زافِرَةً ... وَبالأَمِيرِ وَبالإِخْوَانِ إِخْوَانا

إِنِّى لَمِنْهُمْ وَإِنْ غابوا وَإِنْ شَهِدوا ... حَتَّى المَمَاتِ وما سُمِّيتُ حَسَّانا

صَبْرًا فِدًى لَكُمُ أُمِّى وَمَا وَلَدَتْ ... قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فى المَكْرُوهِ أَحْيانا

شُدُّوا السُّيوفَ بِثِنْيٍ فى مَناطِقِكُم ... حَتَّى يَحِينَ بِهَا فى المَوْتِ مَنْ حانا

لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْماً بِمَغْبَطَةٍ ... خَلِيفَةَ اللهِ فِيكُمْ كالَّذِى كانا

فكانت هذه الأبيات كأنّها تقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصواتُ من طلب ثأر عثمان وجاوبتْها الأصداءُ لا سيّما فى الأنحاء الشاميّة فاشتعلت نار الحرب وتصلصلت الدروعُ من وقع البيض ونَمَت العداوة بين أهل العراق وأهل الشام كما قال كعب بن جُعَيْل التَّغْلَبِيُّ شاعر الشاميّين [1] :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ مُلْكَ العِراقِ ... وأَهْلَ العِراقِ لَهُمْ كَارِهينا

وكُلاًّ لِصاحِبِهِ مُبْغِضاً ... يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذاكَ دِينا

وكلٌّ يُسَرُّ بما عِنْدَهُ ... يَرَى غَثَّ ما فى يَدَيْهِ سَمِينا

إِذا مَا رَمَوْنا رَمَيْناهُمُ ... ودِنَّاهُمُ مِثْلَ ما يُقْرِضُونا

فَقالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا ... فَقُلْنا رَضِينا ابنَ هِنْدٍ رَضِينا

وقالوا نَرَى أَنْ تَدِينوا لَنَا ... فَقُلْنا لَهُمْ لا نَرَى أَنْ نَدِينا

---

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ١٧٠ — ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨ و NŒLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P.79-80. وأجابه النجاشى (راجع كتاب الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Nœldeke ص ٨٠ وانظر أيضاً F.SCHULTHESS, *Ueber den Dichter al-Nagâšî und einige Zeitgenossen*, *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft*, 54, 1900, P. 64).

ومن دُونِ ذلِكَ خَرْطُ القَتادِ   وضَرْبٌ وطَعْنٌ يُقِرُّ العُيونا

وما في عَلِيٍّ لِمُسْتَحْدِثٍ   مَقالٌ سِوى عِصْمَةِ المُحْدِثِينا

وإيثــارِهِ لأهالى الذُّنوبِ   ورَفْــعِ القِصاصِ عَنِ القاتِلِينا

إذَا سِيل عَنْهُ زَوَى وجْهَهُ   وعَمَّى الجَوابَ على السّائِلِينا

فَلَيْسَ بِراضٍ ولا ساخِطٍ.   ولا في النُّهاةِ ولا الآمِرِينا

ولا هُوَ سَاءَ ولا سَرَّهُ   ولا بُدَّ مِنْ بَعْدِ ذا أنْ يَكونا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيّام صِفِّين منقسمين إلى فريقَيْن كبيرين متحاربين : العثمانيّة وشيعة علىّ . وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنّبون التحزُّب وهم المسمُّوْن بالمعتزلة [١] منهم أبو موسى الأشعرىّ وسعد بن أبى وقّاص والمُغِيرة بن شُعْبة وغيرهم . ثمّ رِضَى علىّ باقتراح التحكيم فى خلافته فى صفر سنة ٣٧ هـ (أغسطس ٦٥٧م) كان سبب فتنة فى شيعته لأنّ قومًا من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال فى دين الله أى تفويض حلّ مسألة الإمامة إلى رجلَيْن لقولهم إنّه لا حُكْمَ إلاّ لله فخرجوا عن جيشه إلى حَرُوراء [٢] فسُمّوا الحروريّة أو الخوارج [٣]— وفى سنة ٣٨/٦٥٨ التقى الحَكَمانِ وهما أبو موسى الأشعرىّ وعمرو بن العاص بأذْرُح فى أرض

---

(١) (أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين فى تاريخ علم التوحيد الإسلامى وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع C.A.NALLINO, *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, (1940, P. 146-169.

(٢) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة .

(٣) هذا أصل الاسم فا سموا به — كما يقال — لأنهم خرجوا على علىّ . فراجع الذى علقه بسورة النساء : ١٠١ R. BRUNNOW, *Die Charidschiten unter den ersten Omayyaden*, Leiden 1884, P. 28,

J. WELLHAUSEN, *Die religios-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, P.40.2., (F. GABRIELI, *Sulle origini del movimento Khârigita* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3, PP. 110-177); M. GUIDI, *Sui Khârigiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, P. 1-14).

البَلقاء فنتيجة الأَمر المرجوّ منه توافقُ النفوس واطمئنانُ القلوب إنما خلَع عليّ ومعاوية معًا . قد دهِش كثير من أهل العراق والحجاز أىْ دَهَش حين سمعوا خبر ذلك الحُكْم الذى أسرع علىٌّ فى إنكاره فلشدّة استغرابهم وبُغْضهم لمعاوية أُنْشِئَت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التى دبّرها وارتكبها عمرو بن العاص . أمّا الحقيقة التى لم يتوصّل إلى كشفها إلّا من رجع إلى المصادر الأَصليّة القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإنّ عمرو بن العاص ما أثبت معاوية ألبتّة ولكن بما عُهد له من الدّهاء والمهارة فى أمور السياسة قد بلغ مرامَهُ ومرامَ معاوية حين حمل أبا موسى الأَشعرىّ على الرضى بالتفحّص عن حقوق كلٍّ من الخصمَيْن كأنّهما متساويا القدر وكأنَّ خليفةً بايَعَهُ جملة وافرة من المؤمنين لا يُفَضَّل على من كان والياً على الشام فقط . فنتيجة الحكم أى خَلْع كِلا الخصمين إنّما كان أنّ علياً عُزِل عن الخلافة فلم تَبْقَ له إلّا ولاية العراق أمّا معاوية فخُلِعَ ممّا لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلاً بل زاد حظْوةً عند أصحابه إذ ساواه الحُكْم بمن كان مدّة أعلى منه بكثير[1].

فبالجملة كان أمر الحَكَمَيْن سبب أكثرالاختلافات التى حدثت فى الأُمة الإسلاميّة بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثانى . خرجت الخوارج عن شيعة علىّ لمجرّد قبوله لاقتراح التحكيم وبعد خروجهم بأربع وعشرين سنةً اختلفوا فى جواز السكنى فى غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم على الدوام فافترقوا وصاروا على أربعة أضرب : الأَزارقة والصُّفْريّة والبَيْهَسية والإباضيّة[2] . — أمّا ختام أمر الحكمين ففرّق بين المسلمين تفريقاً عظيماً

---

(١) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia* I, P. 125-140.

(٢) هذا تفرقهم القديم فى سنة ٦١ هـ تقريباً . انظر الكامل فى اللغة للمبرد ص ٦٠٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٧ .

لم يزل إلى الآن فإنّ العلويّين قالوا بتوارث الإمامة فى أهل البيت فأنكر الآخرون ذلك وقالوا بانعقاد الإمامة باختيار أهل الحلّ والعقد أو بعهْدٍ مَنْ قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأوّل لزيادة محازبة الموالى من الفرس لشيعة علىّ فهم أدخلوا فى مذهبهم اعتقاداتٍ غريبةً وبِدَعًا من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . — وحدث أيضاً بعد أمر الحكمين حزب المُرْجِئَة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويّين وشيعة بنى أمية كمنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدّم (ص ٢٣١) بين العثمانيين وأصحاب علىّ بن أبى طالب . — ومن عواقب الحكْم أيضاً حزب الزُّبَيْرِيّين لا سيّما فى الحجاز والعراق فإنّه من المشهور أنّ عبد الله بن الزُّبَيْر ادّعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١/٦٨٠ وتولّى الأمر بمكةَ إلى سنة ٧٢/٦٩٢ . — ثمّ فى أوائل القرن الثانى ابتدأت الدعوة العبّاسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدّعون الخلافة لبنى هاشم لقرابتهم من علىّ بن أبى طالب . — فلكلّ هذه الأفرقاء شعراءُ كانوا يدافعون عن أغراضهم وعمّا ادّعى الفريقُ من الحقوق .

كثُر ذكر شعراءِ الخوارج وخطبائهم فى كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان والتبيين للجاحظ.[١] وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه [٢] بل أفرد المبرّد لأخبارالخوارج قسماً غير صغير من كتابه المسمّى بالكامل فى اللغة والأدب[٣]. وشعرهم شعر خِلْناه فى الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغةً

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٣ (أو ج ٣ ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) الكامل ص ٥٢٧ — ٦٠٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٩ — ٢٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (ونقل الأستاذ Rescher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالعنوان : *Die Kharidschitenkapitel aus dem Kâmil*, Stuttgart 1922).

(واعتنى الأستاذ Gabrieli بجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا فى عصر بنى أمية :
F. GABRIELI, *La poesia khârigita nel secolo degli Umayyadi* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1943, P. 331-372).

وهو فصيح العبارة دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحُكْم فيهم بناءً على شعرهم لقلنا إنّهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخيّة القديمة وجدنا جمًّا غفيرًا من الأخبار عن تُقاهم ونُسْكهم وشدّة عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهارًا وغير ذلك ممّا يخالف أميال الأعراب وشعائرَهم . فما الحقيقة فى تناقض هذين الأمرين ؟

لا شكّ أنّ الذين رأسوا خروج الحروريّين عن جيش علىّ بن أبى طالب لم يكونوا أعراباً بل كانوا قُرّاءً من أهل الحضر منهم مِسْعَر بن فَدَكِىّ التميمىّ وزيد بن حُصَيْن الطائىّ وذلك لأنّهم رأوا التحكيم إفسادًا للدين. هذا الثابت فى جميع الأخبار . فترون أنّ أصل الخروج إنما كان مسألة نظريّة لا يمكن أن تهُمّ ناساً مثل الأعراب . ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم فى أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلامى اتّبعوا القرّاء لسببين أحدهما مجاورتهم لهم من حيث السُّكنى والآخر موافقتهم لهم فى مسألة الخلافة . لا يخفى عليكم أنّ القطب الذى يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الإمامة بالاختيار غير المحدود لأنّ كلّ مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلّد الخلافة وحقّ الاشتراك فى الاختيار مُطْلَق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختصّ بأهلَ الحلّ والعقد . فعلى هذا الرأى كان مَنْصِب الخليفة فى الأمّة الإسلاميّة كمنزلة السيّد فى القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حبّ الاستقلال والتمسّك بعاداتهم القديمة والكراهة لكلّ نظام مخالف نظامهم الخاصّ . فعن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهرىّ المومأ إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قَطَرِىّ بن الفُجَاءة رئيس الأزارقة الذى خرج على ولاة العراق فبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلَّم عليه بالخلافة حتى قُتل سنة ٧٧[1] ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المرويّة فى حماسة أبى تمّام [2] :

أقول لها وقد طارت شَعَاعاً	من الأبْطال ويْحَكِ لَنْ تُراعِى
فإنَّكِ لو سألتِ بَقاءَ يومٍ	على الأَجَل الذى لكِ لَمْ تُطاعِى
فصَبْرًا فى مجَال الموْتِ صبْرًا	فما نَيْلُ الخُلُود بمستطاعِ
ولا ثوْبُ البقاء بثوب عِزٍّ	فيُطْوَى عن أخى الخَنَعِ اليَرَاعِ
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حَىٍّ	فداعيهِ لأهل الأرض داعى
ومَنْ لا يُعْتَبَطْ يَسْأَمْ ويَهْرَمْ	وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انْقطاعِ
وما للمرء خيْرٌ فى حياة	إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المَتَاعِ

قال ابن خلكان[3] : «وهى تشجّع أجبن خلق الله وما أعرف فى هذا الباب مثلها وما صدرت إلاّ عن نفسٍ أبيّه وشهامة عربيّة» . — ومن شعرائهم المقدَّمين عِمْران بن حِطَّان السَّدوسىّ[4] كان من علماء الصُّفْرية وخطبائهم فحين أسنّ وضعف عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية) أنه قتل فى سنة ٧٨ هـ .

(٢) حماسة أبى تمام ص ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية وشرح الشواهد الكبرى للعينى ج ٣ ص ٥١ — ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزانة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان فى الموضع المذكور .

(٤) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢١ — ١٢٤ من مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٥٢ — ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ و ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

من الذين مدحوا ابن مُلْجَم قاتل عليّ بن أبي طالب وقوله في ذلك مشهور[١]. وأطرده الحجاج بن يوسف ولجّ في طلبه فنجا منه هاربًا منتقلاً في القبائل حتى مات في قبيلة الأزد ببلاد عمان . وكان ممّن عاصر الفرزدق ولكن شتّان ما بينهما فإنّ الفرزدق لم يزل يمدح الأكابر والرؤساء طَمَعًا في هداياهم وعمران بن حِطان بريء من مثل ذلك وهو القائل[٢] (من بحر الخفيف) :

أيُّها المادحُ العِبادَ ليُعْطَى   إنَّ لله ما بأيدى العِبادِ
فاسألِ اللهَ ما طلبتَ إليهمْ   وارْجُ فضلَ المقسِّم العَوّادِ
لا تقلْ في الجواد ما ليس فيه   وتُسمِّي البخيلَ باسمِ الجَوَادِ

ومن شعرائهم مُعاذ بن جُوَيْن بن حُصَيْن الخارجيّ سجنه المُغِيرة بن شُعْبة والى الكوفة (٤١/٦٦١ – ٥٠/٦٧٠) فقال في الحَبْس يحرّض أصحابه على الخروج[٣] :

ألاَ أيُّها الشارونَ قَدْ حانَ لامْرِئٍ   شَرَى نَفْسَهُ للهِ أنْ يَتَرَحَّلا
أقَمْتُمْ بِدَارِ الخَاطِئِينَ جَهالَةً   وَكُلُّ آمْرِئٍ مِنْكُمْ يُصَادُ لِيُقْتَلا
فشُدُّوا عَلَى القَوْمِ العُداةِ فإنَّهَا   أقامَتُكُمْ لِلذَّبْحِ رَأياً مُضَلَّلا
ألاَ فَاقْصِدُوا يا قَوْمِ لِلغايَةِ التى   إذا ذُكِرَتْ كانَتْ أبَرَّ وَأعْدَلا
فيا لَيْتَنِى فيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سابِحٍ   شَديدِ القُصَيْرَى دارِعاً غَيْرَ أعْزَلاَ
ويا لَيْتَنى فيكُمْ أعادى عَدُوَّكُمْ   فَيَسْقِيَنى كَأْسَ المَنِيَّةِ أوَّلاَ
يَعِزُّ عَلَيَّ أنْ تُخافوا وَتُطْرَدُوا   وَلَمَّا أُجَرِّدْ فى المُحِلِّينَ مُنْصُلا

---

(١) الأبيات مروية في الكامل للمبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٣١٧ – ١٣٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعة لندن ١٨٤٦ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ و ج ٧ ص ٦ وقيل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد الحميري في رواية أخرى .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن .

ولمّا يُفرِّقْ جَمْعَهُمْ كُلُّ مَاجِدٍ — إذا قُلْتَ قَدْ وَلَّى وأَدْبَرَ أَقْبَلا
مُشيحاً بِنَصْلِ السَّيْفِ فِي حَمَسِ الوَغَى — يَرَى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ المَوَاطِنِ أَمْثَلاَ
وعَزَّ عَلَيَّ أَن تُضاموا وَتُنْقَصوا — وَأُصْبِحَ ذا بَثٍّ أسيرًا مُكَبَّلاَ
ولو أنّنى فيكُمْ وَقَدْ قَصَدوا لَكُمْ — أَثَرْتُ إِذًا بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ قَسْطَلاَ
فيا رُبَّ جَمْعٍ قَدْ فَلَلْتُ وَغَارَةٍ — شَهِدتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلا

ومنهم الطِّرِمّاح بن حَكِيم المشهور أيضاً ابراعته فى الخطابة [1] كان على قول صاحب الأغانى [2] « من فحول الشعراء الإسلاميّين وفصحائهم ومنشؤه بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشّراة الأزارقة » . وروى فى الأغانى أيضاً [3] : « كان الكُمَيْت بن زيد صديقاً للطِّرِمّاح لا يكادان يفترقان فى حال من أحوالهما فقيل للكمَيت : لا شىء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرمّاح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامىٌّ قحطانىٌّ وأنت كوفى نزارىٌّ شيعىٌّ فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدّة العصبية ؟ فقال اتّفقنا على بُغْض العامّة » . وقبل انضمامه إلى الخوارج قد مدح أمراء الأمويين وهجا قبيلة تميم هجاء مُفرِطاً فى الشّتْم والاحتقار رواه ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء [4] . ومن شعره بعد تمذهُبه بالخوارج [5] :

---

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أو ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ و ج ١٥ ص ١١٣ وراجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٣ (أو ج ١ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة ١٣٥١) .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٢ و ٣٧٣ من طبعة ليدن . وتروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر فى الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٣٨ من طبعة باريس .

(٥) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٣ — ٣٧٤ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٦٠ (وديوان الطرماح عدد ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧) .

فيا ربِّ لا تجعلْ وَفاتِيَ إنْ دَنَتْ على شَرْجَعٍ يُعْلى بدُكْن المَطارفِ
ولكنْ أحِنْ يَوْمى شهيدًا وعُصْبَةً يُصابون فى فَجٍّ منَ الأرض خائفِ
عصائبُ من شتّى يُؤلّفُ بينهمْ هُدَى اللهِ نزّالون عند المَواقفِ
إذا فارَقوا دنياهُمُ فارَقوا الأذَى وصاروا إلى موعودِ ما فى المَصاحفِ
فأُقْتَلَ قَعْصًا ثمّ يُرْمى بأعْظُمى كضِغْثِ الخَلا بين الرياح العواصفِ
ويُصْبِحَ لَحْمى بَطْنَ طيْرٍ مَقيلُهُ دُوَيْنَ السماء فى نُسورٍ عوائفِ

يذكّرنا البيتان الأخيران توحُّش بعض أشعار الجاهلية لا سيّما أشعار الشَّنْفَرَى وتأبّط شرًّا إلاّ أنّ سبب التوحُّش عند هذين الشاعرين يختلف عن سببه عند الطرمّاح فإنّ همجية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقُطّاع الطريق أمّا ما ورد منها فى شعر الطرمّاح فصادر عن مذهب الأزارقة الذين رأوْا الموت فى الحرب وقتْلَ مَنْ لم يكن من الخوارج أهونَ الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض فرقتهم مُخْطِرين أنفسهم بجراءة عجيبة لا نظير لها كأنّهم مشتاقون إلى الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أى أصحاب الرأى بإباحة قتل جميع الناس من المخالفين فى أىّ وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال والنساء . فلذلك إنّ معانى مثل الواردة فى أبيات الطرمّاح ليست نادرة فى أشعار الخوارج فقال قَطَرِىُّ بن الفُجاءة [1] :

ألا أيّها الباغى البِرازَ تَقَرَّبَنْ أُساقِكَ بالموت الذعافَ المُقَشَّبا
فما فى تَساقِى الموتِ فى الحرب سُبَّةٌ على شاربيهِ فاسْقِنى منه واشْرَبا

وقال عمران بن حِطّان لمّا قُتِل أبو بِلال مِرْداس بن أُدَيّة [2] :

---

(١) حماسة أبى تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣–١٣٢٤

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغضًا ... وحُبًّا للخروج أبو بِلالِ
أُحاذر أنْ أموتَ على فِراشي ... وأرجو الموتَ تحت ذُرَا العَوالى
ولو أنِّى علمت بأنَّ حَتْفى ... كحتفِ أبى بِلالٍ لم أُبالِ
فمن يكُ همُّهُ الدنيا فإنِّى ... لها واللهِ ربِّ البيت قالِ

هذا أمر الخوارج . أمّا الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفين من جفاء الخوارج فشعرهم بعيد عن توحُّش شعر الأزارقة كثيرُ المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينيَّة . ومن شعرائهم كُثَيِّر بن عبد الرحمن الخُزاعى المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثيِّر عَزَّةَ[1] لتشبُّبه بعزَّة الضَّمْريّة فى شعره وإن قيل إنّه مُدَّعٍ غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل فى الصنف الذى سمَّيْناه بالشعر الغرامىّ عند أهل البادية فعُدَّ كثير لذلك من العُشَّاق المشهورين . لكنّه لاتّصاله بمذهب الكَيْسانيّة من الشيعة وإظهار هذا المذهب فى أشعاره غير الغرامية يستحقّ أن يُجْعل فى شعراء الصنف السادس الذى نحن فى بيانه لا سيما إذ كان ما أبداه فى أبياته من آرائه الغريبة خطيرَ الشأن لمن يفحص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثمينة فى الملل والنِّحَل مثل ابن حَزْم والشَّهْرَسْتانى لم يميِّزوا فى بيانهم القديمَ والحديث من اعتقادات كلّ فرقة فربما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكوّن أو لم يُدْخَل فيها إلاّ بمرور الزمان فإذا أردنا التوصُّل إلى كشف حقيقة الأوائل

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ٢٦ — ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن أو ٥١٩ من الطبعات المصرية (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ — ١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pérès فى الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ — ١٩٣٠) .

فلا بدّ لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التى برتبة نصوص صحيحة موثوقٍ بها .

من المشهور أنّ ركن مذاهب أهل الشيعة توارُث الإمامة فى أعقاب علىّ بن أبى طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبدًا لنفس مخالفته لنظامهم القديم الذى لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أنّ سيّد القبيلة لا ينال منصبه إلاّ باختيار رجال القبيلة إيّاه فلا تتوارث السيادةُ فإن خلَف ابنٌ أباه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضاً لا لحقّ ميراث . أمّا الأمم المجاورة للعرب فى أيّام غرّة الإسلام لا سيا الفرس فمن زمان طويل ألِفت نظاماً سياسيًا أساسه توارث المُلْك فى عائلة فلم يكونوا يتصوّرون إمكان مُلْك عظيم متين اختارت العامّة رأسَهُ . فمالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة فى الإمامة . وزيدوا على ذلك سبباً آخر قوميًا أعنى أنّ العجم بعد موت علىّ بن أبى طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لبنى أمية كمثل قيامٍ على سُلْطة العرب فانضموا إليها أفواجاً لبُغْضهم السِّرّىّ للمتغلّبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيّرت شيئاً فشيئاً مسألةُ الإمامة عند أهل الشيعة عمّا كانت فى وقت علىّ أمير المؤمنين . قد جاء فى القرآن أنّ محمّدًا خاتَم النبيين فيدلّ هذا القول ظاهرًا أن الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوّة فيا سلف من الزمان . ولكن خالف هذا آراء كثير من أمم الشرق واعتقاداتِها القديمة فلم يستصْوبوا فى قلوبهم انقطاعَ النبوّةِ وعدمَ بقائِها فى رجل من الرجال لأنّ النبوّة عندهم تمثيل قدرة الله على الأرض وعنايته بأمور الناس فلو لم تكن النبوّة فى أحد من الأحياء لمنعتْ عندهم الدنيا العنايةَ الإلهية . فحملهم هذا الظنّ بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها فى أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حيًا موجودًا فى وقت سالفه حسبا كان مثلاً يَشُوع موجودًا فى أيام موسى أو علىٌّ فى أيام محمّد . غير أنّهم تركوا طبعاً لفظ.

النبيّ لتسمية أعقاب رسول الله والتجئوا إلى لفظ الوصىّ أو المهدىّ أو الإمام[١] . فإلى بقاء رسالة الله فى أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دُعاة أبى مُسْلم بخراسان فى مخاطبته للنُّقَباء بمَرو سنة ١٢٩[٢] :

«قال : أفتشكون أنّ الله تعالى نزّل عليه [أى على النبىّ] كتابه فأتاه جبريل عليه السلام الروح الأمين أحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنّ فيه سُنَنَهُ وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة ؟ قالوا : لا . قال : أفتشكّون أن الله عزّ وجلّ قبضه إليه بعد ما أدّى ما عليه من رسالة ربّه ؟ قالوا : لا . قال : أفتظنّون أنّ ذلك العلم الذى أنْزل عليه رُفع معه أو خلّفه ؟ قالوا : بل خلّفه . قال : أفتظنّونه خلّفه عند غير عِتْرته وأهل بيته الأقرب فالأقرب ؟ قالوا : لا . قال : فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له محبّين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه ؟ قالوا : اللهمّ لا وكيف يكون ذلك ؟ قال : لستُ أقول لكم فعلتم ولكنّ الشيطان ربما نزَع النزْغة فيما يكون وفيما لا يكون . قال : وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عِتْرة النبىّ صلى الله عليه ؟ قالوا : لا . قال : أفتشكّون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالوا : لا » .

يتّضح من هذا النصّ أن أهل الشيعة أو كثيرًا منهم فى أوائل القرن الثانى قالوا ببقاء رسالة الله فى عِتْرة النبىّ أى أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب إلى الأقرب . وفى القرن الأوّل وما يليه من الثانى لتداول الزّعْم عندهم أن الساعة قريبة ختموا سلسلة أئِمّتهم بثالث أبناء علىّ وهو محمّد

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien* P. 90

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٦١ فى سنة ١٢٩ .

ابن الحنفية[١] فقالوا إنه ما مات ولا فارَق الدنيا بل إنه يغيب مدّة بجبل رَضْوَى على مسيرة يوم من يَنْبُع ثمّ يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما مُلئَتْ شرًّا وجَوْرًا . فإلى هذا المعتقَد أشار كُثَيِّر[٢] بقوله المشهور :

أَلَا إنَّ الأَئِمّةَ من قريش ... وُلَاةَ الحقّ أربعةٌ سَوَاءُ

علىٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ ... هم الأَسباط ليس بهمْ خَفَاءُ

فسِبْطٌ سبطُ إيمان وبِرٌّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ

وسبطٌ لا يذوق الموتَ حتّى ... يقودَ الجيْشَ يقدُمُهُ اللواءُ

تَغَيَّبَ لا يُرَى فيهمْ زماناً ... برَضْوَى عنده عَسَلٌ وماءُ

وهذا أيضاً معتقد السيّد الحِمْيَرىّ كما يلوح من أبياته المروية فى كتاب الأغانى[٣] التى قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنّه) بستّين سنة . ـ أما فرقة أخرى من الكَيْسانية فقالوا بانتقال محمّد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأسرار العلوم منه إلى ابنه أبى هاشم وهذا القول مهمّ جدًّا لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسّست على مذهب

---

(١) توفى فى الأول من محرم سنة ٨١ (وقيل فى سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣) بالمدينة . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبعات المصرية وقال ابن سعد فى الجزء الخامس من طبقاته ص٨٥ — ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات فى محرم سنة ٨١ وهو ابن ٦٥ سنة قمرية .

(٢) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ — ١١) ومروج الذهب للمسعودى فى الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ — ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر فى الطبعات الشرقية) [وديوان كثير عدد ١٥٠، بيت ٣ و ٤ و ٧ و ١٠ و ١١ (ج ٢ ص ١٨٦ — ١٨٨)] ويروى البيتان الأخيران فى وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبعات المصرية .

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤ و ج ٨ ص ٣٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ فى الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

القائلين إن أبا هاشم المتوفى فى أيّام سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ – ٩٩/٧١٧) أوصى إلى محمّد بن علىّ بن عبد الله بن عباس وأوصى محمّدٌ إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس عبد الله السّفّاح. ولولا ذيَعَان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصّل السفّاح إلى تأسيس الدولة العبّاسية.

ومن الحرىّ بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة فى القرن الأوّل والثانى بالرَّجْعة فإنّهم جعلوه تأييدًا لآرائهم فى توارث الإمامة فى أهل البيت وعزّها. فزعموا أنّ الرسالة أى النبوّة وهى عندهم روح الله نُزِّلت فى النبىّ وصارت روحَهُ فلمّا مات تحوّلت روحُه أى الرسالةُ أو الإمامةُ إلى علىّ بن أبى طالب وقتَ موت علىّ تحوّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلمّ جرًّا. وممّن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كُثَيّر عزّة [1] الشاعر المذكور سابقاً فيروى أنّه نظر مرّة إلى بنى الحسن بن الحسن بن علىّ وهم صغار فقال: «بأبى أنتم هؤلاء أنبياء صغار» [2]. واحتجّ فى اعتقاد الرجعة بالآية [3]: «ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» [4]. فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمّة وهى: ١ً أنّ الإمامة أو الخِلافة ليست فى الحقيقة إلّا نبوّة. ٢ً أنّ الإمام أى الخليفة صاحب صفات الأنبياء. ٣ً أنّ الإمامة أى الخلافة لا تنتقل إلّا من ميّت إلى حىّ فانقطاعها أو عَزْل الإمام مستحيل. ٤ً أنّ الأرض لا تخلو عن إمام أبدًا وإن كان هذا

(١) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٤.

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٣.

(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانفطار): ٧ – ٨. واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨ (القصص): ٨٥.

الإمام مستوراً غائباً عن عيون الناس . ٥ً أنّ وجود إمامين فى آن واحد كما زعم بعض الفِرَق محال . ٦ً أن الإمامة أى الخلافة لا تُقَلَّد باختيار الناس سواء كانوا جماعةَ المسلمين أو أهل الحلّ أو العقد . — فيتّضح أيضاً من جميع ذلك ما لَمَّحْتُ إليه سابقاً من عدم فرق حقيقىّ بين الاختلافات الدينيّة والأحزاب السياسيّة عند المسلمين أثناء القرون الأُولى للهجرة وأنّ التاريخ السياسىّ لا يُعْقَل من دون الفحص عن المذاهب والفِرَق الإسلاميّة . ثمّ يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفِرَق من الشأن العالى فى أحوال السياسة .

ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانيّة وأنكروا وفاة محمّد بن الحنفيّة وقالوا بغيبته بجبل رضوى أبو هاشم إسمعيل بن محمّد الملقّب بالسيّد الحِمْيَرىّ [١] من مخضرمى الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة بل لعلّ أكثر عمره وقع فى أيّام بنى العباس إذ مات سنة $\frac{١٧١}{٧٨٨-٧٨٧}$ قال صاحب الأغانى [٢] : « كان شاعراً متقدّماً مطبوعاً . . . وإنّما مات ذكره وهجر الناس شعرهُ لما كان يُفْرِط فيه من سبّ أصحاب رسول الله صلعم وأزواجه فى شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتُحُوِّيَ شعرُهُ من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوّفاً وتراقُباً وله طراز من الشعر ومذهب قلّما يُلْحَق فيه أو يقاربه ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذمّ غيرهم

(١) راجع كتاب الأغانى ج ٧ ص ٢ — ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً .

BARBIER DE MEYNARD, *Le Séid Himyarite, recherches sur la vie et les œuvres d'un poëte hérétique du II siècle de l'hégire* (*Journal Asiatique*, 7 ème série, t. IV, 1874) P. 159-284.

تروى له أبيات سياسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً فى مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية فى كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٣٥ (أبيات فى النبى ونقد ابن رشيق لها) .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٢ من طبعة بولاق .

ممّن هو عنده ضدّ لهم . . وأخباره كلها تجرى هذا المجرى ولا تخرج عنه » . وفى موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيّد الحميرىّ قال صاحب الأغانى[١] على ميله المعروف إلى التشيّع : «وهى قصيدة طويلة حُذِف باقيها لقُبْح ما فيه » يعنى الإفراط فى التشيّع . وممّا يدلّ على علوّ منزلته عند أهل الشيعة أنّ بعضهم نحل إليه أشعارًا فى مذهب الإماميّة[٢] القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أنّ الذى فعل ذلك رجا من زوره تأييدًا لآراء الإماميّة ولم يرْجُ ذلك لو كان السيّد الحميرىّ من الشعراء غير المقدّمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ. فيروى عن إسحق بن ثابت العطّار[٣] : «قال كنّا كثيرًا ما نقول للسيّد ما لك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء . قال لأنْ أقول شعرًا قريبًا من القلوب يلَذّه من سمعه خير من أن أقول شعرًا متعقّدًا تضلّ فيه الأوهامُ » .

كان كُثيِّر عزّة والسيّد الحِمْيَرى من الكيسانيّة أى من غلاة الشيعة . أما شعراء الشيعة المعتدلون فى أيام بنى أميّة فأشهرهم الكُمَيْت بن زيد الأسدى[٤] المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضر ويعلّم فى أول أمره الصبيان فى مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغانى[٥]

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٩ . (٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣ و ٥ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١١ .

(٤) راجع كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ — ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٨ — ٣٧٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٩ — ٧٠ و ٨٦ — ٨٧ ومروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٣٦ — ٤٥ من طبعة باريس (فى الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ — ٢٧ و ١٥٣ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٤ — ١٥٧٥ (شعر بعثه الكميت إلى أهل مرو ناشرًا الدعوة لبنى العباس سنة ١١٧ ﻫ) [والمدائح النبوية فى الأدب العربى لزكى مبارك ص ٦٧ — ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ .

على هذه الصفة : «شاعر مقدّم عالم بلغات العرب خبير بأيّامها من شعراء مُضَر وألسنتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيّام المفاخرين بها . . ولم تزل عصبيّته للعدنانيّة ومهاجاته شعراء اليمن متّصلةً والمناقضةُ بينه وبينهم شائعة فى حياته وبعد وفاته حتّى ناقض دِعْبِل وابن أبى عُيَيْنة قصيدته المذهّبة بعد وفاته وأجابهما أبو الزّلْفاء البَصرى مولى بنى هاشم » . فإذا اعتبرنا هذا النصّ فقط ظننّا أن الكميت من شعراء الصنف الخامس المفتخرين بقومهم المهاجين قبائل خصومهم . ولكن كيف ذلك إذ كان الكميت كوفيًّا من أهل الحضر بعيدًا عن أحوال حياة الأعراب ؟ والحقّ يقال إنّنا إن تأمّلنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على عصبيّتها مخالِفةً لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أنّ غرضها الحقيقيّ غيرُ المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغانى[1] إنّ «سبب هجاء الكميت أهل اليمن أنّ شاعرًا من أهل الشأم يقال له حَكِيم بن عَيّاش [الأعور] الكلبيّ كان يهجو علىّ بن أبى طالب عليه السلام وبنى هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بنى أميّة فانتدب له الكميت فهجاه وسبّه فأجابه ولجّ الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح فى شعره عن علىّ عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظْهِر أنّ هجاءه إيّاه فى العصبيّة التى بين عدنان وقحطان» فيدلنا هذا القول على أنّ هجاءه يُعَدّ من الشعر فى الاختلافات السياسيّة الدينيّة وإن كان ظاهره غيرَ ذلك . وفى كتاب مروج الذهب للمسعودى[2] رواية تؤيّد ما قلناه وهى أنّ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أراد أن

(١) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٨ وخزانة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ — ٤٤ من طبعة باريس (فى الباب الثالث بعد المائة) وراجع خزانة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

يُهْدِيَ للكميت هدايا ثمينة لقصائده فى مدح العلويّين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : «أمّا إذْ أبَيْتَ أن تقبَل فإنّى رأيت أن تقول شيئاً تُغْضِب به بين الناس لعل فتنةً تحدث فيخرج من بين أصابعها بعضُ ما تُحِب» فابتدأ الكميت وقال قصيدته التى يذكُر فيها مناقب النزاريّين ويُطْنب فى تفضيلهم على قحطان وهى زُهاءُ ثلثمائة بيت لم يترك فيها حيا من أحياء اليمن إلّا هجاهم . وعرّض بأخذ الفُرْس والحَبَشَة نساءَ اليمن بقوله :

لنا قمرُ السماء وكلُّ نجم ... تُشير إليه أيدى المهتدينا

وجدتُ الله إذ سمّى نزاراً ... وأسكنهم بمكّةَ قاطنينا

لنا جعل المكارم خالصات ... وللنـــاس القفا ولنا الجبينا

وما ضربت هجائنَ من نزار ... فوالجُ من فحول الأعجمينا

وما حملوا الحَميرَ على عِتاق ... مطهّمـــة فيُلْفَوْا مُنْغَلينا

وما وُجِدَتْ بناتُ بنى نزار ... حلائلَ أسْودين وأحمرينا

ولكنّى أظنّ أن صاحب الأغانى والمسعودىّ لم يُصيبا فى قولهما كلَّ الإصابة وأنّ غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبيّن فى النصوص التى نقلتُها . تذكّروا ما شرحته لمّا تكلّمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأوّل (ص ١٤٣) أعنى أنّ اليمنيّين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجاً حتّى كان عددهم هناك أوفرَ من عدد النزاريّين فإن بنى أميّة اعتمدوا عليهم خصوصاً لتأييد مُلْكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأمّلتم هذا فهمتم أنّ هجاء الكميت اليمنيّين كان فى الحقيقة هجاء أشدّ المتعصّبين للدولة الأمويّة وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة .

كان الكميت قبل مهاجاته القحطانيّين قد نظم القصائد الهاشميّات وهى من جيّد شعره مدح فيها بنى هاشم أى أهل البيت وأبدى فيها تعصّبه

لمذهب الشيعة . ولكنّه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع فى أبى بكر وعمر فقال[١] :

أَهْوَى عليًّا أميرَ المؤمنين ولا أَرضَى بِشَتْمِ أَبِى بكرٍ ولا عُمَرَا
ولا أَقولُ وإن لم يُعْطِيَا فَدَكاً بنتَ النبيِّ ولا ميراثَهُ كَفَرَا
اللهُ يعلمُ ماذا يأْتيانِ بهِ يومَ القيامةِ من عُذْرٍ إذا اعتَذَرَا

أمّا بنو أميّة فشتمهم فى الهاشميّات فقال مثلاً بعد ذكر فضائل بنى هاشم[٢] :

ساسةٌ لا كَمَنْ يرى رِعْيَةَ النا سِ سَوَاءً ورِعْيَةَ الأَنْعامِ
لا كعبدِ المَليكِ أو كوليدٍ أو سليمانَ بعدُ أو كهِشامِ
رأْيُهُ فيهمُ كرأْى ذوى الثُّلْـ ـةِ فى الثائجات جُنْحَ الظَّلامِ

ومن أغرب الغرائب أنّه مدح بنى أميّة فى غير القصائد الهاشميّات فمن قوله[٣] :

أَبَنِى أُميّــةَ إنّكمْ أهلُ الوسائلِ والأَوامرْ
ثِقَتِى لكلِّ مُلِمَّــةٍ وعشيرتى دون العشائرْ
أنتمْ معادنُ للخـلا فةِ كابرًا من بعدِ كابرْ
بالتســعةِ المتتابعيـ ـنَ خلائفاً وبخيرِ عاشرْ
وإلى القيــامةِ لا تزا لُ لشافعٍ منكم وواترْ

---

(١) الهاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ — ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤ أما فدك فانظر ما قيل فى حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .

(٢) الهاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ — ٣٧ من طبعة ليدن . عبد المليك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكذا أيضاً فى بيت جواس بن القعطل الكلبى المروى فى حماسة أبى تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ص ١٢٢ من طبعة ليدن أو ص ٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفى معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣ — ٤ من طبعة ليبسك — ثلة جماعة الضأن الكثيرة وثأج الغنم صاح .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

فاستغرب ذلك بعضُ كَتَبَة العرب فقال ابن قتيبة فى توطئته لكتاب الشعر والشعراء[1] عند ذكر طَمَع بعض الشعراء : «وهذه عندى قصة الكميت فى مدحه بنى أميّة وآل أبى طالب فإنه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أميّة بالرأى والهوى وشعره فى بنى أميّة أجود منه فى الطالبيّين ولا أرى علّة ذلك إلّا قوّة أسباب الطمَع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة» . ويروى فى الأغانى[2] أنّه قد استأذن أبا جعفر محمّد بن علىّ فى مدح الأمريين فأُذِن له فيه . ومن الجدير بالذكر من هذا الباب شعرٌ له مدح فيه النبىّ بما ليس فى محله فقيل إنّه لم يُرِد النبىّ وإنّما أراد عليّاً فورّى عنه بذكر النبىّ خوفاً من بنى أميّة[3] .

ليست هذه المداهَنةُ مختصّة بالكميت بل توجد أيضاً فى شعر غيره من شعراء الشيعة فى ذلك العصر[4] . ورأيى فيها أنّ أسبابها ثلاثة عمِلت فيهم معاً : الطمع فى الجوائز والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة فى التقيّة[5] من المشهور أنّ أهل السنّة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنّها رُخْصة من عند الله للضعفاء أمّا الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير فى استعمال التقيّة أو الكِتْمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبىّ الحديث : «مؤمن لا تقيّة له كمثل جسد لا رأس له» ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمّد القول : «نَفَس المهموم لظُلْمنا

---

(١) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ . الأبيات موجودة فى الهاشميات عدد ٣ بيت ٣١ — ٣٦ من طبعة ليدن .

(٤) منهم كثير وأيمن بن خريم مثلا (راجع كتاب الأغانى ٢١ ص ٧ — ١٣) .

(٥) راجع J. GOLDZIHER, *Das Prinzip der "takijja" im Islâm* (*Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft*, 60, 1906, P. 213-226)

تسبيح وهمّه لنا عبادة وكتمان سرّنا جهاد فى سبيل الله » فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يُكتَب هذا الحديث بماء الذهب . فإذًا لا غَرْوَ أن شعراء مذهبهم فى أواخر القرن الأوّل وأوائل الثانى لم يروا فى مدح بنى أميّة بأساً وإن كانوا فى قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأى ما قاله الكميت فى إحدى الهاشميّات [1] :

وإنّى على حُبّيهمُو وتطلّعى ... إلى نَصْرِهم أمْشِى الضَّراء وأَخْتِلُ

تجودُ لهم نَفْسِى بما دون وَثْبةٍ ... تَظَلّ بها الغِرْبَانُ حَوْلِىَ تَحْجُلُ

ثم قال أيضاً [2] :

وإنى على أنى أُرَى فى تقيّةٍ ... أُخالِطُ أقواماً لقومٍ لَمِزْيَلُ

وإلى ذلك أيضاً يرجع ما يروى فى كتاب الأغانى [3] : « دخل الكميت ابن زيد الأسدىّ على أبى جعفر محمّد بن علىّ عليهما السلام فقال له يا كميت أنت القائل :

فالآن صِرْتُ إلى أُمَيّـ ... ـة والأمور إلى المصائر

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردتُ به إلّا الدنيا ولقد عرفتُ فضلكم . قال أمّا إن قلت ذلك إنّ التقيّة لتحلّ » .

وقبل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بدّ لنا من ملاحظة . قد أشرت غير مرّة إلى قلّة العواطف الدينيّة الخالصة فى منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى سنوح المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلَف شعراء المدن الحجازيّة بلذّات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين

---

(١) الهاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ — ٨٧ من طبعة ليدن .

(٢) الهاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة بولاق .

وهلم جرًّا. إنّ شعراء بنى أميّة كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالًا كان فى أيديهم القوّة المادّيّة والسُّلْطة والمُلك فلا غَرْوَ إن غلبت فيهم الدنيا على الدين. أما شعراءُ الخوارج فأفسد توحُّشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالفِطْرة الدينيّة الحقيقيّة فإن أبدَوْا مثلًا كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضحته فيما سبق أعنى على صفة أقربَ إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد. أمّا شعراء الشيعة لتعلّقهم بحزب عُزِل عن كلّ سُلْطة مادّيّة ولمدحهم رجالَ ورعٍ وتُقًى زعموا بقاء روح النبوّة والرسالة فيهم مالوا طبعاً إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأتَوا فى شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويّين حتّى قيل عن قصيدة للسيّد الحميرىّ إنّها لو قرِئَت على منبر ما كان فيها بأس[1]. فلا شكّ أن النوع من الشعر الدينىّ الذى نما فيما بعد فاشتهر به البُرَعىّ يتّصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأوّل والثانى. .

إذا أردتم الإفادة عن المُرْجِئة وراجعتم ما قيل فيهم فى التصانيف مثل كتاب المِلَل والنِّحَل للشّهْرَسْتانىّ وجدتموهم موصوفين فيها كأنّهم من المذاهب الكلاميّة لا غير. قال الشهرْستانىّ إنّهم «كانوا يؤخّرون العمل عن النّية والقصد ...ويقولون لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنّة أو من أهل النار». وجميع ذلك صواب بالنظر إلى المتأخّرين منهم لا بالنظر إلى المقدّمين الكائنين فى عصر الدولة الأمويّة وأوائل العبّاسيّة. فإنّهم فى أوّل أمرهم لم يكونوا إلّا من الأحزاب التى تكوّنت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة لقتل عثمان بن عفّان؛

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٧ من طبعة بولاق.

فكانوا حزباً دينيًّا من جهة مَبْدَئهم النظرىّ وحزباً سياسيًّا من جهة النتائج العمليّة الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرّ (ص ٢٣٢) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويّين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العثمانيّين والعلويّين فى أوائل خلافة علىّ ويلوح ذلك من بعض التعاريض الواردة اتّفاقيًّا فى تاريخ الطبرىّ ومن أشعار شعرائهم فإنّهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم فى عثمان وعلىّ وأصحابهما ثمّ بجواز طاعة بنى أميّة ومقاتلة من ثار على السلطان[1] . قال محارب بن دِثار الذُّهْلىّ[2] (المتوفى سنة ١١٦) :

يَعيب علىّ أقوامٌ سَفاهاً — بأن أرجو أبا حَسَن عَليًّا
وإرجائى أبا حسنٍ صوابٌ — عن العُمَرَيْنِ بِرًّا أو شقيًّا
فإن قدّمتُ قوماً قال قوم — أسأتَ وكنتَ كذّاباً رديًّا
إذا أيقنتُ أنّ الله ربّى — وأرسل أحمدًا حقًّا نبيًّا
وأنّ الرُّسْلَ قد بُعِثُوا بحقٍّ — وأنّ الله كان لهمْ وليًّا
فليس علىَّ فى الإرجاء بأْسٌ — ولا لَبْسٌ ولست أخاف شيًّا

فتأمّلوا أهميّة هذا التوقّف وكم كان له من التأثير فى العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمَقْضِىّ والاعتراف بخلافة الأمويّين فغاظ.

---

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Irdjâ* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 45, 1891, P. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغانى ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق — وفى البيت الأول أرجو (كذا !) والصحيح أرجى [كما فى طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] — أما البيت الثانى فتركيبه هو: « وإرجائى أبا حسن براً وشقياً عن العمرين صواب » راجع van Vloten فى مقالته المذكورة آنفاً ص ١٦٥ حاشية ٢ .

هذا الإرجاء أهل الشيعة أىَّ غيظ. فقال فيه السيِّد الحميرىّ[1] :

خليلىَّ لا تُرْجِئَا وأعلما ... بأنَّ الهُدَى غير ما تزعمانِ

وأنَّ عَمَى الشكِّ بعد اليقين ... وضُعْفَ البصيرة بعد العيانِ

ضلالٌ فلا تَلْجَجَا فيهما ... فبئست لَعَمْرُكما الخَصْلتانِ

أيُرْجَى علىٌّ إمامُ الهُدَى ... وعثمانُ ما أعْنَدَ المُرْجِيَانِ

ويُرْجَى ابنُ حَرْب وأشياعُهُ ... وهُوجُ الخوارج بالنَّهروان

يكون إمامهُمُ فى المعاد ... خبيثُ الهوى مؤمنُ الشَّيْصَبانِ

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دِثار السابق ذكره ثابت قُطْنة[2] أحد الفرسان الشّجعان فى ثغور خراسان بل والٍ على عمل من أعمالها غزا عدّة غزوات فى بلاد تركستان فى أيّام قُتَيْبة بن مسلم فكان كثير من شعره ممّا سمّيْناه الصنف الخامس أى دائرًا على الحماسة والمغازى وممّا قال سنة ٦٥[3] :

فَدَتْ نفسى فوارسَ من تميم ... على ما كان مِنْ ضَنْكِ المُقامِ

بِقَصر الباهلىّ وقد أرانى ... أُحامِى حين قَلَّ به المُحامى

بسَيْفِى بعد كَسْرِ الرُّمح فيهم ... أذودُهُمُ بذى شُطَبٍ حُسامِ

أكُرُّ عليهم اليَحْمُومَ كَرًّا ... ككَرِّ الشَّرْبِ آنيَةَ المُدامِ

فلولا الله لَيس له شَرِيكٌ ... وَضَرْبِى قَوْنَسَ المَلِكِ الهُمامِ

إذًا فاظَتْ نِسَاءُ بنى دِثارٍ ... إمامَ التُّرْكِ باديةَ الخِدامِ

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أرجأ وأرجى أخر – لج التمادى فى الخصومة – أعند فلاناً عارضه بالوفاق – ابن حرب هو معاوية – أهوج طويل وبه تسرع وحمق وطيش – النهروان مركز من مراكز الخوارج .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٩ – ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠ – ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٥ – ١٨٧ فلينظر أيضاً وفهرست تاريخ الطبرى .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ – ١٣١ من طبعة ليدن فى سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن قطبة بدلا من ثابت بن قطنة) .

ولمّا تولّى سليمان بن عبد الملك أمور الخلافة (٩٦/٧١٥ - ٩٩/٧١٧) وفضّل قحطان على مُضَر لأغراض سياسته فثار عليه قتيبة بن مسلم والى خراسان لتعصّبه لعدنان كفّ ثابت قطنة عن الثورة بل تألّف الوالى الجديد يزيد ابن المهلّب بن أبي صُفْرة ولم ينحرفْ عن صُحْبته على صروف الزمان . فلمّا تقلّبت أحوال القحطانيّين فى أيّام يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٠ - ١٠٥/٧٢٤) ورجعت الشوكة إلى مضر أخذ ثابت يحرّض ابن المهلّب على المقاومة والقتال [١] واتّبعه لمّا توجّه إلى العراق راغباً فى خَلْع يزيد بن عبد الملك طالباً الخلافة لنفسه وكان معه فى يوم العقر فى صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلّب وفرّوا عنه فقُتل . فقال ثابت قطنة يرثيه [٢] :

كلّ القبائل بايَعوكَ على الذى … تدْعو إليه . وتابَعوك وساروا
حتّى إذا حَمِى الوَغَى وجعلتَهُمْ … نَصْبَ الأسنّة أسلموك وطاروا
إن يقتُلوك فإنّ قتْلك لم يكُنْ … عارًا عليك ورُبّ قتْلٍ عارُ

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قِطَع منه . أما الذى حملنى على ذكر ثابت قطنة هنا فهو شعر له مشهور فصّل فيه آراء المرجئة فى زمانه أى فى النصف الثانى من القرن الأوّل وهو شعر مهم جدًّا لموضوعه ولكونه من أقدم الأشعار قيلت فى وصف اعتقادات دينيّة بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته [٣] :

يا هندُ فاستمِعى لى إنّ سِيرَتنا … أن نعبُدَ الله لم نُشْرِكْ به أحد

(١) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس فى الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خزانة الأدب أحسن من رواية الأغانى .

نُرْجِى الأمورَ إذا كانت مشبَّهة ‏ ‏ ونصدُق القولَ فيمن جار أو عَنَدا

المسلمون على الإسلام كلُّهمُ ‏ ‏ والمُشركون أشتُّوا دينهم قِددا

ولا أرى أنَّ ذنباً بالِغٌ أحدًا ‏ ‏ مِ النّاسِ شِرْكاً إذا ماوحّدوا الصَّمَدا

لا نسفِك الدم إلّا إن يراد بنا ‏ ‏ سَفْكُ الدماء طريقاً واحدًا جَدَدا

من يتّقِ الله فى الدنيا فإنَّ له ‏ ‏ أجْرَ التقىّ إذا وَفّى الحساب غدا

وما قضى الله من أمرٍ فليس له ‏ ‏ ردٌّ وما يقضِ من شىء يكن رَشَدا

كلُّ الخوارج مُخْطٍ فى مقالته ‏ ‏ ولو تعبَّد فيم قال واجتهدا

أمّا علىٌّ وعثمان فإنَّهما ‏ ‏ عبدانِ لم يُشْرِكا بالله مُذْ عبدا

وكان بينهما شَغْب وقد شهدا ‏ ‏ شَقَّ العصا وبعينِ الله ما شهِدا

يُجْزَى علىٌّ وعثمان بسعْيهما ‏ ‏ ولستُ أدرى بحقٍّ آيةٍ وَرَدا

الله يعلم ماذا يحضُران به ‏ ‏ وكلُّ عبد سيلقى الله منفردا

تأمَّلوا هذه الأبيات يتَّضحْ أن جميع المسائل المدلول عليها فيها إنما هى من نتائج الاختلافات فى من تكون الإمامة من حقّه . فى البيت الثانى يردّ ثابت قطنة على أهل الشيعة القائلين بظُلم الخلفاء الأمويين ووجوب عِصيانهم لجورهم . ثم فى البيتين التاليَيْن يُجيب الخوارج وأهل الشيعة معًا القائلين بكُفْر من لا يذهب مذهبهم من المسلمين ويردّ عليهم جميعاً أيضاً بقوله «لانسفِك الدم إلخ » لأن الخوارج قالوا بوجوب جهاد سائر المسلمين بل ذهب قوم منهم إلى استحسان الاستعراض المومأ إليه سابقاً (ص ٢٣٨) أمّا أهل الشيعةفكفَّروا من سفك دِماء المؤمنين وأرادوا بذلك تكفير الخلفاء والأمراء من بنى أميّة . ثمَّ أظهر ثابت قطنة فى باقى أبياته الإنصاف فيا بين علىّ وعثمان فجعلهما متساويى القدر وكفَّ عن الحكم فيا جرى بينهما من الخلاف مقتديًا بالآية المشار إليها عند آخر الشعر وهى على المرجّح :

« وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (١).
فترون أنّ جميع ذلك متعلّق ضروريًّا بمسألة الخلافة والحكومة شديد التأثير في السياسة والعمل . ولكن لمّا رسخت الدولة العبّاسيّة وتثبّتت شوكتها في جميع بلاد الشرق فزالت فعلًا الاختلافات في الإمامة عند رجال السياسة والسلطان — تقلّب حال المرجئة كما تقلّب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلاميّة القديمة أعنى أنّ آراءهم الدينيّة السياسيّة التي أصلها مسألة الإمامة لا غير تحوّلت إلى آراء كلاميّة عامّة متجرّدة عن علاقة ضروريّة بمسائل الخلافة فعدلوا مثلاً عن القول بإرجاء عثمان وعلىّ وبنى أميّة وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدَوْرهم هذا الجديد هو الموصوف في التآليف المشهورة في الملل والنِّحَل .

قلّ الشعراء المساعدون للزبيريّين على ادّعائهم بالخلافة أو بالحرىّ قلّ ذكرهم في الكتب التي وصلت إلينا فإنّ الذين مدحوا مُصْعَب بن الزُّبيْر أرادوا الثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عُبَيْد الله بن قيس الرُّقيّات(٢) أحد شعراء قريش المقدّمين المشتهر بالغزل أيضاً وهو صحِب مُصْعَباً وخرج معه على عبد الملك بن مروان ولم يفارقه إلى أن قُتل مصعب سنة ٧٢/٦٩١ وبعد مدّة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى عبد الملك فعفا عنه فقال ابن قيس الرقيّات البيتين الشهيرين (٣) :

(١) القرآن سورة ٩ (التوبة) : ١٠٦ .

(٢) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodokanakis في ص ٤ — ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بعنايته في وينا سنة ١٩٠٢ — والشاعر مذكور في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ — ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل في اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وخزانة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١ بيت ١٤ — ١٥

ما نقَمــوا من بنى أُميَّة إ لاَّ أنّهمْ يحلُمون إن غضِبوا
وأنَّهمْ سادة الملوك فلا تصلُحُ إلّا عليهم العَرَبُ

قد كثُر ولا غرو فى ذلك الشعراء المادحون لبنى أميّة : منهم بل أشهرهم الأخطل السابق ذكره (ص ١٥١) . لكنى لا أُريد هنا إلّا الذين تعصّبوا للأمويين فى مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وادّعائهم وجادلوا الخصوم فى أشعارهم مثل ما فعل كعب بن جُعَيْل الذى قرأت أبياته فى الحروب بين أصحاب معاوية وشيعة علىّ (ص ٢٣٠) .

فمن هؤلاء الشعراء أعْشَى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكّان الكوفة «كان مروانى المذهب شديد التعصُّب لبنى أميّة»[1] . فقال ردًّا على آراء الخوارج والشيعة[2] :

وما أنا فى أمرى ولا فى خصومتى بمهتضمٍ حقّى ولا قارعٍ سنّى
ولا مُسْلِمٍ مولاىَ عند جِناية ولا خائفٍ مولاى من شرّ ما أجنى
وإنَّ فؤادًا بين جَنْبَىَّ عالمٌ بما أبصرَتْ عينى وما سمعت أذْنى
وفضّلنى فى الشعر واللُّبِّ أنّنى أقول على علمٍ وأعرف من أعنى
فأصبحت إذ فضَّلْتُ مروانَ وابنَهُ على الناس قد فضّلت خيرَ أَبٍ وابن

وحثّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبيريِّين المدَّعين بالخلافة فى الحجاز وقال[3] :

آلُ الزُّبيْر من الخلافة كالّتى عَجِلَ النِّتاجُ بحَمْلها فأحالَها
أو كالضِّعاف من الحمولة حُمِّلَتْ ما لا تُطيق فضَيَّعتْ أجمالَها

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨ فى ذيل ديوان أعشى ميمون] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٤] الحمولة هى الإبل التى تحمل — الجمال هو القياك الذى يقوم بأمر قومه .

قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغُواة أطَلْتمو إمهالَها
إنَّ الخلافة فيكمو لا فيهمُ ما زِلْتمو أركانَها وثِمالَها
أمسوْا على الخيرات قُفْلاً مُغْلَقًا فانهَضْ بيُمْنك فافتتحْ أقفالَها

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزُّبير[1] الأسدىّ قال فيه صاحب الأغانى ما نصُّه[2] : «شاعر كوفىٌّ المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأمويّة وكان من شيعة بنى أُميّة وذوى الهوى فيهم والتعصُّب والنُّصْرة على عدوّهم. فلمّا غلب مُصْعَب بن الزُّبَيْر على الكوفة أُتِىَ به أسيرًا فمنَّ عليه ووصله وأحسن إليه فمدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتّى قُتِل مصعب ثمّ عَمِىَ عبد الله بن الزُّبير بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك بن مروان ($\frac{٦٥}{٦٨٥}$ — $\frac{٨٦}{٧٠٥}$) ... وهو أحد الهجّائين للناس » . فإذا طالعتم أشعاره المرويّة فى كتاب الأغانى عرفتم قدر إطرائه للأمويّين .

ومنهم أيضاً السائب بن فَرُّوخ المعروف بأبى العبّاس الأعمى[3] مولى بنى الدِّيل سكن مكّة وقال الشعر فى النصف الثانى من القرن الأوّل فقيل إنّه «كان من شعراء بنى أميّة المعدودين المقدّمين فى مدحهم والتشيُّع لهم وانصباب الهوى إليهم »[4] فنظم أشعارًا كثيرة فى مدائحهم وهجاء آل الزُّبَيْر فكانت الأمويُّون يبعثون إليه الجوائز من الشام . ومديحه جرى مجرى مدح عرب الجاهليّة لسادتهم فلولا ذكر المنابر فى شعر أبى العبّاس لما وجدنا

---

(١) وهو المذكور فى كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٣٣ — ٤٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٣٣ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٥٩ — ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن قتيبة (ولعله هو المشار إليه عرضاً فى ص ٣٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزانة الأدب [ولا ابن سلام ولا الآمدى] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسى الأصل .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق .

بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله فى بنى أميّة[1] (من بحر الخفيف) :

خُطَبَاءُ على المنابر فُرْسا ... نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يُعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلَبْسِ

بحُلومٍ إذا الحلوم تقضَّتْ ... ووجوهٍ مثل الدنانير مُلْسِ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرِّغ الحِمْيَرىّ المعروف بابن مفرِّغ[2] المتوفّى سنة ٦٩ فى بلاد كرمان . كان حليف قريش وصحِب عبَّاد بن زياد بن أبى سفيان حين ولَّاه معاوية بلادَ سِجِستان ولم يَحْمَدْه ثمّ لما وقع بينهما أخذ يهجوه ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان والى العراق (المتوفّى سنة ٦٦) وغيرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهاجيه حتّى كانت أهل البصرة تغنّى بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدّة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخلية سبيله ففعل . وكان ابن مفرِّغ من شعراء الغزل أيضاً فأشعاره فى أناهيد بنت أحد دهاقين الفُرْس مشهورة . وسيأتى الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القَصَصِىّ اليمنىّ .

لمّا شرعت فى الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنّه مرآة أحوال الأحزاب السياسيّة الدينيّة وترجمان أهواء الناس وآرائهم فى مسائل الدنيا والدين فما تقدّم برهان على ذلك قاطع . فأشرتُ إلى أشعار العثمانيّة والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريّين وأصحاب الأمويّين، فلا بدّ لنا الآن من

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٦٠ .

(٢) ذكر فى كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٥١ — ٧٣ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ — ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٣١ من طبعة غوتنجن أو ٧٩٢ من الطبعات المصرية ومروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ — ١٤٤ من طبعة ليدن] .

لَمْحة فى الشعر المعبِّر عن أسباب انحطاط قوّة الدولة الأمويّة غير الفتن والاختلافات فى مسألة الإمامة .

أفضت الخلافة سنة $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$ إلى الوليد بن يزيد فهو لم يزل مُدْمِنًا على الصيد واللهو وشُرْب الخمر محتجباً عن الناس منهمكاً فى اللّذّات فملّ الناس أيامَه وكرِهوه فرأى بعضُ أهل بيته خَلْعَه سواءٌ أن يحملهم على ذلك بُغْض سوء سيرته أم الطَّمَع وحبّ الأحداث . فوقعت الفتن بينهم فقال العبّاس بن الوليد ابن عبد الملك المسمّى بفارس بنى مروان لشهامته : «يا بنى مروان أظنُّ أنّ الله قد أذن فى هلاككم » ثمّ أخذ يُنْذِرهم فقال[1] :

إنّى أعيذكمُ بالله من فِتَنٍ مثل الجبال تَسامى ثمّ تندفِعُ

إنّ البريّة قد ملّتْ سياستَكم فاستمسِكوا بعمود الدين وارتدِعوا

لا تُلْحِمُنَّ ذئابَ الناسِ أنفسَكم إنّ الذئابَ إذا ما أُلْحِمَتْ رَتَعوا

لا تبقُرُنّ بأيديكم بُطُونكُمُ فثَمّ لا حَسْرَةٌ تُغْنِى ولا جَزَعُ

ومن أهمّ المصادر وأوثقها لمعرفة حال العرب والعجم بخراسان فى أواخر الدولة الأمويّة أشعار أمير لا تأتى الكتب فى طبقات الشعراء بترجمته وإن كان ما نظمه فى فتن زمانه أتمّ وصفٍ وأوضح تبيانٍ لما وقع فى تلك البلاد من الشرّ بين اليمنيين والنزاريّين ولعل نموّ الدعوة العبّاسيّة وازدياد قوة الموالى وزوال أمر العرب وغير ذلك ممّا عمِل فى انتقال الخلافة من بنى أميّة إلى بنى العبّاس . أعنى نصر بن سَيّار أميرَ خراسان المتوفّى فى ربيع الأوّل من سنة $\frac{١٣١}{٧٤٨}$. فلولا أشعاره ما توصّلنا إلى معرفة كثير ممّا يتعلّق بالتقلبات السياسيّة وتغيُّر بعض المذاهب الدينيّة فى الثلث الأوّل من القرن الثانى

(١) كتاب الأغانى - ٦ ص ١٣٧ من طبعة بولاق وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٨٨ من طبعة ليدن .

منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة فى بلاد العجم الشماليّة بعد ما انضمّت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرّ (ص ٢٤٥ — ٢٥٢) أنّ الإرجاء عند العرب فى القرن الأوّل كان التوقف عن الحكم بين شيعة علىّ وشيعة بنى أميّة وأنّه كان للثانية أجدى منه للأولى إذ أدّى أصحابَه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بنى أميّة . أمّا بخراسان فى أوائل القرن الثانى فانعكس الأمر إذ ذهبت إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهين سُلْطة العرب عليهم الشاكين جَوْر الأمويّين وأمرائهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عمّا كان عند العرب قبلاً وأصبح توقّفًا عن التعصُّب لبنى أميّة بل كَرْهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العبّاسيّة التى مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيّار سنة ١١٧ حين أقبل الحارث بن سُرَيْج المرجئىّ إلى مَرْو ومن أبياته[1] :

والعائبينَ عَلَيْنا دينَنا وَهُمُ ... شَرُّ العِبادِ إذا خابَرْتَهُمْ دينا
والقائِلينَ سَبيلُ اللهِ بُغْيَتُنا ... لَبُعْدَ ما نَكَبُوا عمّا يَقولونا
فاقْتُلْهُمُ غَضَباً للهِ مُنْتَصِراً ... منهم به وَدَعِ المُرْتابَ مَفْتونا
إرْجاؤُكُمْ لَزَّكُمْ والشِّرْكَ فى قَرَنٍ ... فَأَنْتُمُ أهلُ إشراكٍ ومُرجونا
لا يُبْعِدِ اللهُ فى الأَجْداثِ غَيْرَكُمُ ... إذ كان دينُكُمُ بِالشِّرْكِ مَقْرُونا

فيُشْبه هذا الكلام ما كانت الشيعةُ يقولونه فى مرجئة العراق الممتنعين عن معصية معاوية وخلائفه . — ومن الشهير من شعر نصر بن سيّار فى ذكر أحوال

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٦ فى سنة ١١٧ . ويدل ابن حزم على ما هو الإرجاء الفارسى فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٣١٧ — ١٣٢١ وهذا نصه : « اختلف الناس فى ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبى محرز الجهم بن صفوان وأبى الحسن الأشعرى البصرى وأصحابهما » .

خراسان وإهمال الخلفاء الأمويّين الآخِرين الذين كانوا من أشدّ العوامل فى انقراض دولتهم[1] :

أرَى خلَلَ الرّمادِ وَميضَ جَمْرٍ ويوشِكُ أنْ يَكونَ له ضِرامُ
فإنَّ النار بالعودَيْن تُذكَى وإن الحرْب أوّلُها الكلامُ
وإنْ لمْ تُطفِئُوها تَجْنِ حَرْباً مُشمّرةً يَشِيبُ لَهَا الغُلامُ
أقولُ من التّعَجُّبِ لَيْتَ شعْرى أأيْقـاظٌ أمَيّةُ أمْ نِيام
فإنْ يَكُ قَوْمُنا أضحَوْا نِياماً فَقُلْ قوموا فَقَدْ حانَ القِيامُ
فَفِرّى عن رِحالِكِ ثم قولى على الإسلام والعربِ السلامُ

وقال يخاطب مُضَر واليمن ويحذّرهم العدوّ الداخل عليهم[2] :

أبْلِغْ رَبيعةَ فى مَرْوٍ وإخْوَتَها أن يَغْضَبوا قَبْلَ أنْ لا يَنْفَع الغَضَبُ
ولْينصبُوا الحَرْبَ إن القومَ قد نَصَبوا حرباً يُحَرّق فى حافاتِها الحَطَبُ
ما بالُكمْ تُلقِحون الحَربَ بَيْنَكُمُ كأنّ أهل الحِجَا عن فِعلِكُمْ غُيّبُ
وتترُكون عَدوًّا قد أظلّكُمُ ممن تَأشّب لا دينٌ ولا حَسَبُ
لَيْسُوا إلى عَرَبٍ منا فنَعْرِفَهُمْ ولا صَميم المَوالى إنْ هُمُ نُسِبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعتُ به عن الرسول ولا جاءتْ به الكتبُ
فمَنْ يكن سائِلى عن أصلِ دينهِمُ فإن دينَهُمُ أنْ تُقْتَلَ العربُ

وقبل أن نَخْتمَ هذه النُّبْذة فى الصنف السادس من الشعر فى أيّام بنى أميّة علينا أن نذكر شعراء من العجم نسجوا القريض بلغة العرب . — لمّا جرى الكلام على الشعر فى مدن الحجاز أوضحتُ أنّه بعد الفتوح وقبل

---

(١) مروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ ص طبعة باريس وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ٣٥٦ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ٣٦٠ من طبعة ليدن والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد فيه البيت الخامس) .

أواسط القرن الأوّل جُلبت إلى بلاد الحرمين الجوارى المغنّيات بالفارسىّ والرومىّ وشرحت ما كان لذلك من التأثير فى اعتناء شعراء المدن الحجازيّة بالغَزَل دون سائر أفانين الشعر . وفى ذلك العصر كثُر أيضاً بمكّة والمدينة عدد المَماليك من سَبْى الفرْس فصار أولادُهم موالى أهل الحجاز وتدرّبوا بلغة أصحابهم حتّى إنّ بعضهم نحو أواسط القرن الأوّل أخذ ينظم الشعر بالعربيّة . وهذا الأمر مهمٌّ جدّاً لأنّ الشعر تعبير عن عواطف الأمّة وأهوائها وأميالها وأخلاقها وعوائدها فإذا شاركها فى الشعر بلغتها أمم أخرى فلابدّ من وقوع تقلُّب واضح فى مضمون ذلك الشعر وإن لم تتغيّر اللغة والأعاريض التى صيغ فيها . فبسبب الموالى بعد منتصف القرن الأوّل أخذ شعر العرب يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعر أمم إسلاميّة شتّى بلغة عربيّة .

ومن الموالى الذين أصلهم من آذَرْبَيْجان ومنشؤهم وسكناهم بمكة أو المدينة أبو العبّاس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شَهَوَات[1] الذى قال الشعر فى المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة فى أيام سليمان بن عبد الملك ($\frac{٩٦}{٧١٥}$ – $\frac{٩٩}{٧١٧}$) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك ($\frac{١٠٥}{٧٢٤}$ – $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$) ومنهم محمّد بن يَسَار الذى قلّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سَلْمَى الأعْجَم[2] مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنّه كان ينزل إصْطَخْر ،

---

(١) « وشهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح – والشاعر مذكور فى كتاب الأغانى ج ٣ ص ١١٨ – ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ – ٣٦٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق – وقيل فى الأغانى ج ٣ ص ١١٨ إنه موسى بن بشار وفى الخزانة إنه موسى بن يسار أخو إسماعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف – فما وصف صاحب كتاب الأغانى (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة إسماعيل بن يسار إلا محمداً وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه فى كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفى معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل إنه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ – ١٠٩ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ – ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ – ٢٥٩ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن

وقال البعض إنَّ أصله ومولده ومنشأه بأصبهان «ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعرًا جَزْل الشعر فصيح الألفاظ على لُكْنة لسانه وجرْيِه على لفظ أهل بلدِه» [1]. وله قصيدة طويلة عُدَّت من غرر المراثى قالها لما مات المغيرة بن المهلَّب بن أبي صُفْرة سنة ٨٣ منها[2] :

قُلْ للقوافل والغُزاة إذا غزوْا   والباكرين وللمُجِدّ الرائح

إنَّ السماحةَ والمروءةَ ضُمِّنَا   قَبْرًا بمَرْوَ على الطريق الواضح

فإذا مررتَ بقبرهِ فاَعْقِرْ بهِ   كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابح

وانْضِحْ جوانبَ قبرهِ بدِمَائها   فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب[3] كأنَّه منهم فمن اطَّلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنَّ أنه شعر مولًى فارسيّ. وأدرك زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣).

ولكن غَرَضى هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم

— خلكان فى ترجمة المهلب بن أبي صفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٢٣ من الطبعات المصرية وحماسة أبي تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بون أو ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤتلف للآمدى ص ١٣١ — ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ وفى وفيات الأعيان لابن خلكان [وفى كتاب المؤتلف للآمدى].

(١) كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢.

(٢) فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ : «المهلب بن المغيرة» وهو غلط. تروى القصيدة (٥٠ بيتًا) فى ذيل أمالى القالى ص ١٠ — ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ (أو ص ٨ — ١٢ من طبعة ١٣٤٤) واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الأبيات مروية فى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ (فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab* (*Islamica*, II, 1926, P. 344-354).

مرو هو مرو الشاهجان — أما البيت الثانى فهو الشاهد فى تذكير المؤنث.

(٣) راجع فى كتاب الأغانى ج ١١ ص ١٦٥ — ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ ما قاله يهجو بنى يشكر وفى ج ١٣ ص ٥٨ — ٥٩ ما قاله يهجو كعباً الأشقرى.

فى هذا النوع السادس . إنّ الناس أحبّوا فى كلّ وقت تخليد ذكر مآثر آبائهم والافتخار بها فنعم هذا الافتخار إن لم يُفْسِدْهُ التعصّب المُفْرِط المُنْكَر لأنه إذا لم يعدِل عن سبيل الإنصاف أصبح حثًّا نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتحريضاً شديدًا على طلب المعالى وصوْنِ ما يجب على كلّ أمّة إيراثَه الخلفَ من مجد السلف وعلوّ شأنهم فى الاجتماع البشرىّ . ولا أحتاج إلى وصف قدر اهتمام الغرب بإبقاء ذكر أفعالهم ومفاخرهم التى ملؤوا من تَذْكارها دواوين أشعارهم . فلمّا خرجوا عن جزيرتهم وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التى تغلّبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرَفاً ومجْدًا . أما هذه الأمم المتقدمة فى سير التمدّن من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء وما لهم من الآثار المُعْجِبة فإلى ذلك أشار جرير بقوله[1] :

إذا افتخروا عدُّوا الصُّبَهْبَذَ منهمُ وكِسْرَى وآلَ الهُرْمُزان وقَيْصَرَا

ترى منهمُ مستبصرين على الهدى وذا التاج يُضْحِى مَرْزُباناً مسوَّرا

أغرَّ شبيهاً بالفَنِيق إذا ارتدى على القُبْطُرِىّ الفارسىّ المزرَّرا

وكان كتابٌ فيهمُ ونبوّةٌ وكانوا بإصْطَخْرَ الملوكَ وتُسْتَرا

لقد جاهد الوضّاحُ بالحقّ مُعْلِماً فأورث مجدًا باقياً أهل بَرْبَرَا

فنشأ نوع من الشعر فى مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل فى هذا الصنف السادس المُفْرَد لشعر الأحزاب السياسية والاختلافات الدينية . ولعلّ أوّلَ الفُرْس الذى نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المدلول عليه المسمّى عند كَتَبَة القرن الثالث والرابع بالشعوبيّة هو إسماعيل بن يسار

---

(١) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

النِّسائيّ الذى روى صاحب كتاب الأغانى[١] بعض أخباره فقال إنه «مولى بنى تَيْم بن مُرّة تيم قريش وكان منقطعاً إلى آل الزُّبير فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه[٢] مع عُرْوة بن الزُّبَيْر ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده وعاش عُمْرًا طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية ولم يدرك الدولة العباسية وكان طيّباً مليحاً مندّرًا [٣] بطّالاً مليح الشعر وكان كالمنقطع إلى عُرْوة بن الزُّبير . وإنما سُمّى إسماعيلُ بن يسار النِّسائيّ لأنّ أباه كان يصنع طعام العُرْس ويبيعه فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجمّلين وممن لم تبلُغْ حالُهُ اصطناع ذلك»[٤] . ومما وصل إلينا من أشعاره يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغَزَل اللطيف الغالب عند شعراء مدن الحجاز فى ذلك العصر . أما الذى يُهمُّنى فى هذا المقام والذى أُحِبُّ أن تتأمّلوه فإنّ إسماعيل بن يسار كان «شُعوبيًّا شديد التعصُّب للعجم وله شعر كثير يفخَر فيه بالأعاجم»[٥] فى قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال[٦] :

رُبَّ خال متوَّج لى وعمٍّ ماجدٍ مُجتَدًى كريم النِّصابِ

---

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٧ ولا يذكر فى كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٢٦٦ من طبعة ليدن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق) إلا اسمه فراجع أيضاً J. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة بولاق) أى بعد سنة ٧٣/٢٩٦ .

(٣) [كذا فى طبعة بولاق وفى طبعة دار الكتب المصرية : « مندرا » وفى الحاشية : « مندرا يأتى بالنوادر من قول أو فعل . وبطال كثير الهزل والمزاح »] .

(٤) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سمى إسماعيل بن يسار النسائى لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التى تتخذ للعرائس » .

(٥) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٠ — اجتدى سأله حاجة أو طلب جدواه — نصاب أول كل شىء ، الأصل — ضاهى شاكله وشابهه — حقب وجمعه أحقاب الدهر — دس الشىء تحت التراب وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحته وأخفاه — أما اشتقاق نوارس فراجع ما قاله ابن بدرون فى شرحه على قصيدة ابن عبدون ص ٨ من طبعة ليدن ١٨٤٦ .

إنّما سُمّىَ الفوارسُ بالفُرْ   س مضاهاةَ رِفعةِ الأنسابِ

فاتركى الفَخْرَ يا أُمَامَ علينا   واتركى الجوْر وانطقى بالصواب

واسألى إن جهلْتِ عنّى وعنكم   كيف كنّا فى سالف الأحقاب

إذ نربّى بناتِنا وتدُسّو   ن سَفاهاً بناتِكمْ فى التراب

وجسَر يوماً بالرُّصافة على إنشاد قصيدة بحضور هشام بن عبد الملك قال فيها[1]:

إنّى وجَدِّكِ ما عُودى بذى خَوَرٍ   عند الحِفاظ ولا حَوْضى بمهدوم

أصْلى كريمٌ ومجدى لا يُقاس به   ولى لسانٌ كحَدِّ السيف مسموم

أحْمى به مجْدَ أقوامٍ ذوى حَسَبٍ   من كلِّ قَرْمٍ بتاج المُلْك معموم

جحاجحَ سادةٍ بُلْجٍ مَرازِبةٍ   جُرْدٍ عتاقٍ مساميحَ مطاعيمِ

مَنْ مثل كِسْرَى وسابور الجنود معاً   والهُرْمُـزان لِفخْرٍ أو لتعظيمِ

أُسْدُ الكتائب يوم الروع إن زحَفوا   وهمْ أذلّوا ملوكَ الترك والروم

يمشون فى حَلَقِ الماذىّ سابغةٍ   مشْىَ الضراغمةِ الأُسْد اللهاميمِ

هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأنَّ لنا   جُرثومةً قهرَت عزَّ الجراثيمَ

ويروى أنّ هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضب وأمر بدفع

---

[1] كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق — خور ضعف — قرم: الفحل أوما لم يمسه حبل ولم يحمل عليه وترك للفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفحل — جحجح السيد المسارع فى المكارم — أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج — الأجرد الذى له جرد يعنى قصر شعر الجلد فى الفرس وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل — العتاق (جمع عتيق) من الخيل : النجائب — مسماح (وجمعه مساميح) ذو جواد وذو سماحة — مطعام (وجمعه مطاعيم) كثير الأضياف والقرى — ملك كسرى الأول أنو شروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١ وسابور الثانى ذو الأكتاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٣ — ٣٨٨ . — زحف مشى — الحلقة (وجمعه حلق) كل شىء استدار والحلقة الدرع خاصة — (درع) سابغة تامة طويلة — لهميم (جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس — جرثومة أصل .

إسماعيل فى بركة كانت أمامهما فى القصر ففعلوا وغطوه فى الماء حتى كادت نفسه تخرُج ثمّ أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الحجاز .

فلعلّ إسماعيل بن يسار كان أوّلَ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلًى بالعصبيّة للعجم والفخر بهم فحذا حَذْوَ أبيه فى إظهار تعصّبهِ فى الشعر[1] . وذلك دلالة على تقرّب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذى غلبت فيه العجم على العرب فى أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصّب وبُغْض وخلافات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغى لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : «إنَّمَا المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ[2]» .

ليس مجهولاً لكم أنّ أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكلّ رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربىّ وفارسىّ وزِنجىّ وبربرىّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوى كلّ المؤمنين . فلما هرب عِمْران بن حِطّان الخارجىّ المذكور سابقاً (ص ٢٣٦) من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمَثْوَى ونزل مدّة عند رَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ ثمّ بزُفَر بن الحارث الكِلابىّ ثمّ عند قوم من الأزد قال فى نزوله بهم[3] :

تَزَلْنا بِحَمْدِ اللهِ فى خَيْرِ مَنْزِلٍ   نُسَرُّ بما فيهِ من الأُنْسِ والخَفَرْ

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٦ سطر ٢٣ من طبعة بولاق .

(٢) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) : ١٠ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٥٣٣ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (وفيه شرح الأبيات) وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٥٤ .

نَزَلْنَا بقَوْمٍ يَجْمَعُ اللهُ شَمْلَهم ... وليس لهم عُودٌ سِوى المَجْدِ يُعْتَصَرْ

من الأَزْد إنَّ الأَزْدَ أَكْرَمُ مَعْشَرٍ ... يمانيَّةٍ طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ

فأصبحتُ فيهم آمِنًا لا كَمَعْشَرٍ ... أَتَوْنى فقالوا من رَبيعةَ أو مُضَرْ

أم الحىُّ قحطانٍ فتِلْكُم سَفاهةٌ ... كَمَا قال لى رَوْحٌ وصاحِبُهُ زُفَرْ

وما منهما إلا يُسَرُّ بِنِسْبَةٍ ... تُقَرِّبُنى منهُ وإن كان ذا نَفَرْ

فنَحنُ بَنُو الإسلام واللهُ واحِدٌ ... وأَوْلى عِبادِ الله بالله مَنْ شَكَرْ

ولكن إياكم أن تغترّوا بهذا القول المعبِّر عن شُكْر الشاعر لمن ألجأه وأثواه هارباً خائفاً فقيرًا لا غير . فقد سبق (ص ٢٣٦) أنَّ عِمران بن حِطَّان كان من الشعراء المعرِّضين حزبهم على قتال غيرهم وقد تقدّم أنَّ الخوارج قالوا بكُفْر جميع من لم يتّبع مذهبهم وكانوا أشدَّ الناس تعصُّبًا حتى تفرّقوا أنفسهم عدّة فِرَق مُبْغِضين بعضها بعضاً على قلّتها. والحقيقة أنَّهم محَوْا التعصُّب القومىَّ المألوف للأعراب من قديم الزمان وبدّلوه بتعصُّب مذهبىٍّ أشدَّ من القومىّ حِدّةً معادلٍ له سعةً لأنَّ عدد أصحاب فرقة من فرقهم لم يتجاوزْ فى الغالب عدد أبناء قوم من أقوام الأعراب ــ أما الذى لمَّحْتُ إليه إنما هو مثل قول الصَّلَتان العَبْدىّ معاصر الفرزدق وجرير [1] :

أَرى أُمَّــةً شهرت سيفها ... وقد زِيدَ فى سَوْطِها الأَصبحى

بنجْــدِيّة وحَــرُورِيّةٍ ... وأَزْرَقَ يَدْعُو إلى أَزْرَقى

فمِلَّتُنا أَنَّنَــا المسلمون ... على دين صدّيقنا والنبى

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ — أما الأصبحى فقال المبرد : « تسمى هذه السياط التى يعاقب بها السلطان الأصبحية وتنسب إلى ذى أصبح الحميرى . . . وهو أول من اتخذها » [ومن الممكن أن الشاعر يشير إلى اليمنيين الذين نالوا الحظوة عند بنى أمية] . — أما النجدية فقال المبرد : « تنسب إلى نجدة بن عويمر . . . كان رأساً ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج » — الحرورية من الخوارج أيضاً — وأزرق يدعو إلى أزرقى فقال يعنى من كان من أصحاب نافع بن الأزرق .

أو مثل قول نَهار بن تَوْسِعة شاعرِ بنى بكر بن وائل بخراسان فى أيام قتيبة بن مسلم[1] :

أبِى الإسلامُ لا أبَ لى سِواه إذا هتفوا ببَكْرٍ أو تميم
دَعِىٌّ القوم ينصُرُ مُدَّعِيهِ فيُلْحِقه بذى النَّسَب الصميم
وما كَرَمٌ ولو شَرُفَتْ جُدودٌ ولكنّ التَّقِىَّ هو الكريمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جدًّا عند شعراء عهد الأمويّين.

٧ـ فلنشرع فى بيان الصنف السابع من الشعر فى أيام بنى أمية وهو شعر أهل الحضر فى مدن العراق والشام .

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة ١٧/٦٣٨ تقريباً فى خلافة عمر بن الخطّاب . فكان لهذا الخليفة الأجلّ الماهر بأمور السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين[2] أعنى نقصانَ شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لئلّا تفوق العجمُ العرب قدرةً وتأثيرًا وجعْلَ مقامات للأعراب المفتتحين فى أطراف البادية متوسطةٍ بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنيّة شيئاً فشيئاً وتزالَ رَغْبَتُهم فى الرجوع إلى براريهم وكراهتُهم للاستقرار فى المدن كما تقدّم بيان ذلك فى أحد الأبواب الماضية (ص ١٤٣) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً لا سيّما لما نقل علىّ ابن أبى طالب دار الخلافة إليها سنة ٣٦/٦٥٧ فأضحتْ مدّة أربعة أعوام قاعدة المُلْك للمَنقطعين إلى شيعة علىّ . ثمّ فى أيام الدولة الأموية لم تزل عامرة

---

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن والكامل للمبرد ص ٥٣٨ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثانى فقط) والبيت الأول مروى أيضاً فى الفصل الحادى والمائة من كتاب المفصل للزمخشرى (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .

(٢) راجع أيضاً : L. CAETANI, *Annali dell' Islâm*, vol. III, P. 774-776; 833-845

زاهرة فى غاية النّضارة[1] بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً لم ينقُص نَفاقُه عن دَرٍّ مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمًّا غفيرًا وإن كانت سكناهم الاعتيادية فى أنحاء بعيدة عنها . كيف لا وأغلب وُلاتها مائلون إلى سماع الشعر مُنْعِمون على الشعراء الصِّلاتِ الجزيلةَ محبّون للأُنس والاجتماع والسمر مثل بِشْر بن مروان الذى يروى فيه أنَّ أَيْمَن بن خُرَيْم الشاعر لما أتاه «نظر الناس يدخلون عليه أفواجاً فقال من يُؤْذِن لنا الأميرَ أو يستأذن لنا عليه ؟ فقيل له ليس على الأمير حِجَاب ولا سِتْر فدخل وهو يقول[2] :

يُرَى بارزًا للناس بِشْرٌ كأنّه إذا لاحَ فى أثوابهِ قَمَرٌ بدْرُ

ولو شاء بشرٌ أغْلَقَ الباب دونه طَماطِمُ سُودٌ أو صقالبةٌ شُقْرُ

أَبَى ذا ولكن سهّل الإذْنَ للتى يكون له فى غِبِّها الحمدُ والشُّكْرُ

فضحِك إليه بشر وقال : إنّا قوم نحجُب الحُرَم وأما الأموال والطعام فلا » . ثمّ تأمّلوا أمرًا آخر وهو أنَّ دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلُها وأهل جميع الشام كثيرو التعصّب للأمويين بل أشدُّ أركانهم حتى إن لفظ الشامىّ اسْتُعْمِلَ أحياناً بمعنى المنقطع إلى بنى أميّة[3] فربّما من لم يمِلْ من الشعراء إلى الدولة الأموية كرِه دخول الشام خوفاً من عداوة أهلها أو من أن يُتَّهَم بخيانة حزبه . أمّا العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجّاج ابن يوسف كانت رعاية الأمويين فيها أخفَّ منها بالشام فصارت البصرة والكوفة مَقْصِد ناس من كلّ شيعة وحزب ومذهب فنزل فيها بدون عائق ومانع مَنْ لعلّ صعُب عليه قدومُ الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما

(١) أما رفاهة العيش فى الكوفة والحيرة فى عصر بنى أمية فانظر ما قيل مثلا فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويريد « الشامى الأخطل » بهذا المعنى فى قصيدة للفرزدق فانظر النقائض ص ٢٠٢ عدد ٣٩ بيت ٦٢ من طبعة ليدن [وديوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

تقدّم وفدوا الكوفة مرارًا أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجرير وذو الرمّة والراعى وعبد الله بن الزّبير وأعشى بنى ربيعة من مُدّاح الخلفاء والأمراء الأمويّين وكثيّر والكميْت من أهل الشيعة والطِّرِماح من الخوارج وهلمّ جرًّا . فإذًا لا غرو أن تكون للكوفيين منزلة خاصّة فى تاريخ الشعر العربىّ فى أيّام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياسىّ المتقدّم بيانه والمراثى فثلاثة : الخمريّات والغزل والمديح . وجميع ذلك متّصل بأنواع الشعر العربىّ الجاهلىّ فى أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أُسّست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أى ستّة كيلومترات تقريباً من الحيرة فلا شكّ أنّ جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوها للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلامىّ وتأسيس الكوفة معروفة فلا أحد يجهل أنّها كانت قاعدة مُلْك اللّخْميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ مُعظم سكّانها نصارى معروفون بالعِبَاد اشتهروا عند عرب البادية فى الجاهليّة لبيع الخمر . ونبغت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمّارات التى كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغانى القينات . فخمريات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عدىّ بن زيد والأعشى وطرفة والنابغة الذبيانىّ أشهر من أن أحتاج إلى الإطناب فى الكلام عليها . فإن تأمّلتم هذا وتأثيرَ أهل الحيرة وعاداتهم فى العرب الذين عمروا الكوفة واختلاطَ المسلمين بأصحاب ديانات شتّى فى العراق ثمّ إن تذكّرتم ما تقدّم بيانه من تمسّك الأعراب بعاداتهم

القديمة وكراهتهم لبعض الأحكام الإسلاميّة ما استغربتم وفرة الأشعار فى وصف الخمر ومدحه عند من نسج القريض فى الكوفة والبصرة فى أيّام بنى أميّة . وزيدوا على ذلك كلّه حبَّ شعراء العرب لاحتذاء مثال المتقدّمين والاقتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فكما تجدون حتّى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم المعشوقة ويشكون مشاقَّ قطع الفيافى التى لم يَرَوْها أبدًا ولا من بعيد كذلك ليس من المحال أنّ بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذّاتها بدون أن ذاقوا منها قَطْرة كأنَّ غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية لا التعبير عما فى قلوبهم حقيقةً .

وعلى كل حال لم يزل خمّارو الحميرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثانى أو بعدها بقليل كما يُستنتج ممًّا رواه صاحب كتاب الأغانى فى ترجمة بكر ابن خارجة شاعر من أهل الكوفة مُغْرَم بشرب الخمر . قال [1] : «حرّم بعضُ الأمراء بالكوفة بيْعَ الخمر على خمارى الحيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة فى الرحاب والطرق فبكى طويلًا وقال :

يا لقومى لِما جَنى السُّلطانُ	لا يكونَنْ لِما أهان الهوانُ
قهوة فى التراب من حَلَب الكَرْ	م عُقَـارًا كأنّه الزعفرانُ
قهوة فى مكان سوء لقد صا	دف سعدَ السعود ذاك المكانُ
من كُميتٍ بدا المزاجُ لها لؤ	لؤُ نظمٍ والفصّل منها جُمانُ
... كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ	ـبر عن بعض نفسه الإنسانُ

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين فى العراق فى القرن الأوّل غير نادرة منها ما يروى فى كتاب سيرة الرسول لابن هشام

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ . العقار : الخمر . جمان : اللؤلؤ الواحدة .

أن النّعمان بن عديّ[1] بعد ما استعمله عمر بن الخطّاب على ميْسان موضع من أرض البصرة قال :

ألا هل أتَى الحسْناء أنّ حَلِيلَها … بمَيْسانَ يُسْقَى فى زجاج وحنْتَم
إذا شِئتُ غنّتْنى دَهاقينُ قَرْية … ورُقّاصةٌ تجدوا على كل مَنْسَم
فإن كنتَ نَدْمانى فبالأكْبَرِ اسْقِنى … ولا تَسْقِنى بالأصغر المُتَثَلّم
لعلّ أمير المؤمنين يسُــوءُه … تَنادُمُنا فى الجَوْسَقِ المُتَهَدّم

فلمّا بلغت عمرَ هذه الأبيات عزله . فنذكر عن قريب أمثلة أخرى متعددة من حُب الخمر فى العراق فى عهد بنى أميّة .

أمّا الغَزَل فهو عند أهل الحضر المُتْرَفين كالنسيب عند أهل البادية فقد أحسن ابن رشيق القَيْرَوانىّ فى وصف الفرق بينهما حيث قال[2] :

«ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقّع البَيْن والإشفاقِ منه وصفةِ الطلول والحُمول والتشوّقِ بحنين الإبل ولَمْع البُروق ومرّ النسيم وذكرِ المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يَحِلّون بها من خُزامى وأُقْحُوان وبَهار وحَنْوةٍ وظَيّانٍ وعَرار وما أشبهها من زَهْر البرية الذى تعرفه العرب وتُنبتُه الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابُهم ولا يعْدون النساء إذا تغزّلوا ونسبوا فإن وقع مثل قول طرفة[3] :

وفى الحى أحْوَى ينفُضُ المَرْدَ شادِنٌ … مُظاهِرُ سِمْطَىْ لؤلؤٍ وزبرجدِ

(١) سيرة الرسول ص ٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ — ١٩٥٩ ويروى البيت الأول والرابع فى معجم ما استعجم للبكرى ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول فى لسان العرب ج ١٥ ص ٥١ — حنتم الجرة الخضراء — الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضاً من مصانع الفرس بالكوفة (راجع معجم البكرى ص ٢٥٧) .

(٢) كتاب العمدة ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٣) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

فإنّما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزّلهم فى ذكر الصدود والهِجْران والواشين والرُّقَباء ومَنَعَة الحَرَس والأبواب وفى ذكر الشراب والندامى والوَرْد والنَّسْرين والنَّيْلوفَر وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانيّة وفى تشبيه التّفاح والتحيّة به ودسّ الكتب وما شاكل ذلك ممّا هم به منفردون » .

أمّا المديح فسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح .

ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغُدانى[1] من فُرْسان بنى تميم ووجوههم حسب صاحب الأغانى على وجه التخمين أنّه قد أدرك النبى فى صباه وحداثته وكان له حظّ عظيم عند زياد بن أبى سفيان الذى لم يزل طول عمره مُكرِماً له « قابلاً لرأيه محتملاً لما يعلَمه من تناوُله الشراب »[2] وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من سنة ٦٠/٦٨٠ إلى سنة ٦٦/٦٨٦ حتى استعمل مدّة على نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريّات منها[3] .

أَذْهَبَ عَنّى الغَمَّ والهَمَّ والذى ... به تَطْرُقُ الأحداثُ شُرْبُ المُرَوَّقِ
فوالله ما أنْفَكُّ بالراح مهتزّاً ... ولو لامَ فيها كلُّ حُرٍّ موفَّقِ
فما لائمى فيها وإن كان ناصحاً ... بأَعْلَمَ منى بالرحيق المعتَّقِ
ولكنَّ قلبى مُستهامٌ بحُبِّها ... وحُبِّ القِيانِ رأىَ كلِّ محمَّقِ
أُحِبُّ التى لا أمْلِكُ الدَّهْرَ بُغْضَها ... وذلك فِعْلٌ مُعْجِبٌ كلَّ أخْرَقِ
سَأَشْرَبُها صِرْفاً وَأَسْقِى صَحابَتى ... وأَطلُبُ غِرّاتِ الغَزال المنطَّقِ

(١) وهو المذكور فى كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٠ — ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وفيه اسم الشاعر حارثة بن زيد) و ٣١٣ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضاً ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٤١ . وفى الشطر الثانى من البيت الخامس اقرأ : « وذلك فعلٌ معجبٌ كلَّ أخرق » بدلا من « وذلك فعلُ معجبِ كلِّ أخرق » كما فى الطبع .

فذمّه أنس بن زُنَيْم الليثيّ ووعظه قائلا [١] :

أحارِ بنَ بدرٍ باكِرِ الراحَ إنَّها ... تُنَسِّيك ما قَدَّمْتَ فى سالِفِ الدَّهْر

تُنَسِّيك أسباباً عِظاماً ركبتَها ... وأنت على عَمياء فى سَنَنٍ تَجْرِى

... فَدَعْ عنكَ شرْبَ الخمرِ وارجعْ إلى التى ... بها يَرْتَضِى أَهلُ النَّباهةِ والذِّكْرِ

عليكَ نبيذُ التَّمْرِ إن كنتَ شارباً ... فإنَّ نبيذ التمر خيرٌ من الخَمْر

ألا إنَّ شُرْبَ الخمر يُزْرِى بذى الحِجَى ... ويَذْهَبُ بالمالِ التلادِ وبالوَفْر

فصَبْرًا عن الصهباء واعلمْ بأنَّنى ... نصيحٌ وأنِّى قد كَبِرْتُ على الزَّجْرِ

ولكن لم تنفعْه المواعظ والنصائح .

ومن الشعراء الكوفيّين الذين كانوا فى أواخر القرن الأَوّل وأوائل الثانى عمار بن عمرو الملقّب بذى كِناز [٢] قال فيه صاحب الأغانى ما نصّه : « كان ليِّن الشعر ماجناً خِمِّيرًا معاقرًا للشراب وقد حُدَّ فيه مرّات وكان يقول شعرًا ظريفاً يُضْحِك من أكثره شديدَ التهافت جَمَّ السُّخْف .. وكان هو وحماد الراوية ومُطيع بن إياس يتنادَمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون وكلّهم كان متَّهَمًا بالزندقة ، وعمّار ممّن نشأ فى دولة بنى أميّة ولم أسمع له بخبر فى الدولة العبّاسية » . ومن الجدير بالذكر أنّ شعر عمّار ذى كناز أو ما وصل إلينا منه كلّه منسوج فى الأعاريض القصيرة دائر على المِزاح والخمر والغزَل ومثاله [٣] :

شَجَا قلبى غزالٌ ذو دلال واضح السُّنَّهْ

أسيلُ الخد مربوب وفى مَنْطِقه غُنَّه

ألا إنَّ الغوانى قد برَى جسمى هَوَاهُنَّه

(١) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٣٣ .

(٢) توجد ترجمته فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٤ — ١٨٠ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٩ .

وقالوا شَفَّك الحورُ هَوًى قلت لهم إنّهْ
ولكنى على ذاك معـنّى بأذاكُنّـهْ
أراح الله عمّـارًا من الدنيا ومنهنّه
بعيـدات قريبـات فلا كان ولا كُنّه
فقد أذهل منى العقـ لَ والقلبَ شجاهُنّه
يُمَنِّينَ الأباطيـلَ ويجحَدْن الذى قُلْنَهْ

ومن هولاء الشعراء حُنَيْن بن بلوع الحيرى[1] « كان شاعرًا مغنّيًا فحلا من فحول المغنّين وله صنعة فاضلة متقدّمة وكان يسكن الحيرة ويكرى الجمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانيًا وهو القائل يصف الحيرة ومنزله بها : (من المنسرح)

أنا حُنَيْنٌ ومنزلى النَّجَفُ وما نديمى إلّا الفتى القَصِفُ
أَقْرَعُ بالكأس ثَغر باطية مُتْرَعَة تارةً وأغترفُ
من قهوة باكَرَ التِّجارُ بها بيتَ يهودٍ قرارُها الخَزَفُ
والعيشُ غَضٌ ومنزلى خَصِبٌ لم تُغْلِنى شَقْوةٌ ولا عَنَفُ »[2]

وكان من معاصرى هشام بن عبد الملك وبشر بنُ مروان وخالد القَسْرىّ. وفى ترجمته فى كتاب الأغانى تجدون عدّة أخبار دالّة على رغد العيش والرفاهية بمدينتى الحيرة والكوفة بعد منتصف القرن الأوّل .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب فى أشعارهم ذكر الشراب والمزاح والمجون

(١) راجع كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ – ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر غير مذكور فى خزانة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام ولا فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى . أما اسم أبيه فهو فى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٣٤١) بفتح الباء وسكون اللام وفتح الواو] .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

الأُقَيْشِر الأَسَدىّ [1] الذى ابتدأ يقول الشعر فى أيام الخلفاء الراشدين ومات فى حدود الثمانين تقريباً [2] وهو الذى يقول لنفسه [3] :

فإنَّ أبا معْرِض إذْ حَسَا ... من الراح كأْساً على المِنْبَرِ
خطيبٌ لبيبٌ أبو مُعْرِضٍ ... فإنْ لِيمَ فى الخمرِ لم يَصْبِرِ
أحلَّ الحرامَ أبو مُعرِض ... فصار خليعاً على المَكْبِرِ
يُجِلُّ اللِّئَامَ ويَلْحَى الكِرامْ ... وإنْ أقصروا عنه لم يُقْصِرِ

فقيل إنّه كان لا يسأل أحدًا أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين فى كِراء بغل إلى الحيرة ودرهمَيْن للشراب ودرهماً للطعام [4] ، وحكاياتُهُ مع أهل الشُّرْطة معروفة [5]. وإليه ينسب ابن قُتَيْبة هذه الأبيات [6] :

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٤ — ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٥٢ — ٣٥٤ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٢ . وتروى له ثلاثة أبيات فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٨١١ — ٨١٢ من طبعة بن أو ج ٤ ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف فى اسمه وقيل فى كتاب الأغانى وخزانة الأدب وكتاب المقاصد النحوية للعينى (ج ٣ ص ٥٠٨ و ج ٤ ص ٥١٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكرى (ص ٣٨ — ٣٩ من طبعة مصر ١٣٤٤)] إنه المغيرة بن عبد الله بن معرض فقال ابن قتيبة إنه المغيرة بن الأسود بن وهب وقال العينى (ج ١ ص ٣٧٧) إنه المغيرة بن أسود بن عبد الله بن معرض [وقال الآمدى فى المؤتلف والمختلف (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله من بنى معرض بن عمر بن أسد وقال المرزبانى فى معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله بن أسود بن وهب من بنى ناعج بن عمرو بن أسد وقيل من بنى معرض بن عمرو بن أسد أما اسم معرض فضبط فى طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكرى بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرض كنية الشاعر وهى مذكورة فى ثلاثة أبيات له (وسيأتى ذكرها) فالقراءة « معرّض » بتشديد الراء غير ممكنة فيها لأجل الوزن فذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) علمى معرض (بسكون العين) ومعرّض (بتشديد الراء)] .

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ مدح بشر بن مروان وهو والى الكوفة من سنة ٧١/٦٩٠ إلى ٧٤/٦٩٤ (انظر كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق) .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٥ .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٦) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة ليدن وفيه لا يروى البيت الثانى فأخذته من كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليبسك .

وصَهْباءَ جُرْجانيّةٍ لم يطُفْ بها حنيفٌ ولم تَنْغَرْ بها ساعةً قِدْرُ
ولم يَشْهَدِ القَسُّ المهيْنِمُ نارَها طروقاً ولا صلّى على طبْخِها حبْرُ
أتانى بها يَحَيى وقد نِمْتُ نَوْمةً وقد غابت الشِّعْرَى وقد خَفَقَ النَّسْرُ
فقُلْتُ اصْطَبِحْها أو لغيرى فأَهْدِها فما أنا بعْدَ الشَّيْبِ ويْحَكَ والخَمْرُ
إذا المَرْءُ وَفَّى الأربعين ولم يكنْ له دون ما يأتى حَياءٌ ولا سِتْرُ
فدَعْهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذى أتَى وإنْ جَرَّ أرْسَانَ الحياةِ له الدَّهْرُ

أما صاحب كتاب الأغانى[١] فينسبها إلى شاعر كوفىّ آخر وهو أيْمَن ابن خُرَيْم الأسدىّ[٢] من الشعراء المتغزّلين والمادحين لعبد العزيز وبِشْر ابنَىْ مروان. وأيمن هذا مع تغزّله ومدحه لأمراء من بنى أميّة كان يتشيّع فى أيام عبد الملك بن مروان ($\frac{٦٥}{٦٨٥}$ – $\frac{٨٦}{٧٠٥}$) نسج فى مديح بنى هاشم قصيدة رائقة منها[٣]:

نهارُكُمْ مُكابَدَةٌ وصَوْمٌ ولَيْلُكُمُ صَلاةٌ واقتراءُ
وَلِيتُمْ بالقُرانِ وبالتَّزَكّى فأسْرَع فيكمُ ذاك البَلاءُ
بكى نَجْدٌ غداةَ غدٍ عليكُمْ ومكّةُ والمدينةُ والجِواءُ
وحُقّ لكلّ أرضٍ فارَقوها عليكم لا أبا لكُمُ البُكاءُ
أأجْعَلُكم وأقْواماً سَواءً وبَيْنكُمْ وبينهمُ الهواءُ
وهُمْ أرضٌ لأرْجُلِكم وأنتُمْ لأرْؤُسِهم وأعْيُنِهِم سَماءُ

ومثل هذا الكلام التقىّ غريب جداً عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيّين .

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٧ — ١٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٥ — ٣٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٠ . — والجواء جبل بينه وبين الربذة ثمانية فراسخ (معجم البكرى ص ٣٥٥) .

ومنهم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريّ[١] كانت آباؤه من سادة غَطَفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة فتزوّج الحجّاج بن يوسف أخته هِنْدًا . ولمالك أشعار فى الخمر تُشْبِه خمريّاتِ شعراء بغداد فى عهد بنى العبّاس منها[٢] :

حَبّذا لَيْلتِى بتَلّ بُوَنّا إذْ نُسَقّى شرابنَا ونُغَنّى
من شراب كأنّه دَمُ جَوفٍ يترُكُ الشيْخَ والفتى مُرْجَحِنّا
حيث دارتْ بنا الزُّجاجةُ دُرْنَا يحسِب الجاهلون أنّا جُنِنّا
ومررنا بنِسْوةٍ عَطِراتٍ وَسماعٍ وقَرْقَفٍ فنَزَلْنا

وله أشعار ظريفة أيضًا من نوع الغزل وروى البُحْتُرِىّ[٣] له أبياتا فى ذهاب الشّباب وابتداء الشيْب .

ومنهم إسماعيل بن عمّار بن عُيَيْنة[٤] الذى أدرك أوائل الدولة العبّاسيّة وقال الشعر فى الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لِقيّان بن رامين بالكوفة .

ومنهم الحَكَم بن عَبْدَل الأسدىّ الأعرج[٥] منزله ومنشؤه بالكوفة إلّا أنّه انتقل إلى الشام لمّا بويع لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٤/٦٨٤ فكان من

---

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤١ — ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ — ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروى له بيتان فى خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليبسك وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف فى الرواية .

(٣) حماسة البحترى ص ٢٨٧ — ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ — ١٩٨ عدد ١٠٣٨ و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « المرادى » بدلا من « الفزارى ») .

(٤) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٣٥ — ١٤٢ وليس بمذكور فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى خزانة الأدب [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٥) راجع كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٤٩ — ١٥٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ٤ ص٩٥ [والمؤتلف للآمدى ص١٦١] وأبيات له مروية فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧ و ١١٨ — ١٢٠ و ١٧١ و ج ٣ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

الداخلين إلى عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ - ٨٦/٧٠٥) السامرين عنده ثمّ رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلمّا مات بشر جزع عليه ورثاه. وكان شاعرًا مُجيدًا خبيث اللسان مُدْمِناً للخمر كالشعراء المتقدّم ذكرهم وشعره كله فى الهجاء والمجون والمديح . وكان له الشعر مَكْسَباً كما كان لسائر شعراء طبقته فقال [1] :

أطلُبُ ما يَطْلُبُ الكَرِيمُ مِن الـ ... رِّزْقِ لِنَفْسى وَأُجْمِلُ الطَّلَبَا
وَأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِىَّ وَلا ... أَجْهَدُ أَخْلافَ غَيْرِها حَلَبَا
إنى رَأَيْتُ الفَتَى الكَرِيمَ إذَا ... رَغَّبْتَـهُ فى صنيعَةٍ رَغِبا
والعبدُ لا يطلُبُ العلاءَ ولا ... يُعْطيكَ شيئًا إلا إذا رهِبا
مِثْلُ الحِمارِ المُوَقَّعِ السَوْءِ لا ... يُحْسِنُ مَشْياً إلا إذا ضُرِبا

ويروى أنّ «الشعراء اجتمعوا إلى الحجّاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجّاج إنّما شعر ابن عبدل كلّه هجاء وشعر سخيف فقال له قد سمعتَ قولهم فاستمعْ منّى قال هات» [2] فأنشده قصيدة مروّية فى كتاب أمالى القالى [3] وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقةً من الشوق إلى المكارم والمعالى منها :

وإنّى لأَسْتغْنِى فما أَبْطَرُ الغِنى ... وأَعْرِضُ مَيْسُورِى لِمَنْ يبتغى عِرْضِى
وأُعْسِرُ أحْياناً فتشْتدُّ عُسْرَتى ... فأُدْرِكُ مَيْسورَ الغِنى ومعى عِرْضِى
وما نالنى حتى تَجَلَّتْ فأَسْفَرَتْ ... أَخُوثِقَةٍ فيها بقَرْضٍ ولا فَرْضِ
ولكنَّهُ سَيْبُ الإلٰه وحِرْفَتى ... وشَدِّى حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالغَرْضِ

(١) حماسة أبى تمام ص ٥٣٥ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب الأمالى القالى (المتوفى سنة ٣٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

لأُكْرِمَ نَفْسى أَنْ أَرَى متَخَشِّعًا   لِذى مِنَّةٍ يُعْطِى القَليلَ على النَّحْضِ

وآخرها :

ولستُ بذى وجهَيْن فيمن عرفْتــه   ولا البُخْلُ فاعْلَمْ مِنْ سمائِى ولا أَرْضى

إنَّ كلَّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيّين يليق به أن يوصَف بهذا القول : «شاعر خليع ماجن منهمك فى شرْب الخمر» فنذكر الآن من كان عن الخمر عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله اللَّيْثىّ[1] من أهل الكوفة الذى كان فى عصر معاوية ($\frac{٤١}{٦٦١}$ – $\frac{٦٠}{٦٨٠}$) وابنهِ يزيد ($\frac{٦٠}{٦٨٠}$ – $\frac{٦٤}{٦٨٣}$) فصاغ فى مدحهما عدّة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضاً عمّن هجاه ولم يفعل ذلك إلا كارهاً كما يظهر من قوله [2] :

ندِمْتُ على شَتْمِى العشيرة بَعْدَ ما   تَغَنّى بها عُودٌ وجَنٌّ يَمانِى

قلَبْتُ لهمْ ظَهْرَ المِجَنِّ وليْتَنى   رجعتُ بفضْلٍ من يدى ولسانى

على أنَّنى لم أرْمِ فى الشعر مُسْلِمًا   ولم أَهْجُ إلّا من روى وهجانى

ومثل هذا الكلام لعمرى نادر فى ذلك العصر . وممّا يدلّ أيضاً على رقّة عواطفهِ الشعر اللطيف الذى قاله فى امرأته أمّ بكر وصف فيه قدر هواه لها[3] وله أبيات فى الحِكَم منها[4] :

---

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١١ ص ٣٩ – ٤٤ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٦١٧ – ٦١٨ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢ – ١٤٣ ومعجم المرزبانى ص ١٠٩ – ١١٠] وحماسة أبى تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠ و ١٤٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ج ١٧٤ و ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ١١٧ و ٢٣٨ عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

(٢) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٤٢ وراجع حماسة البحترى ص ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

وقلب له ظهر المجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٣) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٤) حماسة أبى تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن أو ج ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

لَسْنَا وإنْ أحْسابُنا كَرُمَتْ ... يوماً على الأَحْسَابِ نتَّكِلْ

نَبْنى كما كانت أوائلُنا ... تَبْنى ونَفْعَلُ مثلَ ما فَعَلوا

ومنها أيضاً[1] :

إنّى إذا ما الخَليلُ أحْدَثَ لى ... صُرْماً وَمَلَّ الصَّفَاءَ أوْ قَطَعا

لا أحْتَسِى ماءَهُ على رَنَقٍ ... ولا يَرانى لِبَيْنِهِ جَزِعَا

أَهْجُرُهُ ثم يَنْقَضِى غُبَّرُ الـ ... ـهِجْرَانِ عَنَّا وَلَم أقُلْ قَذَعَا

اِحْذَرْ وِصَالَ اللَّئِيمِ إنَّ لهُ ... عَضْهاً إذا حَبْلُ وَصْلِهِ انقَطَعَا

ثمّ من شعراء الكوفة المشهورين الرَّمّاد بن أبْرَد (وقيل يزيد) من بنى مرّة بن عَوْف المعروف بابن ميّادة[2] كان فى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ – ١٢٥/٧٤٣) وأدرك خلافة المنصور العباسى (١٣٦/٧٥٤ – ١٥٨/٧٧٥) . وأشعاره فى الهجاء والمديح والنسيب فقيل إنّه كان متعرّضاً للشر طالباً لمهاجاة الناس ومُسابّة الشعراء وكان مع ذلك فصيحاً يحتج أهل اللغة بشعره . ومدح بنى أُمية لا سيمّا الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ – ١٢٦/٧٤٤) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان والى المدينة . ومن شعره فى الوليد بن يزيد[3] :

هممت بقولٍ صادقٍ أن أقولَهُ ... وإنى على رَغْمِ العدو لَقائِلُهْ

رأيتُ الوليد بن اليزيدِ مباركاً ... شديدًا بأَحْناءِ الخلافة كاهِلُهْ

أضاء سراجُ المُلْكِ فوق جبينهِ ... غـداة تُناجِى بالنجاح قوابِلُهْ

---

(١) حماسة أبى تمام ص ٥٢٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ٨٨ – ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٤ – ٤٨٥ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ – ٧٨ و ٣٢٧ – ٣٢٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ من طبعة بولاق – أما البيت الثانى فهو الشاهد فى أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام – أحناء جمع حنو وهو الجانب والجهة وقيل هو هنا بمعنى السرج والقتب كنى به عن أمور الخلافة .

ومن جيّد شعره فى الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد[١] :

ألا لَيْتَ شِعْرى هل أبيتَنّ ليلةً بحرّةِ لَيْلى حيثُ رَبَّتَنى أهْلى
بلادٌ بها نيطَتْ علىَّ تمائمى وقُطِّعْنَ عنّى حين أدركنى عَقْلى
وهل أسْمَعَنَّ الدّهْرَ أصواتَ هَجْمَةٍ تَطَالَعُ من هَجْلٍ خصيب إلى هَجْلِ
فإن كنتَ عن تلك المواطن حابِسى فأَفْشِ علىَّ الرِّزْقَ واجْمَعْ إذًا شَمْلى

ومن ساكنى الكوفة أيضاً أبو كَلَدة بن عُبَيْد اليشكُرى[٢] كان أولا من أخصّ الناس بالحجّاج بن يوسف ثمّ ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديدَ التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كلدة مدّة بمدن وقرى شتى من بلاد العجم مثل سِجِسْتان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقرًا للخمر . فقال فى آخر إحدى خمريّاته[٣] :

سأركُض فى التقوى وفى العلم بعدما ركضتُ إلى أمر الغوىّ المشهّرِ
وبالله حَوْلى واحتيالى وقوّتى ومن عندهِ عرْفى الكثيرُ ومُنْكَرى

وفى نفس بلاد العجم التى أقام أبو كَلَدة بها أعنى خراسان وسجستان عاش شاعر عربىٌ مطبوع آخر لا أعرِف أهو كوفىّ الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهنْدىّ[٤] الذى مات بسجستان فى أوائل الدولة العبّاسيّة . قال فيه

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .

(٢) راجع ترجمته فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١١٠ — ١٢٠ ولم يذكر فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى خزانة الأدب [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١١٩ .

(٤) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ — ٤٣٠ من طبعة ليدن واسمه غالب بن عبد القدوس فى كتاب الأغانى وعبد المؤمن بن عبد القدوس فى كتاب الشعر .

صاحب كتاب الأغانى[1] «كان جَزْل الشعر حَسَن الألفاظ. لطيف المعانى وإنما أخمله وأمات ذكره بُعْدُه من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان وشغفُهُ بالشراب ومعاقرتُهُ إيّاه وفسْقُهُ وما كان يُتَّهَمُ به من فساد الدين واستفرغ شعرَهُ بصفة الخمر» . ومن قوله[2] :

إذا ما ألحَّ البَرْدُ فاجْعَلْ دِثارَهُ إذا التَحَفَ الأقوامُ دُكْنَ المطارِفِ
ثلاثةَ أرطالٍ نبيذًا مُعَسَّلاً تكُنْ آمِنًا منه له غَيْرَ خائفِ
فإنَّ التحاف المرء فى جَوْف بطنهِ أشدُّ وأدْفَا من جيادِ المَلاحِفِ

وهو أيضاً القائل[3] :

اجْعَلوا إن مُتُّ يوماً كَفَنى وَرَقَ الكَرْمِ وقبرى مَعْصَرَهْ
إنَّنى أرجو من الله غـدًا بَعْدَ شُرْبِ الراح حُسْنَ المَغْفِرَهْ

فلنتكلم الآن فى شعر أهل الحضر بالشام فى أيّام بنى أُميّة .

إنَّ قدر نبوغ الشعر العربىّ فى الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلاطين والأمراء وأكابر الناس إلى استماع الأشعار وأحوالُ البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق والتقلُّبات السياسية . أمّا ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنْكَر فتشهَد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نعثُر عليها فى كتب الأدب والتاريخ . فلو تأمَّلتم مثلاً حال معاوية مؤسّس الدولة الأموية لوجدتم أن والده أى أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى فى الشعر فضلا عن التجارة

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٩ وحلبة الكميت للنواجى ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩ (فى الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

والسياسة فتُرْوَى مقطعات من أشعاره فى سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغانى وغيرهما . أما هند بنت عُتْبة أم معاوية فهى أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معاظَمتُها الخنساء بمصائبها[1] . وكان معَاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محبًّا لسماع إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافيًا عن أتاه من أهل الشعر كما يتّضح أيضاً ممّا جاء فى كتاب العقد الفريد[2] من ذكر الوافدات عليه وأكثرهنّ شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهنّ . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدْرج الأبيات فى مكاتباته الرسمية ويتمثّلها فى محاورته حسبما يلوح ممّا يروى منها فى كتب الأدب والتاريخ [3]. أمّا يزيد بن معاوية فكان شاعراً[4] مولَعًا بالمنادمة على الشراب ومصاحبة الشعراء فصِلَتُهُ بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عِظَم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويّين

---

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلساء فى ديوان الخنساء ص ٥٨ — ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل فى ص ٥٨ : « وجعلت تعاظم العرب فى مصيبتها وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة . وتبكيهم (يعنى أباها وإخوتها) فى شعرها حتى عرفت العرب ذلك منها » .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ — ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia ler*, P. 255 ومحاورة معاوية فى كتاب العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ — يروى له أبيات فى الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٣٠ — ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات فى كتاب الأغانى ج ١ ص ١٠٤ و ج ٢ ص ١٣٦ و ج ٧ ص ١٧٨ و ج ١٣ ص ٦٤ و ١٥٤ و ج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ و ج ١٦ ص ٣٣ و ٨٨ وفى الباب الثانى والتسعين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ — ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان إلى « بعض شعراء الشام » فى الباب الثانى والتسعين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٥ ص ١٥٨) وديوان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ » وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منحول »
(LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia ler*, P. 419)

(وراجع أيضاً : LAMMENS, *Le Califat de Yazid ler*, Beyrouth 1921, P. 453; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur-und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, P.28-72; G.LEVI DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I*, (*Islamica*, II, 1926, p. 373-379).

وجليل خَطْبه فى قلوبهم لاسيمًا عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزةً كما كان من سليقة أغلب العرب الصميم.

ولتحبُّبهم هذا على الشعر دواعٍ أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعىّ إليه . قد تقدَّم غير مرّة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر فى سياسة العرب فى الجاهلية والقرن الأوّل للهجرة فشبَّهْنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة فى الأقطار المتكلّمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بيَّنّاه عند الكلام فى الصنف السادس من الشعر فى أيّام بنى أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غَرْوَ إذًا أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجميلة والصلات الجزيلة لينتفعوا بهم ويتّخذوهم دفاعاً عن أغراضهم بالمديح ومضادّةً للأخصام بالهجاء . فترون أحياناً واليًا من الولاة ذاهباً إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنّهم من مستعْمَليهِ ومعاونيه فى أمور ولايته . وفى الحقيقة ربّما استخدمت أربابُ الدولة الشعراء وأبياتَهُم لتغيير الرأى العامّ حسب أغراضهم الخاصّة وحمْلِ الناس على ما كانوا فى أوّل الأمر يكْرَهونه فمثال ذلك مسألة بَيْعة يزيد فى أيّام والده معاوية . لا يخفى عليكم أنّ العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بتوارث الخلافة كابرًا عن كابر لمضادّته سُنَنَهم القديمة المألوفة فى اختيار سادة أقوامهم فلمّا أراد معاوية إيثار ابنهِ بالعهد دون من سواه أظهر قوم فى المجلس شدّة كراهتهم لذلك وبعد ما غلب فى الوفد الرأى بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لا سيا فى العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء فى كتاب الأغانى ما نصّه[1] : «كان يزيد بن معاوية يُؤْثِر مسكيناً الدارىّ

(١) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٧١ .

ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البَيْعة ليزيد تهيَّب ذلك وخاف أن لا عالئه عليه الناس لحُسْن البقية فيهم وكثرة من يُرَشَّح للخلافة وبلغه فى ذلك ذَرْوُ كلام[1] بلغه كَرْهُهُ من سعيد بن العاص ومروان بن الحَكَم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكينًا أن يقول أبياتاً ويُنْشِدها معاويةَ فى مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بنى أمية فلمّا اتّفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليْهِ وأشراف الناس فى مجلسه فمثُل بين يديه وأنشأ يقول » شعرًا منه هذه الأبيات [2] :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
بنى خُلَفاء الله مهلًا فإنّما يبوّئُهـا الرحمن حيث يريدُ
إذا المنبرُ الغربىُّ خلاه ربُّهُ فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيدُ

ومن الشعراء الذين قالوا الشعر فى هذه البيعة الأخطل[3] العظيم الحظّ عند يزيد فكثرة سماع مثل تلك الأبيات كانت تؤثّر فى نفوس الناس تأثيرًا خفيًّا وتعوّدهم شيئًا فشيئًا ما كانوا يُنْكِرونه — ومن هذا الباب أيضًا ما رواه أبو زكريّاء يحيى التبريزىّ فى شرح الحماسة[4] أنَّ عبد الله بن همام السَّلُولىّ كان «مكيناً عند آل مروان وهو الذى بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية فى قوله » :

تعزَّوْا يا بنى حرب بصبْرٍ فمَنْ هذ الذى يرجو الخُلودا
خلافةُ ربّكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
تلقّفها يزيد عن أبيه فخُذْها يا معاوىَ عن يزيدا

(١) قال الميدانى فى المثل « ذرى بما عندك يا ليغاء » : « الذرو الطرف والقليل من الكلام . . . يقال سمعت ذرواً من الخبر إذا لم تستقصه » .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٧١ ، فراجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ .

(٣) ديوان الأخطل ص ٩٥ سطر ٦ .

(٤) حماسة أبى تمام ص ٥٠٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

وجاء فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ[١] أنّ عِمْران بن عِصَام العرَقى[٢] الشاعر الخطيب «هو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك فى خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة» . فإليه لمح صاحب كتاب الأغانى[٣] فى رواية أوردها بحروفها : «قال الحجّاج يوماً لأهل ـ ثقته من جلسائه : ما من أحد من بنى أمية أشدّ نَصْباً لى من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيّام إلاّ وأنا أتخوّف أن تأتينى منه قارعة فهل من رجل اتدلّونى عليه له لسان وشعر وجلَد ؟ قالوا نعم عمران بن عِصام العنزىّ فدعاه فأخلاه ثم قال له اخرج بكتابى هذا إلى أمير المؤمنين فاقدَح . فى قلبه من ابنه شيئاً فى الولاية . فقال له عمران : دُسّ أيها الأمير إلىّ دسّا . فقال له الحجّاج : إن العَوَانَ لا تعَلَّمُ الخِمْرَةَ . فخرج بكتاب الحجّاج فلمّا دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجّاج وأمر العراق فاندفع يقول :

أميرَ المومنين إليك أهْدَى ... على الشَّحَطِ التحيةَ والسلاما

أميرٌ من بنيك يكُنْ جوابى ... لهمْ أكْرومةً ولنا نظاما

فلو أن الوليد أطاع فيه ... جعلتُ له الإمامة والذِّماما »

فكفى بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحلّ إلى الشعراء .

وسبب آخر ما فى طبيعة أكثر الناس من حبّ الفخر والتقريظ والمدح فمن

---

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرق بل هى العنزى فى كتاب الأغانى (ج ١٦ ص ٦٠) . ولم يذكر الشاعر فى خزانة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى حماسى أبى تمام والبحترى [ولا فى طبقات ابن سلام ولا فى المؤتلف للآمدى . تضبط العرق بضم العين وفتح الراء فى كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٦٠ – عوان النصف فى سنها من كل شىء . قال الميدانى فى مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠) : « والخِمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس اسم الهيئة . والحال أى أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار . يضرب للرجل المجرب » .

سليقتهم أن يَصْغَوْا إلى سماع كلام يملقهم لا سيما إذا كان ذلك الكلامُ محبَّرًا شديدَ الوقوع فى القلوب لرونقه وانسجامه . وإن راجت مدائح الشعراء عاد الرواج على الممدوحين بمنفعة لا تُنْكَر فلم تفُت الجاحظ.[١] أهمية ذلك حيث قال : «ولولا أنَّ دولة بنى العباس أعجمية خرسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية وفى أجناد شامية والعرب أوعى لما تسمع وأحفظ. لما تأتى ولها الأشعار التى تُقيِّد عليها مآثرَها وتخلِّد لها محاسنها رجرت من ذلك فى إسلامها على مثل عادتها فى جاهليتها فبنت بذلك لبنى مروان شَرَفاً كثيرًا ومجدًا كبيرًا وتدبيرًا لا يُحْصَى ، ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعَهم فى أهل الشام وتدبيرَ ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى فى ذلك من فوائد الكلام وشريف المعانى ، كان فيما قال المنصور وما فعل فى أيامه وأسّس لمن بعده ما يفى بجماعة ملوك بنى مروان » . فإن تأمّلنا ذلك ما استغربنا ما يروى فى كتاب الأغانى[٢] : «أتى نُصَيْب عبدَ الله بن جعفر فحمله وأعطاه وكساه فقال له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبدَ الأسود هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود إنَّ ثناءه لأبيض وإنَّ شعره لعربىّ ولقد استحقّ بما قال أكثر ممّا نال وما ذاك إنّما هى رواحل تُنْضَى وثياب تَبْلَى ودراهم تُفْنَى وثناء يبقى ومدائح تُرْوَى » .

إلّا أنَّ المديح كان سبب هَيَجَان طَمَع الشعراء فى المال وهِمَّتهم الساقطة فقلّ عدد الذين لم يجعلوا الشعر مَتْجَرًا وأنِفوا من السؤال بالمدائح مثل جميل ابن عبد الله بن معْمَر الذى يُحْكَى أنّه لم يمدَح أحدًا قط سوَى ذويه وأقاربه[٣].

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٥٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أو ج ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

أمّا أغلبهم فلم يستحوا من إظهار طمعهم أىّ إظهار وجعْل أنفسهم بمنزلة الفقراء السائلين كما قال نصَيْب[١] :

لعبد العزيز على قـومهِ وغيرِهم مِنَنٌ غامرَةْ
فبابُكَ أليَنُ أبوابِهِمْ ودارُكَ مأهولةٌ عامرةْ
وكلبُكَ آنَسُ بالمُعْتَفين من الأمِّ بابْنتها الزائرةْ
وكفُّكَ حين تَرَى السائلين أندَى من الليلة الماطرةْ
فمنْكَ العطاءُ ومنَّا الثَّناءُ بكلِّ محبَّرة سائرةْ

فألّف حاجب بن ذُبْيان المازنىّ قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلّب بخراسان فابتدأ قائلاً[٢] :

إليك امتطيتُ العِيسَ تسعين ليلةً أُرجّى نَدَى كفَّيْك يا ابن المهلّبِ
وأنت امرؤ جادت سماءُ يمينهِ على كلّ حىٍّ بين شَرْق ومغربِ

ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسماعيل بن يسار فى قصيدة أنشدها بين يدى عبد الملك بن مروان[٣] :

إليك إمامَ الناس من بطن يثْرِب ونِعْمَ أخو ذى الحاجة المتعمّدِ
رحَلنا لأنَّ الجُودَ منك خليقةٌ وأنّك لم يُذْمِمْ جَنابَك مجتدِ

قد مرّ عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام فى الكوفيّين ذكرُ شعراء متعدّدين امتدحوا بنى أميّة فى بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة عالية فى الصناعة مثل كعب بن جُعَيْل والمتوكّل الليثىّ فى أيام معاوية والأخطل

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١ ص ١٣٣ وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٤١ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

فى أيّام يزيد وهلمّ جرًّا وسنذكر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أنّنا نجد مع هؤلاء النوابغ عددًا غير يسير ممن لم يعْلُ أبدًا عن رتبة الشُّوَيْعِر أو الشُّعْرور واجتهد على ذلك فى نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية فى المديح وملأها ألفاظاً طنانة رنّانة وتشابيه غريبة وبالغ فى إطرائه أىّ مبالغة مثل قول طُرَيح ابن إسماعيل الثّقفىّ من أهل الطائف فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك[١] :

أنت ابنُ مُسْلَنْطِح البِطاح ولم تُعْطَفْ عليك الحُنِىُّ والوَلَجُ
لو قُلْتَ للسيْل دَعْ طريقك وال مَوْجُ عليه كالهَضْب يَعْتَلِجُ
لارتدَّ أو ساخَ أو لكان له فى سائر الأرض عنك مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات الّتى لا يستحسنها من له الذوق السليم ومثل هذه التشابيه المُضْحِكة لم تندُر عند أصاغر المُدّاح فيروى[٢] أنّ عبد الملك بن مروان قال يوماً : « يا معشر الشعراء تشبّهوننا مرّةً بالأسد الأبْخَر ومرّةً بالجبل الأوْعَر ومرّةً بالبحر الأجاج ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خرَيْم فى بنى هاشم » (الأبيات المرويّه ص ٢٧٩) .

فخلاصة القول أنّ أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام فى أيام بنى أميّة خمسة :

---

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٧٦ – ٨٦ ترجمة طريح بن إسماعيل الثقفى الذى (ص ٧٧) « نشأ فى دولة بنى أمية واستفرغ شعره فى الوليد ابن يزيد وأدرك دولة بنى العباس ومات فى أيام المهدى وقيل الهادى » وتروى الأبيات المذكورة فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٨٠ – ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه إن طريح قالها فى أبى جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغانى فى الموضع المذكور وكتاب العقد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً فى كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه أبياتاً لكعب الأشقرى.

(١) ما هو مغروز فى قلوب العرب الصميم من الولوع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويّين إلى الشعر وتعطّفهُمْ على قائليه بل كونُ كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرُها فيما يتّصل بالأمور السياسيّة .

(٤) حُظْوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواء لمجرّد استلذاذهم المَلَق أم لانتفاعهم بالمدائح السائرة فى الأقطار .

(٥) زيادة التّرَف والرفاهية التى يزيد بها نَفاقُ أسواق الآداب .

وممّا يُستغرَب بادئَ نظر قلّةُ الشعراء الشاميّين من أهل الحضر فى خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بيّنّا فيما سبق (ص ١١٩ ـ ١٣٥) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريّين الحجازيّين حتّى لا نكاد نعثُر عندهم على غيره من فنون الشعر مدّة القرن الأوّل (بعد خلافة عمر بن الخطّاب) وفى أوائل القرن الثانى . ووضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرونق الشعرُ فى الغزل والخمريّات فى مدن العراق الجنوبيّة فى ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتّصل بأغراض الأحزاب والفرَق . فمن أين خمولُ الشعر ذلك عند الحضر بالشام ومن أين فتورهم فى الاعتناء بنسج القريض ؟ ولِمَ امتنعوا مدّة عن الغزل والخمريّات على الأُسلوب المُحْدَث بالحجاز والعراق كأنّهم لم يعرفوا إلّاالقصائد على منوال القدماء وأهل البادية .

إنّ لذلك أسباباً . تفكّروا أولاً فيما تقدّم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعنى أنّ الذين انتقلوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلامىّ وبعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفُهم أو

أكثر كانوا يمنيّين أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أنّ هؤلاء المنتقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألِفوا عِيشة المدن إلّا شيئاً فشيئاً بعد مدّة غير قليلة فمكثوا يأنفون سُكْنى المدن يحنّون إلى التعرّب أى الرجوع إلى براريهم المتّسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذاتُ الخلفاء الأمويّين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصِدون البادية وقصورهم فى أرض البلقاء كلّما لم يمنَعْهم عن الخروج إليها مانع مهمّ . — أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط. بل توجّهت إليها واستقرّت فيها جملة من حضريّى الحجاز لمّا نقل علىّ بن أبى طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثمّ فى أيّام ذهاب الحسن بن علىّ وآل الزبير إلى نواحى السواد .

ثمّ تأمّلوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب فى العراق وأحوالهم فى الشام قبَيْل ظهور الإسلام . من المشهور أنّ المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا فى الجنوبيّة حضريّين من العرب وهم قسم من سكّان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتّخذوا جزءا من الحضارة العجميّة . فرأينا أنّ الخمريّات التى اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة فى أيّام بنى أميّة إنّما كانت من جنس الخمريّات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها فى عهد الجاهليّة كأنّها بأسرها مذهب شعرىّ واحد متواتر لم يزل فى تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيّام الدولة العبّاسيّة . فواضح أيضاً أنّ وجود أولئك العرب الحضريّين فى العراق سهّل وعجّل اختلاط المحتلّين الإسلاميّين بمن جاورهم من العجم هنالك . — أمّا فى الشام فالأمر خلاف ذلك . كان اللخميّون فى العراق فى القرن السابق للهجرة من أهل الحضر أمّا بنو غسّان بالشام فلم يزالوا متوسّطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يُقيمون تارةً بمساكن ثابتة بالبناء والمدر وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب

كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان لدفاع غارات قبائل الأعراب المستقلة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلاتهم مثل جلق والجابية قارنة بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواص الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أن الجيوش الإسلامية لمّا فتحوا بلاد الشام ما وجدوا فى مدنها وقراها سكّاناً من العرب خلافاً لما اتّفق لهم فى العراق فأعدمهم مَنْ يكون واسطة بينهم وبين الأهالى . ولكون أغلب المحتلّين من أهل البادية الكارهين القرار فى الأمصار تمادى بالشام البون الكبير بين العرب وبين سكّان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عامّ بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلّا نحو أواخر القرن الأوّل . فبتأخّر الاختلاط تأخّر انتقال معظم المتغلّبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخّر أيضاً عندهم تبوغ الشعر من النوع المألوف للحضر .

ثمّ لبقاء الشعر فى الشام على منوال قصائد النوابغ من عهد الجاهليّة سببان آخران أعنى ميل الخلفاء الأولين من بنى أمية إلى ذلك النوع من الشعر وشدّة سُلْطة معاوية فى بلاد الشام . يروى فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه[1] أنّ هذا الخليفة الأجلّ قال مرّة لعبد الرحمن بن الحكم : «يا ابن أخى إنّك شُهِرْتَ بالشعر فإيّاك والتشبيب بالنساء فإنّك تُعرّ الشريفة فى قومها والعفيفة فى نفسها ، والهجاء فإنك لا تعدو أن تُعادِىَ كريماً أو تستثير به لئيماً ولكن افخَرْ ببيت قومك وقُلْ من الأمثال ما توقّر به نفسك وتؤدّب به غيرك » . فلا شكّ أنّ هذا القول ولو لم تصحّ راويته على هذه الصفة هو ترجمان فكر معاوية فى الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار . وحرّم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغِناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز . فيروى على صفة استثناء أنّ عبد الله بن جعفر بن

(١) كتاب العقد ج ٣ ص ٨٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية فى دار عياله ولم ير به بأساً أن يغنّى ليلة فى تلك الدار [١] . ونفَذ ذلك التحريمُ بالشام مدّة القرن الأوّل على غرام بعض الخلفاء بسماع الألحان . ويروى فى موضع من كتاب الأغانى [٢] أنّ يزيد بن معاوية كان «أوّل من سنّ الملاهى [٣] فى الإسلام من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمر . . وكان يأتيه من المغنّين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلَع عليه ويصِله » . ولكن إن راجعتم الأخبار عن يزيد والمغنّين وجدتم أنّه كان يلقاهم عادةً بالحجاز ولم يقبَلْهم بدمشق إلّا فى أندر النادر وسرًّا بمساعدة أصدقائه المدنيّين لا سيّما عبد الله بن جعفر [٤] . وسائب خاثر المذكور فيما تقدّم إنّما كان من ساكنى المدينة [٥] .

أمّا أوّل الأمويّين الذى أدخل المغنين فى الشام فالوليد بن يزيد (١٠١/٧٢٠ – ١٠٥/٧٢٤) وهو أراد أوّلا أن يُدْخِلهم خِفْيةً مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغانى [٦] : «إنّ الوليد بن يزيد لمّا ولى الخلافة بعث إلى المغنّين بالمدينة ومكّة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرّقوا ولا يدخلوا نهارًا لئلّا يُعْرَفوا وكان إذ ذاك يتستّر فى أمره ولا يُظْهِره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهارًا وشُهِر أمرهُ فحبسه الوليد وأمر به فقيِّد وأذِن للمغنّين وفيهم مَعْبَد فدخلوا عليه دخلاتٍ ثمّ إنّه جمعهم ليلةً فغنّوا له حتّى طرِب وطابت نفسه إلخ ».

---

(١) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨٢ – ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ وراجع الحكاية فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٨٩ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٧٠ .

(٣) والملاهى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية .

(٤) ولعله لم يقبل شاعراً فى الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٠٣ – ١٠٤ و ١٨٩ من طبعة بولاق) .

(٥) قتل سائب خاثر فى سنة ٦٣/٦٨٣ يوم الحرة (راجع آنفاً ص ١٢٣ حاشية ٢) .

(٦) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٨١ – ٨٢ من طبعة بولاق فراجع كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ (وفيه محمد بن أبى عائشة بدلا من محمد بن عائشة) .

لعلّكم تسألون لماذا هذا الكلام فى صناعة الغِناء وإدخالها فى بلاد الشام ؟ ألم نكن نبحَث عن صناعة الشعر لا غير . أقول إنّ بين الصناعتين صلةً قويمة لا يجوز إهمالُ الفحص عنها لمن يريد بيان سيْر الشعر وتقلّباته فى أيّام بنى أميّة . لمّا تكلّمتُ عن الغزل الحقيقىّ بمدن الحجاز أثناء القرن الأوّل أوضحتُ تعلقه بتقلّب الأحوال الاجتماعيّة والاقتصادية فى الحرمين وزيادة الترَف والرَّفه بعد الفتوحات الإسلاميّة الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرّقاب وأشرتُ إلى الاتّفاق الواقع بين قدوم المغنّين والمغنّيات من الموالى بمكّة والمدينة وبين أوائل انتشار الشعر الغزلىّ فيهما . وذكرتُ أنّ أولئك الموالى كانوا فى بدء الأمر يغنّون بالرومىّ أو الفارسىّ ثم عدلوا إلى الغناء بالعربى فأصبحوا من أشدّ العوامل فى إهمال نسج القصائد على منوال المعلّقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدّبين . إنّ الألحان التى دخل بها الموالى والمماليك فى المدن الحجازيّة كانت من الأنواع المُسِرّة والمُطْرِبة وهى مما اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام ترويحاً للنفوس وتسلية للقلوب لا سيّما فى أيّام العيد والفرح أو عند المنادمة والمجالسة ، فما صلُحتْ لها الأعاريض الطويلة الثقيلة ولا أشعار مدارها على وصف أعضاء الناقة ومخاوف الفيافى ومتاعب السفر فى الرمال وغزوات القبائل إذ لا يُنكَر الارتباط الواقع بين نوع النّغمة والغناء المُتْقَن الصنعة وبين عروض الشعر وفحواه . وزيدوا على ذلك أنّ أولئك المغنّين أصلهم من العجم والحضر استصعبوا فَهْم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحّش المعنى . فإن تأمّلتم أيضاً أنّ الشعراء من حضريّى العراق والحجاز وجدوا الشعرَ أسرعَ رواجاً وأوسع شُهْرَةً وألذّ للنفوس وأوقعَ فى قلوب الناس إذا غُنّىَ على آلات السماع تمكّنتم من تقدير ما كان لصناعة الغناء

والألحان من التأثير فى تقلّب أفانين الشعر . — فالمحتمل عندى أنّه لولا منْع الغناء المُتْقَن والسماع إلى أواخر القرن الأوّل فى بلاد الشام لما تأخّر نبوغ الغزل والخمريّات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدّة طويلة .

فلجملة هذه الأسباب قلّ بالشام الشعراء من الحضر [1] إلى أواخر القرن الأوّل فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنيّة من رقّة العواطف ولينة الألفاظ وعذوبة الكلام لم يزل متوسّطاً بين الشعر الجاهلىّ وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق . أمّا الخمريّات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأوّل وما ذكروا الخمر إلّا لمجرّد وصفها أو للتشبيه بها مثل قول عدىّ ابن الرّقاع [2] :

أميدُ كأنّى شاربٌ لَعِبَتْ به　　عُقارٌ ثَوَتْ فى سِجْنِها حِجَجًا سَبْعَا

مَقَدّيّةٌ صَهْباءُ تُنْخِنُ شَرْبَها　　إذا ما أرادوا أنْ يراحوا بها صَرْعى

عُصارةُ كرم من حُدَيْجاء لم يكن　　منابتها مُسْتَحْدَثات ولا قُرْعَا

أو مثل قوله [3] :

كُمَيْتٌ إذا شُجّتْ وفى الكأس وَرْدةٌ　　لها فى عِظام الشاربين دبيبُ

---

(١) لا أعد فى شعراء الشام من الحضر عبد الرحمن بن الحكم أخا الخليفة مروان بن الحكم (٦٤/٦٨٣ — ٦٥/٦٨٥) لأنه أقام بالحجاز مدة أطول من إقامته بالشام بل لم يزل فى بلاد الحرمين حتى نفاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بنى أمية . وكان « متوسط الحال فى شعراء زمانه وكان يهاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » (كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره القريب من نوع الخمريات والخلاعة الأبيات الثلاثة المروية له فى كتاب الكامل للمبرد (ص ٧٢ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٦٠ من طبعة مصر ١٣٢٣—١٣٢٤) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٧٢—٧٦ .

(٢) كتاب معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٩٥ من طبعة ليبسك . يروى البيت الأول والثانى فى لسان العرب ج ٤ ص ٤١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكرت شربها » وبهذه الرواية صار الشاعر شارب خمر .

(٣) كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

تُريك القَذَى من دونها وهْى دونه   لوجْه أخيها فى الإناء قُطوبُ

فيروى أنّ سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ – ٩٩/٧١٧) لما سمع هذين البيتين قال لعدىّ بن الرقاع : شربْتَها وربّ الكعبة . قال عدىّ والله يا أمير المؤمنين لئن رابَكَ وَصْفى لها قد رابنى معرفتُك بها . فتضاحكا وأخذا فى الحديث. – فنفس هذه الحكاية تدلّ على ما أردنا بيانه أى ندرة شرب الخمر عند أهل الحضر بالشام وإمساك شعرائهم عن الخمريّات أثناء القرن الأوّل خلافاً لحضر العراق . وما هو مشهور من انهماك الأخطل فى الشراب وأشعاره فيه لا يدحَض قولى إذ كان الأخطل بدويّاً عراقيّاً نصرانيّاً .

كان عدىّ بن الرقاع [١] السابق ذكره من أقدام شعراء الحضر بالشام مدّاحاً لبنى أميّة كثير الحظّ عندهم لا سيّما الوليد بن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ – ٩٦/٧١٥) ومنزله بدمشق وهو من المُجيدين فى المديح والنسيب الرقيق اللطيف الخالى عن تغزّل شعراء الحجاز والعراق . ومن أبياته التى ذكر فيها عنايته بإتقان بِنْية شعرهِ وخِبْرَتَهُ بأحوال الحياة[٢] :

وقَصيدةٍ قد بِتُّ أجمعُ بَيْنَها   حَتّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنادَها

نَظَرَ المثقِّف فى كُعُوبِ قَنَاتِهِ   حَتّى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنْآدَها

أوَمَا تَرى شَيْباً تَفَشّغَ لِمّتى   حَتّى عَلاَ وَضَحٌ يَلوحُ سَوادَها

فلقدْ تَبيتُ يَدُ الفَتاةِ وِسادَةً   لِىَ جاعِلاً إحْدَى يَدَىَّ وِسادَها

ولقد أَصَبتُ منَ المَعيشةِ لَذَّةً   ولَقيتُ منْ شَظَفِ الخُطوبِ شِدادَها

وعمِرتُ حتّى لستُ أسْألُ عالِمًا   عن حرْفِ واحِدَةٍ لكَىْ أزْدادَها

صَلّى المَليكُ على آمْرِئٍ وَدَّعْتُهُ   وَأتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وزادَها

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٧٩ – ١٨٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٩١ – ٣٩٣ (حر ص ١٧) من طبعة ليدن وتروى له أبيات فى الكامل للمبرد ص ٨٥ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٧١ من طبعة مصر ١٣٢٣ – ١٣٢٤ [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٤ – ١٤٥] .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٩٢ من طبعة ليدن .

ومن لطيف شعره[1] :

وممّا شَجانى أنّنى كُنْتُ نائماً أُعَلَّلُ من بَرْدِ الكَرَى بالتَّنَسُّمِ
إلى أنْ بَكَتْ وَرْقاءُ فى غُصْنِ أَيْكَةٍ تُرَدِّدُ مَبكاها بحُسْنِ التَّرَنُّمِ
فلو قَبْلَ مَبْكاها بَكَيْتُ صَبَابَةً بسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قبل التَّنَدُّمِ
ولكن بَكَتْ قَبْلِى فهاجَ لى البُكا بُكاها فَقُلْتُ الفَضْلُ للمُتَقَدِّمِ

ومن نصّ وارد فى كتاب الأغانى[2] وممّا نقلته آنفاً من كتاب العقد الفريد يستنج أنّه أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومن معاصرى عدىّ بن الرقاع المشهورين شاعر ليس أصله من العرب وهو أوّل من قال الشعر الجيّد اللطيف بالعربىّ من السود أعنى به نُصَيْب بن رباح[3] مولى عبد العزيز بن مروان . واختلفوا فى أصله فلو صحّت رواية من قال إنه من أهل وَدّان[4] وعبد لرجل من بنى كنانة الساكنين هناك اشتراه عبد العزيز لكان من المغاربة . والمحتمل إذًا أنّ عبد العزيز[5] اشتراه فى أيّام ولايته مصر فى خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كل حال عاش نصيب بالشام وبها قال أكثر شعره فيُعَدّ من المقدّمين عند خلفاء

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٠٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ ، ويروى البيتان الأخيران أيضاً فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١ ص ١٢٩ — ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٢ — ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع U. RIZZITANO, *Adā Miḥgan· Nuṣayb ibn Rabāḥ* [*Rivista degli Studi Orientali*, XX, Roma 1943, P. 421-472; XXII, 1947, P.23-35]

(٤) وعلى الأرجح ليست ودان نصيب المدينة المشهورة فى أفريقية بل هى موضع بين مكة والمدينة المنورة يذكره نصيب فى أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليبسك) .

(٥) توفى عبد العزيز بن مروان سنة $\frac{٨٥}{٧٠٤}$.

بنى أميّة الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة[1] وهو أجاد المديح والمراثى والنسيب، ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنّه لم ينسب قط إلاّ بامرأته . وتجدون عدّة أشعاره فى كتاب الأغانى فأقتصر على ذكر بيتين له مرويّين فى حماسة أبى تمّام[2] معناهما كثير الشَّبْه بمعنى أبيات عدىّ بن الرقاع المذكورة آنفاً :

لقد هَتَفَتْ فى جنحِ ليْلٍ حمامةٌ   على فَنَنٍ وهْنًا وإنّى لَنائمُ
كذَبْتِ وبيتِ الله لو كنتُ عاشقًا   لَما سبَقَتْنى بالبكاء الحمائمُ

وما وقفتُ على سنة وفاتِهِ فالواضح عمّا جاء فى كتاب الأغانى[3] أنّه كان فى قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة $\frac{٨٥}{٧٠٤}$.

كفى ما تقدّم دليلاً على قدر الفرق بين شعر الحضر بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز فى القرن الأوّل غير أنّ هذا الفرق اضمحلّ بعد أوائل القرن الثانى بقليل إذا تقلّبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدّة الخلفاء فى حكومتهم وأخذهم فى تقليد أبّهة قدماء الملوك من بنى ساسان بالمدائن وفخامة ملوك الروم بالقسطنطينيّة فى اللباس والطعام والأوانى وجميع أنواع الترف . وجُلبت الخِصْيان من بلاد الروم وأُدخلت فى دمشق المغنّون والمغنّيات عَلَنًا فى أيام الوليد بن يزيد ($\frac{١٢٥}{٧٤٣}$ – $\frac{١٢٦}{٧٤٤}$) حسبما شرحته فيما تقدم، وأُظهِر شرْبُ الخمر وفسُدت الأخلاق ودبّت فى عرب المدن الخلاعة فبتقلّب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين الشعر فعمت الشام الأشعار فى الخمر والغزل .

ورئيس هولاء الشعراء الذين ذهبوا بدمشق المذهب الجديد الوليد بن

---

(١) انظر الأبيات المروية له سابقاً ص٢٩١ .

(٢) كتاب الحماسة لأبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أرج ٣ ص ١٤١ – ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بولاق .

يزيد[1] الذى وصفه صاحب الأغانى قائلاً[2] : «وكان من فتيان بنى أميّة وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدّائهم وكان فاسقاً خليعاً متّهَمًا فى دينهِ مرميًا بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتّى أنكره الناس فقُتل وله أشعار كثيرة تدلّ على خُبْثه وكُفْره ومن الناس من ينفى ذلك عنه ويُنْكِره ويقول إنّه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك» . وقال بعض الرواة إنّ الذى أضلّه مودّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينهِ[3] . فلو جمعنا ما يُعْزى إلى الوليد من الأشعار وما يُرْوَى فى حقّه من الأخبار وما يُنْسَب إليه من الكلام الكثير الوَقاحة والدّناءة لاستغربناه كلّ الاستغراب وتعجّبنا منه بتقليده منصِبَ الإمامة ولو مدّةً يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطّلع عليه فى بعض الكتب[4] :

أنا الإمامُ الوليدُ مفتخرًا ... أجُرُّ بُرْدِى وأسمعُ الغَزَلا
أسْحَبُ ذَيْلى إلى منازلها ... ولا أبالى مَن لامَ أو عَذَلا
ما العيْشُ إلّا سماعَ مُحْسِنَةٍ ... وقهوةٌ تَترُكُ الفتى ثمِلا
لا أرتجى الحورَ فى الخلود وهل ... يأمُل حُورَ الجِنانِ مَن عَقَلا
إذا حَبَتْكَ الوصالَ غانيةٌ ... فجازِها بَذلَها كَمَنْ وصلا

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٠١ — ١٤١ و ج ٨ ص ١٦١ — ١٦٢ من طبعة بولاق وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفى باب الحادى بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٥ — ١١ من طبعة باريس ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [— ١٣٢٥] ويروى له بيتان « فى المجازات بالخير والشر مثلا يمثل » فى حماسة البحترى ص ٢٣٧ من طبعة ليدن أو ص ١٦١ عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walīd ibn Yazīd, il califfo e il poeta* (*Rivista degli Studi Orientali*, XV, 1934, PP. 1-64)] .

(٢) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الغفران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ — ١٣٢٥ .

ويقال إنّه لمّا أُحيطَ به دخل القصر وأغلق بابه وقال[1] :

دَعوا لىَ هِنْدًا والرَّبابَ وفرتَنَى ومُسْمِعَةً حَسْبِى بِذلك مالا

خُذوا مُلْكَكم لا ثَبَّتَ اللهُ مُلْكَكم فَليس يُساوِى بعد ذاكَ عِقالا

وخلُّوا سَبيلى قَبل عَيْرٍ وما جَرى ولا تحسُدونى أن أموت هُـزالا

غير أن الحكْمَ المُنْصِف فى الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأمَّلنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويّين . فُقِدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سِيَر بنى أمية منقول من مؤلّفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا فى تسويد معاوية ويزيد لما جرى بينهما وبين علىّ بن أبى طالب وآله . أما المتعصبون ببنى العباس فاجتهدوا فى تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بنى أمية لما وقع من العداوة بينهم وبين بنى هاشم . ثم تفكّروا فى أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أنّ الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا فى قبول روايات الحاقدين على بنى أمية بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهواءهم ؛ فنتيجة كل ذلك أن المورخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبى الفداء اغترّوا وضلّوا أىّ ضلال فى بعض ما رووْه من أخبار الأمويّين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأوّل من وضع الأحاديث بُغْضاً لبنى أمية وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى النبى القول بأن سيقوم فى بنى ثقيف كاذب ومُبِيرٌ فإنّهم فسّروا هذا الحديث قائلين بأن الكاذب مختار بن أبى عبيد والمُبير الحجّاج

(١) رسالة الغفران ص ١٤٦ وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

ابن يوسف[١] . وفى حديث آخر مختلَق كالسابق يُظهِر النبى وهو مُشْرِف على الموت كراهته لثلاثٍ من قبائل العرب أى بنى ثقيف وبنى حنيفة وبنى أمية[٢]. وكذلك نُسِبَ إلى النبىّ أنّه لقى رجلاً قد سمّى ابنه الوليد فقال له : أنتم تسمُّون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنّه سيقوم رجل اسمُهُ الوليد يضُرُّ أمّتى أكثر مما ضَرَّ فِرْعونُ شعبَهُ[٣]. فلو راجعتم الأحاديث الموضوعة من باب الفتن والملاحم والمهدى[٤] عثرتم على مثل ذلك مما زُوّر لتسويد أعراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية . وفى وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض فى القرن الثانى والثالث دلالة على التقلُّب العظيم الذى حدث فى ذلك العصر فى هيئة المسلمين الاجتماعية . إنّ العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصامهم وشَتْمَهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأنّ الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم. أما الشعوب الإسلامية غيرُ العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح فى تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجئُوا إلى المصنَّفات المنثورة على كثرة أنواعها . ومنها الأحاديث الموضوعة . فمن يرد البحث العميق فى تاريخ الأمم الإسلامية فلا بد له من الاطّلاع على تلك الأحاديث المختلقة المزوّرة لأنّها فى الحقيقة خزانة آراء الفِرَق وأغراض الأحزاب التى كثيرًا لا تتّضح من الكتب المؤلّفة فى العلوم التاريخية فتشبه منزلتُها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثانى.

---

(١) رواه Goldziher فى كتابه *Muhammedabnische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصابيح السنة البغوى وابن بدرون .

(٢) راجع الموضع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بنى حنيفة لم يذكروا فى هذا الحديث إلا لكون نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة منهم .

(٣) راجع GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110

(٤) انظر مثلا الترملى وأبا داود وراجع GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II, P.127

وبعد هذا الاستطراد أرجع إلى سياق الكلام فأقول إنَّ الوليد بريء على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخبار والأشعار . ولكن ولو سلَّمنا ورود التزوير فيها والافتراء فى حقِّه فلا ريب أنَّه تمادى فى الشرب واللذات وأفرط وأنَّ كثيراً مما يُرْوَى من غزلياته وخمرياته صحيحُ الرواية موثوق به . ولعل غرامهُ سماع أشعار القدماء الذين عاشوا فى مملكة الحيرة لا سيا عدى ابن زيد العبادى أثَّر فى أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أنه أثّر فى شعر الحضر من العراقيين أثناء القرن الأوّل والثانى للهجرة . فواضح أنّ منظوماتِ شعراء الكوفة وشعراء دمشق فى أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين فى أيام بنى العباس .

٨ – فعلينا الآن أن ننتقل إلى الصنف الثامن من الشعر فى أيّام بنى أمية وهو الذى سمّيته الشعر القَصَصِيّ اليَمَنِيّ .

لمّا تكلمت عن شعر النصارى فى زمن الجاهليّة أومأتُ إلى ما جاء به عدىّ بن زيد العِبادىّ فى بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكرُ عبرةً للمعتبرين، و برهاناً على زوال الأرضيّات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد ، ونصيحةً لأولى الألباب لئلاّ يُغرّوا بطِيب العيش وأبّهة المُلْك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حائيّة مشهورة منسوبة إلى نصرانىّ آخر من أيّام الجاهليّة أعنى قُسّ بن ساعدة الإيادىّ يَذْكُرُ فيها بعضَ من هلك من ملوك حِمْيَر الكبار ليتفكّرَ الإنسانُ فى فناء جميع ما ربّما يبغيه وينافِس فيه من السودد والمال واللذّات[1].

ومن المشهور أنّ بعض المتأخّرين سلكوا هذا المسلك من الزُّهْديات لنظم

---

(١) راجع مثلا شعراء النصرانية ص ٢١٧ – ٢١٨ وأيضا VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

ما يُشْبِه مختصر تاريخ الدول منهم عبد المجيد بن عبدون المتوفَّى سنة ٥٢٩ ناظم القصيدة الطويلة المسمّاة بالبشّامة ألّفها عند انقراض دولة بنى الأَفْطَس بمدينة يابُرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ فلمّح فيها إلى أحوال جميع دول الأندلس منذ الفتح الإسلامىّ فبادرت العلماء إلى شرحها بشروح مطوّلة أصبحت كتباً تاريخيّة لا غير[1] . ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتّخذوا الزهديّات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول نَشْوان بن سعيد الحِمْيَرى المتوفى سنة ٥٧٣ صاحب القصيدة الحميريّة[2] المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلى صفة سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير . وهى قصيدة حائيّة مثل القصيدة المنسوبة إلى قُسّ بن ساعدة وأوّلها :

الأَمْرُ جِدٌّ وَهْوَ غَيْرُ مُزاحِ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صالِحًا يا صاحِ

كَيْفَ البَقَاءُ مَعَ اخْتِلافِ طَبَائِعٍ وَكَرٍّ لَيْلٍ دائمٍ وَصَباحِ

وبعد المطلع المحتوى على تسعة أبيات فى الزهد يبتدئ الشاعر يقول :

أفأين هُودٌ ذو التُّقَى وَوَصِيَّةٍ قَحْطانُ زَرْعُ نُبُوَّةٍ وَصلاح

أَمْ أَيْنَ يَعْرُبُ وَهْوَ أَوَّلُ مُعْرِبٍ فى النَّاسِ أَبْدَى النُّطْقَ بالإفْصاحِ

ثمّ ألّف نشوان شرحاً مطوّلا على قصيدته ليفصل بيان الأخبار الملمّح إليها فى النظم وأدرج فى الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير القدماء وملوكهم فتُعْزَى أبيات إلى الحارث الرائش أول التبابعة على رأى أصحاب الكتب فى السِّيَر والتواريخ من العرب وتُعْزَى أبيات أخرى إلى أسعد تُبّع والتُّبّع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عمّا يُنْسَب إلى الشعراء

---

(١) فليراجع مثلا شرح ابن بدرون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [وبمصر سنة ١٣٤٠] .

(٢) اعتنى المستشرق A. von Kremer بنشر متن القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية
(A. VON KREMER, *Die himjarische Kasideh*, Leipzig 1865).

غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهلِ حِمْيَر ومفاخرهم وقصورهم المشيَّدة ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد فى أقاصى الأرض مثل فارس والهند والصين من جهة الشرق وطنجة وكانَنْبو من جهة الغرب وبلاد السودان .

فمثال هذا الشعر ما يُنْسَب إلى التُّبَّع الأكبر[١] (من بحر الطويل) :

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله فى الزمن الخالى
ملكناهم قهرًا وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار ترى بأبطال
وكلّ عباد الله قد وطئت لنا خيولا لعمرى غير نكس وأعزال
فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
وعُطِّل منها كل حصن ممنَّع ونقِّل منها ما حَوَتْهُ من المال
وتلك (تروع) الأرض منها وطاءها إلى الصين والأتراك حالا على حال
فأُبْنا جميعاً فى السبايا وكلّنا على كل محبوك من الخيل صهّال
بكلّ فتاة لم تَرَ الشمس وجهها أسيلةِ مجرى الدمع بيضاء مكسال
صَموت البُرى غرثى الوشاح كأنها من الحسن بدر زال عن غيمٍ هطّال

وبعض أبيات التبابعة المروية فى شرح نشوان قد جاءت أيضاً فى كتاب المعارف لابن قُتَيْبة[٢] المتوفّى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التى نُقِلت عنها وقليل منها وَارِد أيضاً فى كتب غيره . — ومن المشهور القصيدة الظريفة لعَلْقَمة ذى جَدَن الحِمْيَرىّ[٣] الشاعر الذى وصف فيها ما ذاق من اللذات

---

(١) طبع المتن فى A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, No. 19, P. 17-18 والنقل فى VON KREMER, *Ueber die sudarabische Sage*, Leipzig, 1866, p. 75-76.

(٢) كتاب المعارف ص ٣٠٤ — ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ — ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٠٠ .

(٣) تروى له قصيدة أخرى فى جمهرة أشعار العرب فى باب أصحاب المراثى ص ١٣٧ — ١٣٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ وفى نيل الأرب فى قصائد العرب ص ٧٠ — ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ ولها ستة وعشرون بيتاً وقيل فى جمهرة أشعار العرب إن اسمه علقمة وقيل فى كتاب الأغانى (ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ من طبعة بولاق) إنه علس . أما ذو جدن فهو قوم شريف فى اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische Frage*, Leipzig 1909, P. 324-325.

سابقاً وما كان لقصر غُمْدان من الفخامة قبل كَرّ الدهور عليه وذَكَرَ هلاكَ ذى نواس آخر ملوك حِمْيَر وهى قصيدة تُرْوَى فى سيرة الرسول لابن هشام[1] وتاريخ الطبرى [2] وغيرهما . ويروى لذى رُعَيْن الحميرىّ الشاعر أبيات مشهورة متعلّقة بأحوال اليمن القديمة[3] :

أَلا مَنْ يشترى يَوْماً بدهرٍ قليلاً ما يبيت قرير عَيْنِ

أَبَيْنا الغَدْر إذ رغِبَتْ إليه مَقاوِلُنا فأَمسوا رَهْنَ حَيْنِ

فإنْ تلكَ حِمْيَرُ غدَرَتْ وخانَتْ فمعذِرةُ الإله لذى رُعَيْنِ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتّصلة بأخبار اليمن ومفاخرها فى زمان الجاهلية المتداوَلة فى القرن الأوّل للهجرة حسبما نبيّنه عن قريب هى ما سمّيْتُهُ الشعر القَصَصِىّ اليمنىّ مستنداً فى اختيار لفظ. القَصَصِىّ إلى اصطلاح كَتَبَة العرب فى القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل استطراد .

لمّا نُقلت كتب أرسطوطاليس فى صناعة الشعر إلى العربيّة اشتد تحيُّر المترجمين فى تعريب الموضوع والاصطلاحات لعدم موافقة أنواع الشعر عند اليونان لأنواعه عند العرب . ومن الأنواع المجهولة عند الناطقين بالضاد المسمّى باليونانيّة epiké وهو لفظ. معناه الأصلىّ قَصَصىّ (من قَصص القِصَص) غير أنّ اليونان اصطلحوا به على جنس من الشعر ليس له مقابل فى الآداب العربيّة . فلمّا قام ابن رشد الأندلسىّ بتلخيص كتاب أرسطوطاليس فى صناعة الشعر استعمل لفظ. القصصىّ وبيّنه بياناً يُظهِر أنّه لم يكن يُحيط. بذلك

(١) سيرة الرسول ص ٣٦ — ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ من طبعة ليدن .

(٣) تروى الأبيات فى سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف لابن قتيبة ص٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

النوع من الشعر اليونانيّ علماً يقيناً ولا رضّنه معرفةً فقال (١) : «الأشعار القصصية سبيلُها فى الأجزاء التى هى المَبْدَأ والوَسَطُ والنهاية سبيلُ أجزاء صناعة المديح وكذلك فى المحاكاة إلّا أن المحاكاة لا تكون للأفعال فيها وإنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعالُ وذلك أنه إنّما يُحَاكَى فى هذه كيف كانت أحوالُ المتقدّم مع أحوال المتأخر وكيف تُنْقَل الدُّوَلُ والممالك والأيام . ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل فى لسان العرب وهو كثير فى الكتب الشرعية . وذكر مُجيدين فى هذا الصنف من شعرائهم وأثنى ثناء عامًّا على أوميرُش . ومن جيّد ما فى هذا المعنى للعرب قول الأسْوَد ابن يَعْفُر :

ماذا أُؤمّلُ بعد آل مُحَرِّق ... تركوا منازِلَهم وبعد إياد

أرضِ الخَوَرنَقِ وٱلسّدِير وبارق ... والقصر ذى الشُّرُفات من سِنْداد

نزلوا بأَنْقِرَة يسيل عليهم ... ماءُ الفرات يجىءُ من أطواد

جَرَتِ الرياحُ على محلّ ديَارِهم ... فكأنّهم كانوا على ميعَاد

فأَرَى النَّعِيمَ وكل ما يُلْهَى به ... يوماً يصير إلى بِلًى ونَفادِ» (٢)

فيتّضح من هذا النصّ أن ابن رشد لعدم دراية له بشىء من الآداب اليونانيّة لم يتوصّل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أنّ الأشعار القصصيّة هى الأشعار المتوسّطة بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرتُ إليه من قصائد

---

(١) تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر لأبى الوليد بن رشد ص ٤٠ — ٤١ من طبعة فيرنسة سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخو ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e Poesia araba nell' interpretazione della poetica Aristotelica* ... (*Rivista degli Studi Orientali*, XII, 1929-1930), p.294 n.2, PP. 322-324]

(٢) الأبيات مروية فى شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغانى ج ١١ ص ١٣٤ — ١٣٥ من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١٧١ و ٢٢١ من طبعة ليدن ١٨٨٤ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٣ ص ١٦٥ من طبعة ليبسك .

عدى بن زيد وقُسّ بن ساعدة . — وفى كتاب حديث وهو «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو» تأليف المَقْدِسىّ[1] سمّى ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسىّ وهو تعريب بعيد جدًّا يدُلّ على قلّة المعرفة بآداب الغرب . فقال المؤلّف إنّ ذلك الشعر «رواية الوقائع العجيبة التى يقوم بها الشُّجْعان» وإنّ «موضوعه الوقائع الملفّقة المشتملة على غرائب الشّجاعة ونوادر الفروسيّة» ثمّ إنّ الشعر العربىّ «يوجد فيه[!] أيضاً من الشعر الحماسىّ وهو الذى رُوى فيه أخبار الحروب وأُطْنِب بشجاعة الشّجْعان» وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف إليها «كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبى تمّام» . فالواضح أنّ المقدسىّ اغترّ فى وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذى اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إن الشعرَ القَصَصِىَّ المرادَ فى كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيدَ طويلة جدًّا مشتملة على ألوف أبيات لم يصُغْها الشاعر للتعبير عمّا فى صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعاينه وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هى العادة فى أشعار العرب التى لا تلمح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو الهجاء أو الاعتبار الزهدى، بل نسجها الشاعر القصصىّ متكلماً عن لسان أمّة بأسرها راوياً ما حدَث لكلّها من الحوادث العظمى فى عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر اتُّخِذَ كالبطل الممَثِّل لجلالة جميع الأمة وعمرانها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأمّة وأميالها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلاً عن جيل ،

---

(١) طبع فى مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ .

وهى آثار نظمها الشاعر بعد مدّة طويلة وزيّنها وحلّاها بسحر البيان وجعلها مُتّصلةً بعضَها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتّى ليس لها صلة ضروريّة بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لتداخل الآلهة والجنّ والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة المجيدة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحثّ على الشجاعة وأنواع الكَرَم. فيَسهلُ عليكم تصوُّر ماهيّة تلك الأناشيد إذا اطّلعتم على الوحيدة منها التى نُقلت إلى العربية أعنى إلياذة هميرس ترجمها حديثاً سليمان البستانى بما له من طول الباع فى اللغتين اليونانية والعربية وبما له من الحظ الوافر فى صناعة القريض[1] .

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيتم أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصىّ توافقًا تامًّا فحملنى هذا الوفاق على انتخاب هذا الاصطلاح . فبقى علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقىّ وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى التبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدلُّ دليل على أن الأشعار مختلفة . ولكن ولو لم نكتشف فى السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصّل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية وإنّما استعملوا السبئية أو الحميرية فليست رواية أبيات التبابعة أصحّ من رواية الأبيات العربية التى تعزى فى بعض الكتب إلى سيّدنا آدم . — هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياء الدين بن الأثير الجزرى فليراجع ما قاله فى آخر كتاب المثل السائر ص ٥٠٣ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

أمّا الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذى جَدَن وإلى ذى رُعَيْن المتأخرة عن موت ذى نواس فيلوح من بعض عباراتها أنّ أصحابَها مسلمون . فليس من المُحال أنّ علقمة ذا جدن وذا رعين شاعران عاشا فى أوائل الإسلام . غير أن وجودَهما لا يخلو من ريب فيه كما يتّضح مما يتلو من كلامى .

يُستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة فى كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبرى وغيرهم على روايتها الوسعى فى شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصلىّ لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين[1] لعبيد[2] ابن شَرْيَة الجُرْهُمىّ الذى أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية بن أبى سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من ألسنة أهل صنعاء ومن مقدرته على اختلاق الأخبار مثال فى كتاب ابن خلكان فى ترجمة الشريف الرضى[3] . وتعرفون أيضاً أن القُصّاص من اليمن كثيرون فى القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه (المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الإسرائيليات وغيرها من الكتب التى هى أقرب إلى الخرافات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن المزوّرين المعاصرين لعبيد بن شرية يزيد بن مفرّغ الحميرىّ المتوفى سنة ٦٩ الذى سبق ذكره فى شعراء الصنف السادس قيل فى حقه فى كتاب الأغانى[4] :

«قال [أبو العيناء] : سئل الأصمعى عن شعر تبّع وقصته ومن وضعها فقال

(١) [راجع ما قاله فى هذا الكتاب وعنوانه الصحيح فى C. Brockelmann *Geschichte der arabischen Litteratur*, Erster Supplementband, P.100]

(٢) واسمه عبيد بضم العين وفتح الباء وبعدها الياء مسكنة وراجع حواشى Goldziher ص ٢٩—٣٠ من كتاب المعمرين للسجستانى عدد ٣٩ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وراجع أيضاً VON KREMER, *Sudarabische Sage*, P.47-49.

(٣) عدد ٦٧٨ من طبعة غوتنجن أو ٦٣٩ من الطبعات المصرية .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٥٢ .

ابن مفرّغ وذلك أنّ يزيد بن معاوية لما سيّره إلى الشام وتخلّصه من عبّاد ابن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حِمير ووضع سيرة تبّع وأشعاره » .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهي ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحبّ كلّ شَعْب للافتخار بأجداده ولاسيّما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان فى القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار فى أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وحطّ عرب نزار الذين لم يكن لهم مآثر تقابل مآثر أهل اليمن فى قديم الزمان . وهى الطريق التى سلكها سائر الأمم الإسلامية فى مثل ذلك كما شرحته فى دروس السنة الفائتة[1] لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أو بالحرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط. وهى أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها فى الكتب وهو أيضاً الداعى الذى حمل الشاعرين الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المسماة بشاهنامه . غير أنّ الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة البهلوية فى السير والتواريخ فما اضطُرّوا إلى تلفيق ما وصل إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أنّ المزوّرين اليمنيين لئلّا يُظْهروا غرضهم بل لتنال أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبياتاً للحارث الرائش أول التبابعة تنبّئ مجيء النبي بعد قرون[2] ورووا أن أسعد كاملاً « كان مؤمناً وآمن بالنبي (صلعم) قبل مبعثه بسبعمائة سنة وقال :

---

(١) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى لكرلو نلينو ص ٢٠٨ — ٢١٠] .

(٢) كتاب مروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس ج ١ ص ١٢٣ من طبعة باريس .

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله بارئ النَّسَم
فلو مُدَّ عُمْرى إلى عمره لكنت وزيرًا له وابنَ عَمّ[١] »

فستروا غِشَّهم بإظهار التُّقَى[٢] .

٩ ـ وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المرثية وإننا نجد فى معظم شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثى ولكن هذا . النوع نفسه إنما خصت به النساء فإنهن لم يأخذن يقلن الشعر فى غير هذا الجنس إلا فى عصر بنى العباس ومما يعجبنا عند قراءة مراثى العصر الأموى مشابهتها لمراثى الجاهلية ولذلك أسباب شتى منها قلة التنوع الشعورى والإلهام الشعرى عند العرب القدماء وعادتهم أن ينسجوا على منوال الأولين وأخيرًا اختصاص النساء بهذا النوع وهُنّ محافظات لسنّة السلف دون غيرهن .

---

(١) يشير إلى ذلك von Kremer فى كتابه *Ueber die südarabische Sage*, P. 63

(٢) [انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المسودة التى كتبها أبى باللغة الإيطالية] .

فهرست الأعلام

فهرست

صفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٤٤٢٩/٦٩

تاريخ الآداب العربية

لقد كان هذا الكتاب بحق سبباً في تكوين أعلام الأدب في عصرنا الحديث ، لقد وجد طلاب الجامعة المصرية القديمة في محاضرات نالينو في الأدب العربي وتاريخه شيئاً لم يألفوه من قبل في الأساتذة أو في كتب الأدب القديمة . .

لقد فتح نالينو الطريق لدراسات جادة رصينة في الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الأموي ، كما درس النثر وتطوره جاهلية وإسلاماً ، فهدانا بذلك إلى شعر الفتوح وشعر المشركين وشعر الغزل والشعر السياسي والشعر القصصي اليمني وغيرها من طريف الموضوعات .